الأستاذ الدكتور
أحمد مصطفى أبو الخير
الخبير الدولي في اللغة العربية

ثورة عثمان بن فودي في غرب القارة الإفريقية

(ت : ١٨١٧م)

دراسة في الثورة والثورات وأسباب قيامها
وكيف تقاوم وكيف يقضى عليها

الناشر
دار الأصدقاء بالمنصورة - مصر
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

Abu_elkher@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بشرى النبي الخاتم

يا أمة محمد ، إليكم بشرى نبيكم (ﷺ) :

(تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) [1].

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤ / ٢٧٣.

الإهداء

إلى العاملين الحقيقيين المخلصين في الحقل الإسلامي.

إلى القائمين على الحق حتى يأتي أمر الله.

إلى من يتشوقون إلى عودة الخلافة الراشدة التي تزود عن حياض الإسلام والمسلمين.

إلى هؤلاء جميعا ..

حيثما وجدوا ، وأينما كانوا

نهدي هذا العمل المتواضع

المؤلف

مقدمة

أولا : الخلافة والملك :

كثيرا ما يكتب عن الخلافة العثمانية ، أو الدولة العلية ، كما تسمى أحيانا باعتبارها آخر الدول الإسلامية ، وبخاصة قبل قيام الجمهورية الإسلامية ١٩٧٩م ، وبرغم هذا فنحن بحاجة إلى كتابات أكثر تدفع عن خلافة آل عثمان ما يثيره الأعداء ضدها من افتراءات ، وتلقي أضواء كاشفة على المؤامرات المكثفة التي انتهت بسقوط هذه الإمبراطورية الإسلامية العظمى ، حتى لا يلدغ المؤمنين من جحر واحد مرتين ، فيكون المسلمون على بصيرة من أمر أعدائهم فإذا قامت دولة إسلامية كان أمامها خارطة المؤامرات المتوقعة وجبهة الحرب المنتظرة ، حتى يستفيد الخلف من تاريخ السلف وأبناء اليوم والأحفاد من الآباء والأجداد.

وعلى الرغم من هذا الاهتمام الكبير بخلافة آل عثمان ، وبوجوب مزيد من هذا الاهتمام فإننا لا نستطيع أن نفهم قضية الخلافة الإسلامية ـ بشكل عام ـ فهما كاملا وتاما دون النظر إليها من جميع الزوايا ، أو بمعنى آخر لابد من دراسة الدول الإسلامية التي بقيت حتى العصر الحديث حيث أسقطتها القوى الاستعمارية المستكبرة ، وهو ما حدث في تركيا والهند وغرب إفريقية ، ولهذا فنحن بحاجة ماسة إلى دراسة الخلافة الإسلامية في الهند وكيف قضى عليها الإنجليز ، وهو ما نأمل أن نراه قريبا إن لم يكن تم حتى الآن.

ومن هذا المنطق رأيت أن أقوم بالكتابة عن الخلافة الإسلامية في السودان الغربي ، المسمى الآن بغرب إفريقية ، لتكون النظرة العامة إلى قضية الخلافة أقرب إلى التمام والكمال.

وقد رأينا أن نصِف الخلافة في السودان الغربي بأنها راشدة وقد أشرنا في موضعه إلى السبب في إطلاق هذا الوصف ، ونضيف هنا أن الخلافة الراشدة تختلف عن الدولة أو ما سماه النبي الأكرم بالملك في شيئين أساسيين رئيسين :

١ـ في الخلافة الراشدة ـ التي تكون على منهاج النبوة وطريقتها ـ لا فصل بين القيادة السياسية ، أو الدنيوية وبين القيادة الدينية ، فخليفة المسلمين كما كان الرسول الكريم يؤمهم في الصلاة والجهاد ، هو قائد سياسي وعسكري ، إمام في العلم والتقوى ، مدبر حكيم عارف بأمور زمانه ، أما إذا تحول الخليفة إلى قائد سياسي فقط ، فقد آلت الخلافة إلى ملك ، كما حدث عندما وثب بنو أمية على خلافة المسلمين ، وحولوها إلى دولة لهم ولأحفادهم ، فزرعوا في بني الإسلام شجرة خبيثة ، لا تزال مرارتها في حلق كل مسلم حتى الآن ، فقد كان الأمويون أول من بذر بذور الفصل بين الدين والسياسة.

وقد يطلق على الدولة الإسلامية اسم الخلافة كما نفعل مع الدولة العثمانية حين نسميها الخلافة العثمانية ، من باب الإعزاز والإكرام لها ، وبخاصة حين رأينا ما آلت إليه حال المسلمين بعد سقوطها، ولكن لا يصح أن يطلق على الدولة الإسلامية اسم الخلافة الراشدة ، وإذا طبقنا هذا الشرط الذي نتحدث عنه على الشيخ عثمان بن فودي مؤسس الخلاف الإسلامية وعلى أبنائه وأحفاده وجماعته لوجدنا أن الشرط متحقق ، فقد كان (ﷺ) داعيا إلى الله ، عالما فاضلا من علماء المسلمين في إفريقية ، وكذلك كان أخوه ووزيره عبد الله ، وابنه السلطان محمد بللو ، كما ستعرف عزيزي القارئ في موضعه ، ولم يكونوا على الإطلاق طلاب ملك ولا حكم ، بل كانوا طلاب حق وهداية ، يريدون إصلاح البلاد والعباد.

٢ـ لا تكون الخلافة الراشدة وراثية في أسرة من الأسر ، كما فعل الأمويون والعباسيون وغيرهم ، بل كما كانت أيام الصديق والفاروق وذي النورين وعلي وابنه الحسن (ﷺ) جميعا ، وكما تنبأ الرسول الكريم (ﷺ) : (الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك) [١].

وتعرف هذه الخلافة ـ موضع حديثنا ـ بخلافة سكتو ، نسبة إلى حاضرتها التي تقع الآن في شمال غرب نيجيريا ، كما تعرف أيضا باسم الإمبراطورية الفلانية ، لأن مؤسسيها من القبائل الفلانية ، وما أرى هذه التسمية إلا تكريسا للعصبية القبلية التي يبغضها الإسلام ، وقد اخترنا لها اسم الخلافة الراشدة [٢] لما بينا من أسباب هنا ، ولما سيأتي تفصيله بعد ذلك.

وقد رأيت من المفيد أن يضم إلى عملنا بعض نصائح الإمام المغيلي (ت ٩٠٩) إلى سلطان كنو (١٤٦٣ ـ ١٤٩٩م) ثم مراسلات الحاج محمد الأمين الكانمي ـ أبرز علماء برنو ـ مع رجال الخلافة ، وبخاصة السلطان محمد بللو ، ففيها أحكام فقهية مفيدة ، وأخيرا دراسة للمعارك التي خاضها الشيخ عثمان ضد أمير غوبر حتى استطاع الاستيلاء على عاصمته ، تلك المعارك التي بلغت قرابة الأربعين معركة.

ثانيا : فرقة المسلمين واتحاد الكفار:

حين أقلب بصري في خارطة العالم الحديث أجد عجبا ، أجد البلاد التي كانت موحدة قديما قد سرى في جسمها سرطان التفكك والتجزئة ، والتقسيم المتكرر ، حتى أصبحت الأمة الواحدة شعوبا مختلفة ، دولا متناحرة ، تنقسم إلى ما لا نهاية ،

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/ ٢٢٠ ، ٢٢١.

(٢) كان عنوان الكتاب (الخلافة الراشدة في السودان الغربي) ثم رأينا أن نعدل عنه على العنوان الحالي (ثورة عثمان بن فودي ...) وذلك لبعض الأسباب.

انظر مثلا إلى أمة العرب كيف تحولت إلى دويلات وإمـارات صـغيرة وكراسـي تافهـة تابعة للدول الكبرى ، فالشام لـم يعد شـاما واحدا متوحدا ، بل تحولت إلـى سـوريا ، لبنـان ، فلسطين ثـم أصبحت فلسطين هـي إسـرائيل والـضفة الغربيـة وقطـاع غـزة ، وأخيرا أصاب فلسطين ولبنـان مـا أصـابهما ، ويعلـم الله وحـده مـاذا يعد الـشياطين لهذين البلدين !! فإذا انتقلنا إلى جزيرة العرب فإن الحزن يشتد والألـم يعتصر القلـوب ، فهي الآن دول ، إمارات ، حكومات مختلفة متنافسة ، وإن كان الخطر الداهم القادم من الـشرق يـشدها نحـو الوحـدة والتـآزر ، ولكـن هيهـات هيهـات ، فـالطريق نحـو الوحـدة طويل شـاق تقـف فـي وجهـه مطـامع الـشياطين مـن غـرب وشـرق ، أمـا إذا انتقلنـا إلـى الهند وباكستان ثم بنجلاديش ، فإن أمرهـا ليس ببعيد عنـا ، فـإذا مـا جئنـا إلـى إفريقيـة وجدنا الخطة هي هي ، والخط هو هو ، تجزئـة ، تقسيم تفكك حتـى تكـون الـبلاد لقمـة سائغة في أفواه اللئام ، وحتـى يمكـن توزيـع الغنـائم بـسهولة ، والجـزء الـذي يخـصنا هنا ويهمنا ـ في هذا المقام ـ هو السودان الغربي أو بلاد التكرور ، أي مـا يعرف الآن بغرب إفريقيـة حيث قامت الخلافـة الإسـلامية التـي نـشرف بالحديث عنهـا وقـد تبـع عملية التقسيم التي أشرنـا إليها تغيير الأسمـاء ، أسماء البلاد والأقطار حتـى لا يتـصل الحاضر بالماضي ، فنحن نعيش العصر الحديث عصر العلم والتنوير ، لا صـلة لنـا بالعصور المظلمـة ، إلـى آخـره مـن تلبيس الأبالـسة ، فالحبـشة أصبحت إثيوبيـا ، ومديرية خط الاستواء التي كانت تابعة للسودان أصبحت أوغندة ، وهكذا.

وربما لا يعلم بعض القراء الأعزاء أن السودان [1] كانـت تعنـي المنطقـة التـي تمتد مـن الـصحراء الكبرى شـمالا إلـى خط الاستواء جنوبـا ، مـن المحيط الأطلنطـي

(١) نرى أن اسم السودان مأخوذ من سواد اللون ، قال في اللسان : (هو أسود والجمع سود وسودان) انظر ٢٠٩/٤ والعكس أبيض والجمع بيض ... إلخ.

غربا على الحبشة والبحر الأحمر شرقا ، تلك المنطقة التي أصبحت الآن قريبا من ثلاثين دولة !!.

وقد تتبع عملية التقسيم إيجاد الحواجز بين أبناء الشعب الواحد والقبيلة الواحدة، فالحدود الدولية أو بمعنى أدق الاستعمارية - مقدسة شديدة التقديس ، والانتقال من دولة إلى أخرى يكون ممنوعا أو مستحيلا ، حسب هوى الشياطين في هذا البلد أو ذاك ، وإذا كان الانتقال مباحا فإن على المسافر أعباء ثقالا من الجوازات والتأشيرات وإجراءات في الخروج والدخول وتفتيش دقيق مهين هنا وهناك ، وهكذا.

وبرغم أن تلك الحدود حدود سياسية وهمية مصطنعة فإنك قلما تجد الطرق البرية المباشرة بين بلدين متجاورين ، وإذا وجدت تلك لطرق فإنها خاضعة في استعمالها لمقتضيات الأمن لكلا الدولتين ، وأشد خضوعا لعلاقة الصفو والكدر بين الحكام هنا وهناك ، بل إن المرء قد يجد نفسه مضطرا في كثير من الأحيان إلى قطع آلاف الأميال للسفر إلى دولة مجاورة بسبب إغلاق الحدود أو قطع العلاقات ... الخ ، فإذا أردت أن تسافر إلى بلد تشترك معه في حدود برية ، فلا طريق إلا روما أو باريس أو لندن ، يفتحون أبواب البلاد على مصاريعها للقادمين من عواصم الكفر ، أما أبناء الشعب المجاور فلا ، كل هذه الأمور تدعو الشعوب إلى وقفة تأمل لهذه الأوضاع الشاذة الغريبة ، أما في أوروبة حيث الحدود السياسية والدول المختلفة أيضا فإن الناس ينتقلون من بلد إلى آخر عن طريق البر أو البحر أو الجو بسهولة ويسر بعيدا عن الإجراءات المعقدة أو التوجس والشك في كل قادم ، هذه هي حال بلاد المسلمين ، انقسامات لا تنتهي ، حواجز صارت بعد الوهم حقيقة ، لا اتجاه نحو الوحدة إلا محافظة على الكراسي فقط ، فإذا زال الخطر عاد الأمر أسوأ مما كان ، لم

يعد المصري ـ كما كان في العصور السابقة ـ يسافر إلى الشام أو العراق أو المغرب أو غيرها من بلاد المسلمين دون قيد أو شرط ، بل إنك تجد السفر إلى بعض تلك الأقطار ممنوعا ، وإذا سمح به فإن الأمر لا يكون سهلا ميسورا كما كان ، أو كما تفعل دول أوروبة الآن.

وعلى العكس من التجزئة والتقسيم في بلادنا تجد القوى [١] العظمى تزداد اتحادا ، انظر إلى روسيا مثلا لقد أصبح اسمها روسيا الاتحادية ، اسمها موسوم بالاتحاد ، أما زعيمة العالم الحر فهي الولايات المتحدة ، ما سموها الولايات الشعبية أو الديمقراطية ، وإنما هي ولايات متحدة ، وهكذا اتحاد في بلادهم ، وفرقة في بلادنا وتفكك ، الأمة الواحدة تنقسم والشعب الواحد يتفكك ، ولكن عندهم الأمم المنقسمة تتوحد ، والشعوب المتفككة تتوحد [٢] ، إن على الشعوب المستضعفة أن تتأمل هذه الأوضاع ، وأن تؤمن بوحدة الصف ، وأن تكفر بهذه الحدود الوهمية المصطنعة بين أبناء الشعب الواحد ، وأن تعمل على هدم هذه الحدود على رءوس صانعيها وعلى رءوس حراسها والعاملين على استمرارها وتدعيمها وصيانتها ، إن أكبر ضربة وجهت إلى قلب الشعوب المسلمة ، والشعب العربي بوجه خاص هي تلك الحدود والفواصل التي أصبحت خطوط الدفاع المنيعة في وجه وحدة الشعوب ونهضتها.

ولم يكن التقسيم ممكنا قبل تحطيم الدولة العثمانية ، الخلافة العثمانية الحصن الحصين الرصين المنيع الذي وقف في وجه الأطماع الصليبية والصهيونية ، والخلافة في الهند ، ثم الخلافة في السودان الغربي العثمانية الفودية.

---

(١) يلاحظ أنها تفرض الاتحاد بالحديد والنار.
(٢) أو يفرض عليها.

وتعتبـر خطـة التفرقـة والتجزئـة مـن أبـرع خطـط الـشياطين لـضرب وحـدة المسلمين ، وإلـى الأبـد ، ولكن الله غالـب علـى أمـره ، ويبـدو أن الغرب طبـق منـهج التفرقة البغيض مع ألمانيا ، برغم تكالب المعسكر الغربي عليها في الحرب العالميـة الأولى فإنـها استيقظت مرة أخرى ، وعادت مطالبـة بحقهـا شـاهرة سلاحها فـي وجـه ظالميها في الحرب العالمية الثانية وكان يمكن أن تقوم ثالثة ، تحارب كـرة أخرى إلا أن شياطين الإنـس قد عرفـوا يكمـن الـداء فقسموها إلـى قسمين ، ألمانيـا الـشرقية وألمانيا الغربية ، إلى أن شاء الله أن تتوحد ألمانيا.

وهكذا فعلوا بأقطـار المسلمين ، يمن شمـالي ويمـن جنـوبي ، هذا تـابع للشرق ، وهذا تابع للغرب ، إلا أن الله شاء أن يتوحدا ، وكانـا عدوين لدودين ، ليبيا وتـونس ، الأولـى وجهتهـا الـشرق والأخـرى مـع الغرب ، الجزائر والمغرب ، الأردن وسـوريا ، الكويت والعراق ، وهلم جرا ، والكل يعلم أنـه ليس بين الـشرق والغرب عداء كمـا يجد بين الجارين المسلمين العربيين ، وإنما هو تنـافس الأقويـاء ، وحـرص علـى المغـانم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وصفوة القول أن الاستعمار عمـل ونجـح ـ للأسف الشديد ـ فـي تـشتيت شمـل المسلمين وقطع الصلات بين أبناء الشعب الواحد [1] حتـى لا تقوم لأمـة لا إلـه إلا الله قائمة بعد ذلك ، وحتى يسهل عليها توزيـع الغنـائم علـى مختلف الدول المـستكبرة ، وكانت الخلافـة الإسلامية حصن المسلمين وملاذهم أمـام الاستعمار ، ومـن ثـم كـان القضاء على الخلافة طريق اليهود نحو فلسطين ، وطريق الصليبيين نحـو الأرض الإسلامية حيث اقتسمتها دول الاستكبار الكافرة.

(١) انظر إلى الشعب الكردي ، لقد قسم بين تركيا والعراق وإيران.

ونحن نقدم للقارئ الكريم الخلافة الإسلامية التي أقامها الفلانيون ، بعد ثورة ناجحة ضد حكامهم ، هم أحفاد البطل المجاهد عقبة بن نافع ، آملين إلقاء الأضواء على طريق عودة الخلافة ، كما بشر بذلك الصادق الأمين (ﷺ) ، وبشارة بشر بها المصطفى لابد متحققة - بإذن الله - لقد ساق للصحابة من قبل بشرى فتح القسطنطينية حيث قال : (ولتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ..) وصدق محمد بن عبد الله ففتحت القسطنطينية ، وكان محمد الفاتح نعم الأمير ، وتحولت المدينة من عاصمة للكفر إلى عاصمة للإسلام ، ثم كانت التسمية الجديدة إسلامبول أو استنبول ، وهكذا يجب أن يحيى الأمل في قلوب المسلمين المستضعفين بعودة الخلافة الراشدة مرة أخرى ، كما بشر بها نبينا الكريم (ﷺ) والعهد ليس بعيدا بيننا وبين الخلافة ؛ إذ سقطت الخلافة العثمانية ، أو بمعنى آخر ألغيت على يد كمال أتاتورك ١٩٢٤م ، كما سقطت الخلافة في السودان الغربي في العقد الأول من القرن العشرين ، حيث وزعت بين عديد من دول مختلفة مثل : نيجيريا والكاميرون والنيجر.

أرأيت أيها المسلم كيف مزق الاستعمار وغير وبدل ، بحيث ينسى الناس دولة الخلافة العظيمة التي قامت على الكتاب والسنة ،وندرس تاريخها المشرق الذي ينير الطريق أمام المستقبل ، وإني على ثقة من أن كثيرا من أبناء عالمنا العربي والإسلامي لا يعرف شيئا عن تاريخ هذا الجزء من بلاد الإسلام ، كما يجهل أيضا دور العلماء المجاهدين هناك ، الذين أسسوا بعون الله تعالى الخلافة الإسلامية في سوداننا الغربي ، ومن أجل هذا كله رأيت أن أقدم لقارئ العربية هذا العمل المتواضع راجيا به نفعا ، وإلى الله قربي وثوابا ، ضارعا إلى ربي أن يقيل عثراتي وأن يعفو عن سقطاتي ، فهو نعم الولي والناصر ، وسوف يدور الحديث هنا حول ست نقاط هي :

١- بين شمال إفريقية وغربها.
٢- قيام الخلافة.
٣- الحرب مع برنو.
٤- إسقاط الخلافة.
٥- ميراث الخلافة.
٦- الخاتمة.

بين شمال إفريقية وغربها

إن شمال القاهرة لم يكن منفصلا عن غربها ، بل قامت بينهما صلات وأواصر عديدة ، ولكن قبل أن نتحدث عن تلك الصلات والأواصر يحسن بنا أن نتعرف على هذه المنطقة ـ السودان الغربي ـ بشيء من التركيز والاختصار ، ومن أراد الاستزادة فعليه بكتب التاريخ التي كتبت عن تيك المنطقة ، كما أن فكرتنا عن المنطقة ستتضح أكثر من خلال حديثنا عن الصلات بينها وبين الشمال.

أما حديث التعرف على السودان الغربي فسوف يدور حول أربع نقاط هي :

- حدوده. ـ عناصره.
- دوله. ـ موقفه من الإسلام.

حدوده :

ذكرنا قبل ذلك أن السودان كانت تعني المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وحتى خط الاستواء ، عند حدود الكنغو ، هذا الجزء من العالم الذي أصبح قريبا من ثلاثين دولة ، أما السودان الغربي فهو ما يمكن أن يطلق عليه غرب إفريقية [1] ، أو تلك البلاد التي اخترقتها مياه نهر النيجر من منبعه في فوتاجالون وحتى مصبه في خليج بنين.

عناصره :

وقبائل السودان الغربي تبلغ المئات عند تعدادها ، ولكنها متحدة في الأصول متقاربة في التقاليد والعادات ، متشابهة في العقائد والديانات ، وترجع أصول تلك القبائل إلى خمسة عناصر هي :

(١) سنستخدم المصطلح (السودان الغربي) في الكتاب كله بدلا من غرب إفريقية ، وإن كان المعنى واحدا.

البربرية والفينيقية والرومية والنوبية والعربية بالإضافة إلى العناصر المحلية ، ولكل قبيلة لغتها الخاصة التي لا تفهمها جارتها إلا بالتعلم ، غير أن أعظم لغاتها وأوسعها انتشارا هي : الهوسا وهي قريبة جدا من العربية ، وقبلها في الدرجة الفلانية ، ويأتي بعد الفلانية والهوسا لغات الكاتوري واليوربا ونوفي.

دوله :

قامت في هذه المنطقة دول كثيرة منها : غانا ، ومالي ، تكرور ، صنغاي ، برنو ... الخ ، ولكنها لم تقم تلك الحواجز والفواصل التي أقامتها الدول الاستعمارية وخلفاؤها ، كذلك لم يتوزع سوداننا الغربي تحت العناوين الحديثة مثل السنغال ونيجيريا إلا بعد تكالب المستعمرين عليها موقفه من الإسلام ، للإسلام في سوداننا الغربي أطوار أربعة ، ربما اقتصرت ناحية ببعضها دون البعض الآخر ، وربما اجتمعت كلها في ناحية واحدة.

١ - طور النفوذ والتهيؤ.
٢ - طور الاعتناق والانتشار.
٣ - طور النضوج.
٤ - طور التقهقر.

أولا : طور النفوذ والتهيؤ :

وكان ذلك في القرن الأول الهجري حيث طبق نفوذ الإسلام جميع العالم المعروف آنذاك - وخاصة في آسيا وإفريقية - ومن بين ذلك جميع الأقطار والبلدان العامرة وقتها في سوداننا الغربي وقد هيأ هذا الدور لما يليه.

ثانيا : طور الاعتناق والانتشار :

فيه انتشر الإسلام انتشارا بطيئا في بعض الجهات على أيدي التجار والدعاة

أو ينتشر انتشارا هائلا على أيدي الغزاة المجاهدين والملوك الفاتحين.

ثالثا : طور النضوج :

حيث يتبلور الإسلام في أذهان الناس ويمتزج بدمائهم ، حتى ينظروا بعين الإسلام ويتكلموا بلسانه ويحكموا بشريعته.

رابعا : طور التقهقر :

حيث يعتري المسلمين ضعف أو ذبول إما بموت قائدهم أو أمامهم أو أميرهم وإما بوقوع التنازع والتناحر بينهم ، فتذهب ريحهم وتضعف قوتهم ن فتسام دولتهم الخسف والهوان.

وعلى أية حال فإن الناس في السودان الغربي عموما على ثلاثة أقسام :

١- المسلمون الصادقون المخلصون.
٢- الكفار الذين لم يهتدوا إلى الإسلام.
٣- المنافقون المترددون بين هؤلاء وهؤلاء ، يشاركون المسلمين شعائر دينهم ، فإذا جاءت أعياد الكفار اندفعوا إليها مشاركين متحمسين.

وعلى أية حال فإن لغة الإسلام كانت ترجع دائما ، حيث كان عدد المسلمين يزداد دوما ، ولا ينقطع ، ويدخل الوثنيون في دين الله أفواجا ، وظل الحال هكذا إلى أن وطئت أقدام التنصير أراضي هذه البلاد فصارت الصليبية ثالثة الأثافي للكفر والنفاق، فتنصر كثير من أبناء المسلمين ، بل من أبناء الأئمة والعلماء ، وحاولت الصليبية محاربة الإسلام واللغة العربية حربا لا هوادة فيها ، وبخاصة فترة الاستعمار.

والآن نعود إلى الحديث عن الصلات والأواصر بين السودان الغربي وبين الشمال الإفريقية والتي تكمن في :

التجارة ـ الفتح والجهاد ـ الدعاة ـ المراسلات ـ الحج وطلب العلم ـ الهجرة.

أولا : التجارة :

كانت هناك علاقة تجارية قديمة بين شمال القارة وغربها قبل القرن السابع الميلادي ، أي قبل دخول الإسلام إلى إفريقية ، فقد اشتهرت عدة طرق للقوافل كانت تبدأ من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر متجهة إلى الجنوب ، فتجتاز الصحراء الكبرى ، وتصل إلى المراكز الرئيسة في غربي إفريقية ، مثل غانة القديمة ، وتمبكتو وكانم وبرنو ، لقد كانت مراكز تجارية ـ وثقافية أيضا ـ يؤمها كثير من التجار من شتى البلاد المغربية ، وقد قام كل منها بنشاط كبير لنشر الإسلام واللغة العربية في مختلف الأزمان ، وعلى أية حال فقد ظلت التجارة لعدة قرون بأيدي الإغريق والرومان قبل دخول العرب والإسلام إلى المغرب ، ثم تولاها المسلمون من المغرب ومصر في العقود الأخيرة للقرن السابع الميلادي يغشون الأسواق الرئيسة في إفريقية ، بل إن بعضهم كان يقيم هناك سفيرا أو وكيلا لمن يسكن في ساحل البحر المتوسط من التجار فتأتي إليه البضائع ليوزعها على الأهالي ، كما يجمع منهم البضائع التي يصدرها إلى الساحل ، ومن هناك إلى أوربة وإلى الشرق ، وبعض هؤلاء استقروا فيما بعد وتزاوجوا مع الأهالي فأصبحوا جزءا لا يتجزأ منهم ، وامتدت هذه العلاقات التجارية إلى استنبول حيث استورد إدريس بن ألوما (١٥٧١ ـ ١٦٠٣م) صاحب برنو الأسلحة النارية من دولة الخلافة العثمانية ، وهكذا ربطت طرق القوافل قديما بين السودان الغربي كله ، وبين الشمال الإفريقي كله وحتى أوربة والشرق ، أما الآن فإن الحدود والحواجز تقف حجر عثرة في

طريق وحدة الشعوب واتصالها ببعضها ، وتتجاهل إمكانيات العصر الحديث التي جعلت العالم كله وحدة واحدة في سهولة المواصلات ـ بخاصة البرية ـ التي أصبحت شائعة بين الأقطار المختلفة.

ثانيا : الفتح والجهاد :

فتح عقبة بن نافع شمال إفريقية وأسس بها مدينة القيروان ، وجعلها مركزا لانطلاق دعوته ، وترك بها جالية عربية إسلامية ، ثم رجع إلى مصر دون أن يزحف نحو الجنوب ، ولما تولى على الشمال الإفريقي مرة أخرى في عهد يزيد بن معاوية واصل فتوحاته صوب الغرب حتى انتهى إلى المحيط ، وأقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره ، وقال قولته المشهورة : (اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازا لجزت) ثم انصرف إلى الجنوب حتى وصل كوار في حدود الصحراء الكبرى ، قرب بلما حيث تتفرع طرق القوافل التي كانت تأتي من طرابلس فتتجه إما جنوبا إلى كانم ، أو إلى الجنوب الغربي حيث ولايات الهوسا ، واستمر في أطراف بلاد السودان الغربي ، فدخل بلاد غانة وتكرور ، وفي طريق عودته إلى القيروان توج رب العزة جهاده بالشهادة ، فكان أول زعيم إسلامي استشهد في إفريقية.

وقد أوصى الشهيد البطل أبناءه والمسلمين عامة بما ينير لهم طريقهم إلى يوم القيامة وهذه وصاياه :

١ـ الالتزام بالكتاب والسنة منهجا للحياة.
٢ـ تقوى الله في السر والعلن.
٣ـ المداومة على قراءة القرآن والنظر في الحديث.
٤ـ حفظ الحق قولا وعملا ، مع البعد عن الخيانة.

٥- التزام الحياء سرا وجهرا ، لأن الحياء من الإيمان.
٦- الاعتماد على الله ثم على النفس ، فإن الاعتماد على غير الله مجلبة للذل والخذلان في هذه الدنيا ، ومجلبة للعذاب في الآخرة.
٧- الالتزام بالجهاد كمنهج للحياة ، وبدونه الخزي والعار في الدنيا والآخرة.
٨- المحافظة على العقل والبطن كي يتمكن المسلم من أداء رسالته في هذه الأرض من المداومة على ذكر الموت.
٩- حفظ الجوارح - عن الحرام - قولا وعملا.

وممن تولى على إفريقية بعد استشهاد القائد عقبة القائد البطل موسى بن نصير الذي سار على منهج سلفه ، وأعاد البربر المرتدين إلى الإسلام حتى حسن إسلامهم ، وشاركوه في فتح إفريقية والأندلس ، ثم تولى عليها - في عهد عبد الملك ابن مروان - زهير بن قيس فتوسع في فتوحاته حتى نال شرف الشهادة ، ثم تولى عبد الرحمن بن حبيب - حفيد البطل الشهيد عقبة بن نافع - فغزا بلاد السوس ، وحفر سلسلة من الآبار في الصحراء ، واستطاع أن يصل الشمال بالجنوب الصحراوي ، مما كان له أكبر الأثر في سهولة نشر الإسلام ببلاد السودان الغربي ، وكانت الفتوحات تتوسع في كل مرة إلى أن سقطت الدولة الأموية وقتل رجالها وأنصارها ، ولاذ بعضهم بالفرار إلى الأندلس كعبد الرحمن الداخل ، وبعضهم إلى مجاهل إفريقية وبلاد البربر كإدريس بن عبد الله العلوي ، مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب سنة ١٧٢ هـ.

ولكن القرن الثالث الهجري شهد حدثا مهما في تاريخ الشمال الإفريقي والغربي ، إنه إسلام قبائل الطوارق الملثمين ، الذين حملوا الإسلام نحو الجنوب فنشروه بين القبائل الزنجية في السودان الغربي ، وكان على الطوارق أن يواجهوا -

في زحفهم جنوبا ـ مملكة غانة القوية ، وواجهوها فعلا فدخلوا العاصمة أودغشت وجعلوها حاضرة لهم ، ولكن سرعان ما نجحت غانة في استعادة المدينة علما أن هذا الاحتكاك ـ والذي تواصل عن طريق الحرب ـ ترتب عليه تسرب الإسلام إلى غانة نفسها ، وقد استطاع الطوارق التجمع مرة أخرى ، وذلك بقيادة عبد الله بن ياسين فخرج هو وأتباعه من رباطهم ـ ولذا سموا بالمرابطين ـ واتجهوا إلى منحنى نهر النيجر ، وانتزعوا العاصمة أودغشت من ملوك غانة ثانية سنة٤٤٧ هـ ، وبعد وفاة عبد الله بن ياسين استمر جهاد المرابطين حيث استطاعوا خلال خمسة عشر عاما من الحروب أن يستولوا على القسم الأكبر من المملكة الغانية ، وكان إضعاف غانة بتلك الحروب المتصلة سببا في تدفق الإسلام إلى غرب إفريقية ، وكان من نتيجته إسلام ملوك غانة أنفسهم ، وإسلام كل ملوك مالي وصنغاي فيما بعد ، ويبدو أن دفعة المرابطين لنشره بين مواطني غرب إفريقية كانت جد قوية ، وتمخضت جهود دعاتهم عن إسلام المواطنين الذين عملوا بدورهم على متابعة الدعوة إلى الإسلام.

وفي ركاب المرابطين دخلت الثقافة الإسلامية متدفقة من مدارس المغرب والأندلس ، فقد وحد المرابطون بين السودان والمغرب والأندلس في دولة واحدة.

ثالثا : الدعاة :

كان للدعاة للمسلمين أثر كبير في وصل شمال القارة بغربها ، وشرقها بالغرب أيضا ، وبخاصة في عهد المرابطين حيث توغل العلماء ـ أفرادا أو وفودا في غرب إفريقيا ووسطها ، وذلك لبث العقيدة الصحيحة بين القبائل السودانية ، بفضل هذه الحركة نشطت العلاقات الثقافية والتجارية بين السودان والعالم الإسلامي وقد لعب الصوفية دورا مهما في نشر الإسلام ومقاومة تيار الصليبية المتمثل في

الاستعمار الذي أطبق على إفريقية من كل حدب وصوب ، ولا شك أن كثيرا من هؤلاء الدعاة كانوا جندا مجهولين ، لم يسجل التاريخ جهودهم ولا أسماءهم ، وحظي القليل منهم بعناية المؤرخين وتخليدهم ، ومن ثم نستطيع أن نعطي مثلين للدعاة الأفراد والوفود.

١- الأفراد : من أبرز هؤلاء الدعاة الإمام المغيلي التلمساني أبو عبد الله ، محمد بن عبد الكريم بن محمد ، ولد سنة ١٤٢٥ تقريبا ، ونشأ في تلمسان ، رحل إلى بلاد السودان ودخل مدينة تكدة ، ومكث فيها وأخذ عنه علماؤها ، ثم ذهب إلى مدينة كشنة واجتمع بسلطانها ، وأخذ عنه علماؤها ، ونزل ضيفا على أسكيا محمد ، وكتب له فتاوى دينية ووصايا سياسية ، توفي بمدينة توات سنة ٩٠٩هـ.

وفي وصية الإمام المغيلي إلى محمد رمفا (١٤٦٣ - ١٤٩٩) صاحب كنو ، أكد على وجوب درء المفاسد بالقوة ، وقال : (إنه لابد من درء المفاسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية حسب الطاقة البشرية ، ولا يجوز أن يترك مفسد على فساده مع الإمكن أن يرد عنه ، بسب أو لعن أو حبس أو ضرب أو صلب أو قتل أو نفي أو نهب ماله أو حرق بيته ، أو غير ذلك من العقوبات الشرعية ، لكل داء دواء ولكل مقام مقال) وذكر أيضا أن الملك لابد أن يكون على حذر من رجوع الناس إلى كفرهم ، وأن يمنع كل أنواع الشرك وجميع المحرمات ، وعلى الملك الاهتمام بكل ما في مملكته وبمصالح رعيته ، فلا يترك مثلا الغشاشين والمطففين في الأسواق ، بل يعاقبهم بالحبس والضرب والقتل والمصادرة ، وفي آخر الوصية أشار عليه بالقيام بالعدل في سياسته ، وبأن لا يفرق بين رعيته في إقامة الحدود الشرعية ، فقال : (واعلم أن الناس في حكم الله ورسوله سواء ، فلا تخرج من ذلك عالما ولا عابدا ولا

شريفا ولا أميرا ، وأقم حق الله على جميع عباد الله بالتقوى لا بالهوى).

على أن أعظم الأعمال التي قام بها المغيلي فتاواه للوزير محمد بن أبي بكر التوري وزير سني على ملك صنغاي ، حيث انتزع الوزير الملك وأصبح أمير المؤمنين أسكيا محمد ، وهو أول من تلقب بهذا اللقب في غرب إفريقية ، وكان من جملة ما سأله : ما حكم الشريعة في انتقال الملك إليه ؟ في المسألة التاسعة من أجوبة الفقير على أسئلة الأمير ؛ ما نصه :

(المسألة التاسعة في شأن بلاد صنغاي وأهلها ، فإنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون ، ومدينتهم - يقصد العاصمة - فيها الجامع والجمعة والجماعة ، والأذان للصلوات الخمس ، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام ، فقام عليهم بعض سلاطينها فقتلوا أولئك الكفار ، وملكوا البلاد المذكورة ، وسكنوها على الإسلام أكثر من ثلاثين سلطانا قبل سني علي الذي كان أبوه مسلما ، وكانت أمه من بلد فار ، وهم قوم كفار ، يعبدون الأصنام من الأشجار والأحجار ويتصدقون لها ، ويسألون حوائجهم عندها ، فإن أصابوا خيرا زعموا أن تلك الأصنام هي التي أعطتهم ، وإن لم يصيبوا رأوا أنها منعتهم ، فلا يغزون حتى يشاوروها ، وإن قدموا من سفرهم قصدوها ونزلوا عندها ، وفيهم كهان وسحرة يقصدونهم كذلك.

وكان سني علي - من صغره إلى كبره - كثير الإقامة عندهم ، حتى نشأ بينهم وتطبع بطباعهم في شركهم وعوائدهم ، ثم بعد موت أبيه طلب السلطنة ، فقام على أهل صنغاي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم ، كما كان أبوه ومن قبله من سلوك صنغاي.

إلا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين أخواله الكفار كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ، ولكنه لا يعرف حقيقة لذلك ، وإنما يقول ذلك بلسانه ، ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا بالذبائح عند المساجد ونحوهما ، ومع ذلك يعبد الأصنام ، ويصدق الكهان ، ويستعين بالسحرة ويعظم بعض الأشجار والأحجار بالذبح عندها ، والصدقة والتضرع والنذر لها وطلب الحوائج منها ، ومن صفته أيضا أنه ما رؤي قط في جامع ولا مسجد ، لا هو ولا أحد في دارئته في يوم جمعة ولا غيره وفي دائرته ألوف لا يصومون ولا يصلون خوفا من عقابه إلا خفية وأما هو فلا يحفظ الفاتحة ولا غيرها ، ولا يصلي الصلاة المكتوبة في وقتها ، ولا يقوم ولا يركع لها ، بل يترك الصلوات الخمس إلى آخر الليل ، أو إلى وقت الضحى ، ثم يجلس كهيئة التشهد ، ويومئ إلى الركوع والسجود من جلوسه، وهي صحيح قوي لا علة به ، ولا يقرأ في صلاته شيئا ، وإنما يذكر في خفضه ورفعه اسم الصلاة ، ويقول مثلا في المغرب : المغرب ، وفي العشاء : العشاء ، وكلها وسائر الصلوات.

ومن صفته أنه لا يتوقف في النساء على نكاح ولا غيره من الشروط الإسلامية ، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها بيته وفراشه ، لا يبالي بزوجها ، ولا بأحد من أهلها.

ومن صفته أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم وقتل من القراء والفقهاء والعباد والنساء والصبيان والرضع ، ونهب من الأموال وسبي من النساء ، وباع من الأحرار ما لا يحصى ، ولم يزل على ذلك مدة عصره حتى مات ، لهذا قام أسكيا محمد فملك البلاد ، وأزال الفساد).

هذا نص الاستفتاء وإليك نص الجواب :

(إن سـني علـي وجميـع أعوانـه وأتباعـه وأنـصاره ممـن ينتـسبون إلـى العلـم وغيرهم ، لا شك أنه من أظلم الظـالمين الفاسقين ، فجهاد الأمير أسكيا فيهم وأخذ السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه.

وأمـا هل هم كفـار أم لا ؟ فـلا يكفر أحد بـالذنب مـن أهل القبلـة ، وإنمـا يكـون التكفير بأمر من الأمور الثلاثة :

<u>الأول</u> : إما أن يكون نفس اعتقاده كفرا ، كإنكار الـصانع أو صـفة مـن صـفاته التـي لا يكون صانعا إلا بها ، أو جحد النبوة.

<u>الثاني</u> : صدور ما لا يقع إلا من كافرين ولم يكن كفرا في نفسه ، مثل استحلال شرب الخمر وغصب الأموال وترك فرائض الـدين والقتـل والزنـا وعبـادة الأوثـان ، والاستخفاف بالرسل ، وجحد شيء من القرآن.

<u>الثالث</u> : أن يقول قولا يعلم أنه لا يصدر إلا مـن جاهل ، ففيـه الخلـف ، وعليـه الخلـف فـي تكفيـر المعتزلـة وأهـل البـدع وعدمـه ، وإذا علمـتم ذلـك تبـين أن الـذي ذكرتموه من حال سني على كفر بلا شك ، وإن كان الأمر فيه كما ذكرتم فهـو كافر ، وكذلك من عمل عمله ، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك).

وبإضـافة فتـوى المغيلـي إلى فتـاوى علمـاء تمبكتـو وجنـي وغيرهمـا اطمـأنـت نفس أسكيا محمد ، وأعانته على إقامة دولته الإسلامية في غرب إفريقيـة ، وامتـدت هذه الدولة حتى شملت مالي وغينيا ونيجيريا ، وكانت عاصمتها مدينـة غـآو بـالقرب من مدينة زوفو.

وصفوة القول أن زيارة الإمام المغيلي لكل من صنغاي وكنو وكشنة كان لها أثر كبير لا في تلك الممالك وحدها حيث ساعد على إقامة حكم إسلامي صحيح ، بل تجاوز التأثير إلى تلك الممالك المجاورة.

٢- الوفود : كان الدعاة إلى الله - في بعض الأحيان - يتخذون شكل الوفود التي تكلف نفسها الانتقال من مكان إلى آخر نشرا لدين الله وطمعا في مرضاته ، ومن هؤلاء وفد الونغراويين الذين قدموا إلى كنو بقيادة عبد الرحمن زيتي ، واتصلوا بالملك ، ودعوه إلى الإسلام فأسلم وأصدر أوامره إلى عماله بنشر الإسلام والتمسك بتعاليمه ، وبنى مسجدا مكان الشجرة التي كانوا يتعبدون عندها ، ثم عيّن الملك قائد الوفد قاضيا ، كما عين من الوفد إماما ومؤذنا ومشرفا للذبح على الطريقة الإسلامية.

رابعا : المراسلات :

سنعطي بعض الأمثلة على المراسلات التي سجلها التاريخ بين بعض الملوك في سوداننا الغربي وبين إخوانهم في الشمال الإفريقي ، بل هناك من علماء مصر من كتب إلى أمراء السودان ناصحا ومرشدا لهم ، كالسيوطي مثلا الذي لم يكتف فقط بالرسائل والكتب ، بل زار كنو وأقدس وكشنة ، ومكث في كل منها مدة قبل أن يعود إلى أرض الكنانة ، مما يؤكد أن السودان لم يكن منعزلا عن العالم الإسلامي ، وبخاصة شمال إفريقية ، وهاك بعض الأمثلة لتلك المراسلات :

(١) كتب الإمام السيوطي إلى أمراء السودان الغربي :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) ٧٠ ، ٧١ / الأحزاب ، من

الفقير عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي إلى الملوك والسلاطين في التكرور عموما ، وإلى الملك الزاهد محمد بن صطفو صاحب أقدس ، وإخوته محمد وعمر وابن أخته محمد بن عبد الرحمن ، والملك إبراهيم ، صاحب كشنة خصوصا ، سلام عليكم ورحمة اله وبركاته ، أما بعد ، فأحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي على نبيه محمد (ﷺ) ثم أوصيكم بتقوى الله (ﷻ) ، فإنها رأس الأمر وسنامه ، وقد فاز وأفلح من كان بها اعتصامه ، واحتكموا إلى العدل بين الرعية ، والوقوف عند حدود الأحكام الشرعية ، ولا يغرن امرئ منكم ما أتاه الله من الملك والسلطنة ، وما خوله من زينة الحياة الدنيا ، فإنما الدنيا كلها سنة منام ، ولابد أن يُستَيْقظ من السنة ، وقد بلغني من أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة المحكوم عليه ، فيضمه إليه ويحصنه ، ويحول بينه وبين صاحب الحق ، ويحصنه ويقول : هذا دخل في ملكي ، أو جعل في سلطاني ويرد ما حكم به الشارع اغترارا بالأماني ، أفلا يخشى أحدكم من ملك من الملوك أن يجعل به العقاب الأكبر ، أو ينزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يقبر : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) / ١٢ البروج (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) / ٤٦ فصلت ، أيغتر أحدكم بملكه الذي هو كقطرة ، ويريد أن يلغي حكم الله بإقامة ناموسه الذي لا يساوي عند الله جناح ذبابة ؟؟ (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ) / ١٦ الملك ، أو أن يدكدك ما بين طولها والعرض ، قال النبي (ﷺ) : السلطان ظل الله على الأرض ، يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان له الإصر ، وعلى الرعية الصبر.

وعن عمر بن الخطاب (ﷺ) قال : ماذا قلت يا رسول الله عن السلطان الذي ذلت به الرقاب ، وخضعت له الأجساد ، ما هو ؟ قال : (ظل الله تعالى في أرضه ، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر) وقال أيضا : صنفان من أمتي لن تنالهما

شفاعتي ، سلطان ظلوم غشوم ، وغال مارق في الدين وعنه أيضا : (من من أحد يؤم على عشرة إلا جيء به في الأصفاد والأغلال) وفي لفظ : (إلا أتى به يوم القيامة مغلولا يداه ، يفكه العدل ويوبقه الجور) وقال أيضا : من ولى عشرا فحكم بما احبوا وكرهوا جيء به مغلولا ، فإن عدل ولم يرتش ولم يجر فك الله عنه ، وإن حكم بغير ما أنز الله ، وارتشى وأرشدت يساره إلى يمناه ، ثم ألقى في قعر جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة سنة) وقال أيضا : (إذا كان يوم القيامة أتى بالوالي فيوقف على جسر فيأمر الله الجسر فينتفض انتفاضة يزول كل عظم من مكانه ، فيأمر الله العظام أن ترجع على مكانها ، ثم يسأله ، فإن كان مطيعا أخذ بيده ، فأعطاه كفلين من رحمته ، وإن كان عاصيا خرق به الجسر ، يهوى به في جهنم مقدار سبعين خريفا) وقال أيضا : ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة : المكذب بقدر الله ، والزائد في كتاب الله ، والمستحل من عترتي [1] ما حرم الله ، المسلط بالجبروت ليعز ما أزل الله ويذل ما أعظم الله ، والمستحل لحرم الله ، والتارك لسنتي) وقال أيضا : ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلا يعدل بينهم إلا كبه الله في النار ، وقال أيضا : أهل الجور وأعوانهم في النار.

وقال أيضا : عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة ، وقال أيضا : السلطان ظل الله في أرضه ، فمن غشه ضل ، ومن نصحه اهتدى.

ولذلك بذلت لكم النصيحة ، وبلغتكم ما جاء عن رسول الله (ﷺ) من أحاديث النصيحة ، فأقيموا السلطنة بعدلها ، وأدوا الأمانة إلى أهلها ، ومما ينص عليكم بالخصوص قضية محمد الترجمان مع عبده الذي حاد عن الحق ، وحكم عليه

(١) اسأل التاريخ عما كان ضد عترة الرسول (ﷺ) في كربلاء وفي غيرها.

القاضي محمد بن عبد الكريم [1] بأنه باق في رقه ، وأمر بأن يسلم إلى مستحقه ، فأعنتم بعد على الباطل ، وجعلتم الشرع كالعاطل ، فتوبوا إلى الله من هذه الموبقة ولا يحول بين السيد وعبده إلا أن يكاتبه أو يعتقه ، وقد بلغني أن محمد بن مريم [2] أقلع عما كان عليه ، وتاب ورجع إلى الله وأناب ، هذا هو الذي يعتقد في المآب ، وبلغني عن أهل غوبر أن منهم من إذا مرض ذبح عبدا له أو أمة ، ويزعم أن ذلك يفديه من الموت ، فما أكفره فيما صنعه وفيما زعمه ، وهذا ما يسوله الشيطان ويزينه من العدوان ومما يئول به صاحبه إلى الكفران ، فيعلم من بعد ذلك أن الله بريء منه ورسوله ، وليس هو يبلغ مناه وسؤله ، ولو أعتقه لكان أقرب إلى الفداء بعيدا عن الاعتداء ، فمن عرض له أمر فليعرضه على حماة الشريعة ، ويسأل عالما يوثق بعلمه ، ويجب عليه أن يطيعه : (وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ) ٢٨١ البقرة.

(٢) <u>كتب ملك برنو عثمان بن إدريس (١٣٩١م - ١٣٩٣م) إلى السلطان الظاهر سيف الدين برقوق :</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما ، الحمد لله الذي جعل الخط تراسلا بين الأباعد وترجمانا بين الأقارب ومصافحة بين الأحباب ، ومؤنسا بين العلماء وموحشا بين الجهال ، ولولا ذلك لبطلت الكلمات ، وفسدت الحاجات ، وصلوات الله على نبينا المصطفى ، ورسوله المرتضى ، الذي أغلق الله به باب النبوة وختمه ، وجعله آخر المرسلين ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ما ناحت الوُرْق وما عاقب الشروق الأصيل ، ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) أجمعين.

(١) محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت ٩٠٩ هـ).
(٢) يبدو أنه يقصد محمد الترجمان السابق الذكر.

مـن المتوكل علـى الله ، الملـك الأجـل ، سيف الإسـلام وربيـع الأيتـام ، الملـك المقدام ، القائم بأمر الرحمن ، المستنصر بالله ، المنصور في كل حين وأوان ، ودهر وزمان ، الملك العادل ، الزاهد التقي النقي ، الأنجد الأمجد الغَشِمْشِمِ [1] ، فخـر الـدين زين الإسلام ، قطب الجلالة ، سلالة الكرماء ، كهف الصدور ، مصباح الظلام ، أبـي عمرو عثمان ، الملك بن إدريس الحاج ، أمير المؤمنين المرحوم ـ كرم الله ضريحه ـ وأدام ذرية هذا بملكه.

إلـى ملـك المصر الجليل ، أرض الله المباركـة ، أم الدنيا ، سلام عليكم أعطر مـن المسك الأذفر [2] وأعذب مـن مـاء الغمـام والـيم ، زاد الله ملككم وسـلطانكم ، والسلام علـى جلسائكم وفقهـائكم وعلمـائكم ، الـذين يدرسـون القـرآن والعلـوم ، وجماعتكم ، وأهل طاعتكم أجمعين.

وبعد ذلك فإنا قد أرسلنا إليكم رسولا ، وهو ابن عمي ، اسمه إدريس بـن محمد من أجل الحائجة التي وجدناها وملوكنا ، فإن الأعراب الذين يسمون جذاما وغيرهم قد سَبَوْا أحرارنـا من النساء والصبيان وضعفاء الرجـال وقرابتنـا وغيرهم مـن المسلمين ومـنهم ـ يقصد الأعراب المغيرين ـ مـن يشرك بـالله ، يمـارقون للدين ، فغـاروا علـى المسلمين فقتلوهم قتلا شديدا ، لفتنة قامت بيننا وبين أعدائنا ، وبسبب تلك الفتنـة قد قتلوا ملكنا عمرو بن إدريس الشهيد ، وهو أخونـا ابن أبينـا إدريس الحـاج بن إبراهيم الحاج ، ونحن أحفاد سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا العربـي القرشي ، كذا ضبطنـاه عن شيوخنا ، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها ، فـي بلد برنـو كافـة حتـى الآن ، وسَبَوْا أحرارنـا وقرابتنـا مـن المسلمين ، ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ،

(١) الجريء الماضي.
(٢) الأطيب.

ويختدمون ببعضهم ، فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان ، فإنهم قد اتخذوا متجرا ، فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقضاتكم وحكامكم وعلمائكم وصواحب أسواقكم ، ينظرون ويبحثون ويكشفون ، فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم ، وليبتلوهم ، فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسلمون ، فصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإن تبين ذلك لكم فأطلقوهم بردهم إلى حريتهم وإسلامهم ، فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصلحون ، فإنهم الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا ، فإنهم يزينون الباطل ، فاتقوه واخشوه ، ولا تخذلوهم يسترقوا ويباعوا ، قال تعالى : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) ٧١/ التوبة ، وقال تعالى لنبيه الكريم (ﷺ) : (فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ) ٤٨ / المائدة ، وقال تعالى : (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ) ٢٥١ / البقرة.

وكان عليه (ﷺ) يقول : (السلطان ظل الله في الأرض ، يأوى إليه كل مظلوم) وقال : (المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا إلى يوم القيامة) وقال : (المؤمن أخو المؤمن ، لا يظلمه ولا يسلمه) إلى آخره ، وفي الحكمة : ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض - أراد السلاطين - وعلى من تصل يده إلى ذلك - أراد القضاة والحكام والأمراء - فإن لم يقدر فبلسانه - أراد بذلك الفقهاء والعلماء - وإن لم يقدر فبقلبه - أراد عامة المسلمين - أطال الله بقاءكم في أرضكم ، فازجروا الأعراب عن دعرهم ، قال الله تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) ٦٩ / العنكبوت ، وقال (ﷺ) : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) وقال في الحكم : لولا السلطان لأكل بعضهم بعضا ، وقال تعالى لنبيه داود : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع

الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) [1] والسلام على من اتبع الهدى [2].

خامسا : الحج وطلب العلم :

بين غرب إفريقية ، وبين أرجاء العالم الإسلامي ، وبخاصة مصر والحجاز فلقد كان لهذه الفريضة أثر كبير في تعميق الصلات بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ولذا لا نعجب إذا قال أحد المستشرقين الفرنسيين : (أعتقد أن من الواجب إبادة خمس المسلمين ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر).

أما أمير الكرك الصليبي أرناط فإنه لم يكتف بتهديد قوافل الحجاج المسلمين ، لكنه بعد استيلائه على إيلات سنة ١١٨٢م جهز أسطولا في البحر الأحمر ، هاجم به المدن الساحلية المصرية متجها نحو قبلة المسلمين ، ونزل بالفعل إلى الحجاز ، وكان في نيته الاتجاه إلى قبر النبي الأكرم (ﷺ) لولا أن الأسطول المصري تمكن من القضاء عليه.

وفي سنة ١٥١٠م خطط البرتغاليون للزحف إلى الحجاز لهدم الكعبة ، ونبش قبر النبي الأكرم ، ثم الزحف إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى ، ومسجد قبة الصخرة ولكن الخطة اكتشفت وفشلت.

أما السفر لطلب العلم فكان هو الآخر وسيلة من وسائل ربط المسلمين في السودان الغربي بإخوانهم في الشمال الإفريقي وغيره من أقطار الإسلام ، وقد رأينا

---

(١) ٢٦ / سورة ص.
(٢) ذكر القلقشندي أن الرسالة وصلت سنة ٧٩٤هـ إلا أن كاتبها لم يؤرخها ، انظر صبح الأعشى ١١٦/٨.

السيوطي المصري يذهب إلى بلاد التكرور طلبا للعلم ، كما حدث عن نفسه ، كما رحل الكاتمي من برنو إلى الحجاز ومصر والمغرب ، حيث درس وتعلم في تلك البلاد ، وكان العائدون من الحج ومن الحواضر العلمية يحملون معهم كثيرا من الكتب التي تصدر في المشرق أو المغرب ، إضافة إلى الزاد العلمي والإيماني ، وإلى مزيد من المعرفة بإخوانهم المسلمين وبأقطارهم وبأحوالهم.

كما كان كثير من العلماء يجمع في رحلته بين الحج وطلب العلم ، ولدينا كثير من الأمثلة منها :

(أ) المجاهد الشهيد عمر الفوتي : سافر إلى الحج سنة ١٨٢٠م وفي طريقه عرج على فزان وجغبوب ، حيث كان السنوسيون في أوج جهادهم ، ثم السودان ، واستمر في تنقله حتى وصل مكة سنة ١٨٢٨م ، ليلتقي بمحمد القالي خليفة التيجانية في الحجاز ، ومكث معه ثلاث سنوات بعد تعيينه خليفة للتيجانية في غرب إفريقية ، وفي طريق عودته زار مصر ومكث فيها غير قليل ، ثم سافر إلى السودان ثم أرض برنو ثم سكتو سنة ١٨٣٣م ، ومكث في الأخيرة فترة تزيد عن خمس سنوات حيث شارك في الجهاد بقصد إعداد نفسه للأمانة التي قرر حملها ، وفي عاصمة الخلافة ـ سكتو ـ درس الشيخ عمر تقسيم البلاد إلى دار حرب ودار سلام دراسة عملية ، كما درس أيضا أساليب القتال وتمرن عليها ، ثم بدأ رحلة العودة إلى مسقط رأسه عام ١٨٣٨م.

(ب) العلامة أحمد بن اقيت : وهو جد العلامة محمد بابا التمبكتي ، عرج على كَنو في طريقه إلى الحج فأقام بها مدة ، درس فيها وانتفع به جمع كثير وقد لقي الإمام السيوطي والشيخ خالد الوقاد الأزهري عندما مر بمصر في طريقه إلى الحجاز ، وذلك سنة ٨٩٠هـ.

سادسا : الهجرة :

لعبت الهجرات المختلفة دورا مهما في ربط السودان الغربي بشرق إفريقية وشمالها ، بل بغيرها من أقطار العالم ، سواء أكانت هذه الهجرات فردية أم جماعية ، مثل هجرة قبيلة الشَوَّا العربية التي سكنت الحدود الشرقية لبرنو ، بجوار نهر تشاد ، ويقال إن هؤلاء العرب هاجروا أواخر القرن الرابع عشر الميلادي أيام المستنصر الخليفة الفاطمي.

وعند سقوط الدولة الأموية فر كثير من رجالها إلى المغرب ثم الأندلس مثل عبد الرحمن الداخل ، وبعضهم إلى البربر كإدريس بن عبد الله العلوي مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب سنة ١٧٢هـ ، ولا شك أن من الأمويين من تغلغل في بلاد السودان واختبأ حتى الممات ، وإن طوى أسماءهم النسيان.

وبعد استشهاد الأمير محمد الطاهر - آخر خلفاء ابن فودي - على يد الإنجليز هاجر ابنه محمد بللو من سكتو إلى الشرق حتى وصل قرية الشيخ طلحة بالسودان ، واستقر فيها وبعض من بقي من جند أبيه الشهيد ، وبقيت ذريتهم هناك حتى الآن.

ويحسن أن نشير هنا إلى هجرة الشوام إلى غرب إفريقية ، فقد كان لهؤلاء دور تجاري مهم يلمسه أبناء السودان ، وكل من ذهب إلى أحد أقطاره ، يقول الشيخ آدم الإلوري : (وآخر ما يعرف من هذا النوع هو صلة السوريين التي بدأت منذ سنة ١٨٩٠م حتى كونت جالية معتبرة في كثير من أقطار غرب إفريقية ، ولهذه الجاليات المذكورة آثار طيبة في دفع عجلة البلاد إلى الأمام والتقدم وأسهمت في تحقيق عدة مشاريع إسلامية في نيجيريا ، وكان لشركة الدبس وإخوانه أثر ملموس في إنشاء

مركز التعليم العربي في أغيفي - في نيجيريا - وذلك بعناية المجاهد مصطفى الدبس وإخوانه في لاجوس وكنو ، كما كن لهم آثار في تعمير الكليات الإسلامية قبل استقلال نيجيريا [1].

كما يسافر للعمل في بعض دول غرب إفريقية كثير من المصريين وأشقائهم السودانيين ، وقليل من العرب الآخرين ، ويبدو أن نيجيريا كانت تحظى بالقدح المعلى من هؤلاء العاملين ، من ناحية أخرى فإن أعدادا غير قليلة قد رحلت إلى دول البترول العربية وبخاصة جزيرة العرب وليبيا لنفس الغرض ، ويمكن أن يؤدي هذا السبيل إلى تعميق أواصر الإخاء بين الشعوب إذا وجد المسافر معاملة كريمة ورزقا هنيئا.

(١) الإسلام في نيجيريا / ص٤٨.

قيـــام الخلافـــة

قبل أن نتكلم عن الخلافة ومؤسسها ، الإمام عثمان بن فودي يحسن بنا أن نشير إلى مراحل الجهاد في السودان الغربي ، لأن قيام تلك الخلافة لم يكن إلا مرحلة من مراحل المواجهة بين الإيمان والكفر ، تأثرت بما سبقها ، وتركت بصمات جلية على المجاهدين ، في تلك المنطقة من الوطن الإسلامي ، كما سيتضح في ميراث الخلافة.

مراحل الجهاد :

- المرحلة الأولى : التي بدأت بالمجاهد البطل عقبة بن نافع - في القرن الأول الهجري - وانتهت بجهود المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي ، وتعتبر المرحلة نشطة كفترة تأسيسية.
- المرحلة الثانية : التي بدأت بالقرن الثاني عشر على نهاية القرن السابع عشر ، المرحلة التي ضعف فيها المسلمون مع ظهور مقاومة لهذا الضعف ، فكانت دول إسلامية كدولة مالي ، وصنغاي بقيادة أسكيا محمد ومنسا موسى ، وفي هذه المرحلة وفد عدد من العلماء العاملين كالمغيلي المتوفي عام ١٥٠٥م وغيره من الذين قدموا نصحهم وتعاليمهم الإسلامية الرسالية ، وفي هذه المرحلة ظهر أيضا كثير من المجاهدين ، أمثال الشيخ ناصر الدين في ترارزة - التي تقع الآن بجمهورية موريتانيا - في محاولة لتوحيد شمال إفريقية وغربها ، واستمر في جهاده حتى وفاته عام ١٦٧٧م ، ثم واصل حركة الجهاد ألفا نوح عام ١٧٢٦م ، ثم انتقلت الحركة إلى سليمان بال وعبد القادر ، وذلك عام

١٧٧٠م ، واستمر الجهاد إلى أن تسلم رايته الشيخ عثمان بن فودي في أرض الهوسا.

- المرحلة الثالثة : التي بدأت بالقرن الثامن عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر ، وتعتبر مرحلة نشطة في مواجهة الاعتداءات الداخلية من الوثنيين المتعاونين مع العدو الصليبي بزعامة بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الاستكبارية ، فقاد الحركة أولا الشيخ عثمان بن فودي ضد الوثنيين والمنافقين الذين حاولوا القضاء على حركة الشيخ في مهدها ، وقد أثمر جهاده في تكوين دولة إسلامية قوية استمرت ما يزيد عن قرن كامل ، تلك الدولة التي أطلقنا عليها :

الخلافـــــة المنســــــية

ثم تحركت حركة الجهاد إلى ماسنه بقيادة كبّو وأبنائه عام ١٨١٨م ، واستمر الجهاد إلى أن شمل كل أرض فوتا والنيجر والسنغال بقيادة عمر الفوتي ١٧٩٦ - ١٨٦٤م.

وقد ظهرت في هذه المرحلة ثورات قوية هزت الاستكبار العالمي ، وأسست دولا إسلامية ، منها ثورة محمد أحمد المهدي عام ١٨٨١م ، التي استطاعت أن تهزم القوات البريطانية والإيطالية ، واستمرت ثمانية عشر عاما ، ومنها الثورة السنوسية التي أسهمت مباشرة في الجهاد ، وخصوصا في ليبيا ، فقد وقف المهدي السنوسي إلى جانب السلطان محمد الطاهر في المعركة التي وقعت بينه وبين الجيش البريطاني ، وذلك بالتعاون مع أنصار محمد أحمد المهدي.

- المرحلة الرابعة والأخيرة : التي بدأت بالقرن العشرين إلى عام ١٩٧٩م التي

تعتبـر مرحلـة ركـون وخـضوع مطلقـين للاسـتعمار ، إلا مـا نـدر مـن حركـات المقاومة التي لم تثمر في إقامة دولة إسلامية ، ولكنها مهدت لقيامها.

وصفوة القول أن جهاد الشيخ عثمان بن فودي هو جزء من تاريخ الجهاد في السودان الغربي ، وجهاد السودان بشرقه وغربه جزء لا يتجزأ من تـاريخ الصراع بين الكفر والإسلام منذ نزل آدم (عليه السلام) إلى أن تقوم الساعة ، فتاريخ المسلمين تصل جذوره إلى نبي الله آدم (عليه السلام) كما أن هذا التـاريخ لا ينحصر في بقعة من العالم ـ مهما بلغ شرفها ـ دون أخرى ، ولذا فإن المسلم في مصر أو غيرها من أرجاء العالم يعتبر ما يحدث لإخوته المسلمين ـ أين نزلوا ـ جزءا من تاريخه واهتمامه.

والشيخ ابن فودي ينتمي إلى قبائل الفلاني ، هؤلاء القوم الذين كان لهم دور مهم في نشر الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي ، ولذا فلابد من كليمة عنهم فنقول :

الفلانيون : اختلف في أصل البلاد التي قدموا منها فالمؤرخون على أقوال منها أنهم من الفرس ، ومنها أنهم من اليهود ، ومنها أنهم من العرب والروم وهذا القول منسوب إلى آل فودي أنفسهم ، وقد نقلوه عن أجدادهم وعلمائهم الثقات ، حيث قالوا : إن الجد الأعلى للفلانيين عربي ، هو عقبة بن نافع ، وإن الأم العليا لهم الرومية تدعى (بج منجو) وهي بنت رئيس إحدى القبائل الرومية ، تزوجها عقبة ابن نافع فأنجبت له أربعة أولاد ، صاروا فيما بعد آباء القبائل الفلانية بأسرها ، في بلاد ونغارة وغانا ومالي القديمتين وتكرور وصنغاي وبلاد الهوسا وبرنو.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي بدأ عدد كبير من القبائل الفلانية يهاجر من مملكة مالي وما جاورها إلى بلاد الهوسا شرقا ، وكان لهذه الهجرات أثر بعيد في تاريخ تلك البلاد ، وعلى أية حال فإن الفلانيين ينقسمون إلى مجموعتين رئيستين :

- الأولى : سكنت المدن ، واختلطت بالناس ، وتزاوجت معهم واستقرت ، وتسمى بالفلانيين المقيمين ، وهم مسلمون متمسكون بدينهم ، ومن هؤلاء من يشتغلون بالتجارة أو الصناعة ، وأكثرهم يشتغلون بالتعليم ، وظهر منهم علماء في الدين والأدب والاجتماع ، وللعلماء في قلوب عوامهم مكان مرموق ، وقول مسموع ، ورأى متبوع ، في المنشط والمكره ، على أن تمسكهم بدينهم وحرصهم على إحياء معالمه وثقافته ليدل دلالة واضحة على إن عرق الإسلام والعروبة فيهم دساس ، ويقول عنهم فرانسيس موار ، وقد زار موطنهم على نهر الجامبيا سنة ١٧٣١م : (إنهم ينتشرون على نهر الجامبيا ، ويشبهون العرب ، وبعضهم يتكلمون العربية لأنهم يتعلمون العربية في مدارسهم ، ولهم لغة تسمى فولي ، ولهم رؤساء يحكمونهم حكما معتدلا ، وهم يشتهرون بالكرم ، ولوفرة القمح عندهم لا يتركون محتاجا بل يعولون المسن والأعمى والأعرج ، ويساوون بينهم وبين الآخرين ، وأهل هذه البلاد مسلمون مخلصون لدينهم).

- الثانية : وتسمى بالفلانيين الرحل ، إذ يرعون البقر والمواشي ، ويشبهون البدو ولا يسكنون المدن ، بل ينتقلون من واد إلى آخر طلبا للماء والكلأ وهم في الغالب لا يختلطون ، ولا يتزاوجون مع غيرهم ، وقد يتعاملون مع المجموعة الأولى لاتحاد الأصل واللغة ، وربما يعتنق بعضهم الإسلام ، ولكن إسلامهم في الغالب - مشوب بعادات وتقاليد وثنية غير إسلامية جهلا بالإسلام ، ولكن القوم يعرفون بالشجاعة والمروءة والصدق وإباء النفس وحب العزلة ، ولا يزال كثير منهم إلى

يومنا هذا على الحال نفسه ، ويعافون إرسال أبنائهم إلى المدارس ، بل يرافقونهم حيث ذهبوا ، فيتعلمون تلك الحياة البدائية ، ولقد كانت المجموعتان منتشرتين في ولايات الهوسا وغيرها منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم ظهر فيهم الشيخ عثمان القائد الشهير - في القرن الثامن عشر - فجمع شمل الفلانيين ، من بدو وحضر تحت زعامته ، وكون منهم أمة قوية أخذت على عاتقها نشر الإسلام تحت ظلال دولة الخلافة الراشدة.

الشيخ عثمان بن فودي
العالم الرسالي

ميلاده :

ولد الشيخ -رضوان الله عليه- بأرض غوبر سنة ١١٦٦هـ - ١٧٤٤م ، ونشأ في كنف والديه الصالحين اللذين كان لهما أكبر الأثر في توجيهه إلى العلم والدين والعبادة ، أما أجداد الشيخ فهم من قبيلة فلانية تسمى (تورنكاوا) قدمت من مالي في القرن الثالث عشر الهجري واستقرت في غوبر ، وكان رئيس القبيلة موسى جاكلو الجد الخامس للشيخ.

شيوخه :

أخذ عن والده محمد فودي ، ومعناه بالفلانية الفقيه كما أخذ عن والدته حواء ، وجدته رقية ، كما أخذ عن كثير من الشيوخ أبرزهم الشيخ جبريل بن عمر الذي يقول فيه :

إن قيل في بحسن الظن ما قيلا   فموجة أنا من أمواج جبريلا

كما أفاد من كتابات العلماء الذين سبقوه ، مثل المغيلي والسيوطي وأحمد بابا التمبكتي ، وغيرهم ، وهو ما يتضح جليا في مؤلفاته.

دعوته :

كان المجتمع الهوسوي مسلما اسميا ، يحكمه حكام يتسمون بأسماء إسلامية ، لكنهم يرفضون تطبيق الإسلام قصدا وعنادا ، فكانت لهم محاكم تحكم بغير ما أنزل

الله إلا ما ندر ، ومدارس ذات مناهج لا تخرج عن رغبات الحكم ومصالحه وسياسته التـي رسمتها لـه قوى غير إسلامية ، ومساجد يحكم حولها الحصار ضد أي فهم إسلامي صحيح ، يؤمها أئمة ليسوا قدوة حسنة ، وتقام الصلوات بها في ذلك الجمع ، وترى السلاطين يشجعون عليها ويشاركون فيها ما دامت بعيدة عن التدخل في شئون المجتمعات وسلوكها وأخلاقها ، نظر ابن فودي مليا في الأوضاع حوله من جميع جوانبها ونواحيها وزواياها.

عليك قبل العلاج بتشخيص الداء ، والتأكد من صحة هذا التشخيص ، فالخطأ هنا قاتل ، كما يعرف الأطباء ، أما الدعاة إلى الله فهم أشد الناس حاجة إلى معرفة الداء أو الأدواء التي يواجهونها ، والخطأ في عملية التشخيص - إذا وقع منهم - أشد فداحة وأكثر خطرا ، فلن ينتج عنه موت مريض ، أو استفحال علته ، بل النتيجة تضليل الأمم ، وهلاك الشعوب فلا يكفي فهم الإسلام وحده ، أوفهم أحكامه ، بل على الدعاة المخلصين والعلماء فهم الأوضاع من حولهم فهما جيدا ، وإلا فكيف تزرع في أرض لا تعرف كل شيء عنها ، نوعيتها درجة خصوبتها ، المحاصيل المناسبة لها ... الخ ، فإن تم للدعاة هذا الفهم كان الطريق معبدا أمامهم نحو النجاة والنهوض بشعوبهم ، ولقد كان ابن فودي مشخصا جيدا لأدواء مجتمعه ، واعيا فاهما لكل ما يدور حوله ، مما كان له أثر كبير جدا في نجاح دعوته إلى الله ، وقبل أن يبدأ الشيخ بوصف أدواء الناس وعلاجها بدأ بنفسه ، وهو ما يجب أن يفطن إليه كل داع إلى الله ، إذ هو قدوة وصورة أمام الجماهير لما يدعو إليه ، فكير ما يكون الشاب المسلم شديد الحماس لدينه ، باذلا كل ما يستطيع في سبيل إعلاء كلمة الله إلا أنه لا يهتم بصورته أمام المجتمع ، معتمدا على صدقه ، واتباعه للحق غير عابئ بما يقال عنه ، ولا ننكر أنه ربما يكون مظلوما ، وبرغم ذا فلابد من الاهتمام بصورة الداعية أمام

الناس ليكونوا على استعداد لتقبل ما يعرض عليهم من دعوة الحق ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة ، فلقد أراد عمر بن الخطاب أن يقتل ابن سلول رأس النفاق فمنعه ، لماذا ؟ حتى لا يحدث الناس بأن محمدا (ﷺ) يقتل أصحابه ، وهكذا نرى نبينا الكريم قد وضع اعتبارا لما يقول الناس ، ويكون هذا القيل ذا أثر في دعوته.

ولا ننسى أن حزب الشيطان يحاول باستمرار تشويه صورة الدعاة إلى الله ، فلا نعينهم ، بل نضع نصب أعيننا أن تكون صورة الداعية محببة إلى الجماهير ، فلا تُعزل أو تنعزل عن الدعاة الهداة ، وقد يلقى الداعون إلى الله جفوة ونفورا أو أذى كثيرا من الناس كما حدث للنبي الأكرم (ﷺ) ، ولكن الرجال يصبرون ويحتسبون حتى تسلس الجماهير قيادتها لحزب الله ، وتكون سلاح الدعاة ، حربا على حزب الشيطان وأوليائه ، وهذا ما حدث مع الشيخ ابن فودي الذي صبر كثيرا واحتمل كثيرا الجفاء والأذى حتى مكنته الجماهير من قيادتها ، فسار بها إلى النصر على القوى الكافرة.

والخلاصة أن الرجل بدأ بإصلاح نفسه حتى لا يقال : (باب النجار مخلع ، أو يا معدّل حمول الناس عدل حمولك) ولذا فإننا سنتحدث عن فضائله لنعرف كيف أعد نفسه لحمل أعباء الدعوة إلى الله ، ثم نتحدث عن تقييم الشيخ للأوضاع من حوله ، تحت عنوان ، الداء والدواء.

أولا : فضائله :

بدأ ابن فودي الإصلاح بنفسه إيمانا منه بأنه لا يستطيع أن يصلح الناس ما لم يصلح نفسه ، إلا أنه كان يعتقد أن إصلاح النفس وإصلاح المجتمع يجب أن يكونا معا ، وفي آن واحد وإلا لن يكون هناك أي تغيير ، لأن من أراد أن يرجئ الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن يصل إلى درجة من التربية تقترب من الكمال لن يعمل أبدا ، ولن يصلح نفسه فضلا عن إصلاح غيره ، لأن الإنسان كلما تقدم في العمر رأى أنه كان أقل تجربة ، بل وكان جاهلا ، وستستمر هذه الحالة إلى أن يلقى ربه ، دون أن يصل إلى درجة الكمال التي ينشدها ، فخير وسيلة إلى إصلاح النفس هي الخروج إلى المجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويكون بهذا قد أمر نفسه بالمعروف ونهاها عن المنكر ، ويكون قد عرف بأنه يدعو إلى الله فيبتعد عن التناقض بين القول والعمل ، وسيكون هذا بداية إصلاح نفسه.

بدأ الشيخ بنفسه ، فكان لا يأكل إلا من مصدر عرف حله تماما بعيدا عن الشبه ، وكان يفتل الحبال مع زوجاته وأطفاله ليبيعها في السوق ، واستمر على هذا الحال حتى بعد أن صار إماما للمسلمين في السودان الغربي ، أما في مجال إعداد النفس عمليا فكان يحافظ على مواعيد الصلوات في الجماعة بدقة ونظام ، وربط بين محافظته على الصلوات واحترامه للوقت ، ودقته ونظامه في الصلاة بالدقة وتقدير الوقت خارج الصلاة ، فكان يؤنب نفسه في حزن ثلاثة أيام إذا فاتته تكبيرة الإحرام ، وسبعة أيام إذا فاتته الركعة الأولى ، وكان ذلك قبل أن يكون إماما.

أما في مجال التعليم فقد اعتبره ضرورة مفروضة ، لكنه لابد أن يكون له تصور مثل الذي وضعه الرسول (ﷺ) بوحي من ربه ، وهو التعليم من أجل الرسالة الإسلامية.

وفي مجال النية رأي ضرورة توجيهها في سبيل الله ، وقد طبق ذلك على نفسه ، فكان إذا أراد الخروج إلى وعظ الناس وقف في زاوية من زوايا الدار يتمتم بكليمات ، فسأله ابنه محمد بللو عن ذلك فقال : (أجدد النية ، وأعاهد الله على

الإخلاص فيما أخرج إليه ، وأسأله أن يفهم الحاضرين ما أحدث بـه ، ومـع ذلك كنت أجدد النيـة في المجلس).

كما كان الشيخ صلبا في الدين ،لا تأخذه في الله لومة لائم ، يحكم بالقسط ولو في القربى ، لا تأخذه الحمية الجاهلية ولا يزيغ عن الحق.

ثانيا الداء والدواء :

نظر ابن فودي في المجتمع حوله فوجده أقساما خمسة :

١- كفار بالأصالة : يعبدون الأحجار والجن ، ويصرحون على أنفسهم بالكفر ، فلا يصلون ولا يصومون ولا يركعون ، ويسبون الله ، ويقولون في حقه ما لا يليق.

٢- مرتدون عن الإسلام : يخلطون أعمال الإسلام بأعمال الكفر ، الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، وبعضهم من قبل نفسه ، وبرغم أنهم يقرون بالتوحيد ويصلون ويزكون إلا أنهم يأتون بذلك كله بدون استكمال الشروط ، الشروط الشرعية ، وبطريقة شكلية آلية ، وعلى هؤلاء يحمل قول الشيخ جبريل بن عمر :

وبعد فاعلهم أن ذا تبصره ... للناس في السودان بل تذكره
فلا ترى منهم سوى من يدعى ... إسلامه بفمه الموسع
مستترا بالصوم والصلاة ... عن قدحه بأقبح اللعنات
فهو حقا كافر صريح ... لأنه مجرم مبيح
في الخوض دائم ومستمر في ... عقيدة خالفها الجمع الوفي
عَمٍ عن الحديث والكتاب ... وماله قال ذوو الألباب
راضٍ بحكم الجاهلية التي ... أزالها الله بوضع الشرعة

حسـير أفكـار صغـار العلـم	فحكمــوا إســلامهم بـــالوهم
مـا بينـهم وبين أهل الشـرق	تفرقـــة لا حـــق لأهـــل الحـــق
وذاك يسـتبيـن بـالـظـواهـر	يدركــــــه ذوو البـــــصائر
يـدرك بالخبـرة والتبصـرة	والتجربـة بأفعـال تظهـر للأبـصرة
ما لـم يكـن بفعلـه إلا الـذي	كفــر ، إنـــه بالإجمـــاع يحتــذى
فمــن أتــاه كـافـر مــرتـد	كـــذاك كفرانـــا بواحـــا عُـــدَّ

يقول محمد بللو : (وغالب ملوك هذه البلاد وجنودهم وأطبائهم وعلمـائهم مـن هذا القبيل).

ومن هذا القسم قوم منهمكون في المعاصي في الجاهلية ، منتسبون إليها جارون فيها مجرى المباح ، كأنها لم يرد فيها نهي ، وهي خصال كثيرة أقاموا عليها.

٣- مسلمون جاهلون : مقرون بالتوحيد ويصلون ويصومون ويزكون ولكنهم جهلاء يأتون بالعبادات دون استكمال شروطها ، وهم مقيمون على عادات ردية وبدع شيطانية.

٤- علماء فاسدون : وهم العلماء الذين ركنوا إلى الدنيا ، ومالوا إلى زخارفها ، وهادنوا الحكام الظالمين ، وسكتوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد لاقى الشيخ من هؤلاء أذى كثيرا.

٥- علماء صالحون : عاملون ، يقتدي بهم تلامذتهم من الذين يعملون على نشر الهدى والحق ، ومن هؤلاء كان مشايخ ابن فودي الذين أدبوه وعلموه وأصحابه الذين نصروا الحق.

ويلحق بهذا القسم أيضا المؤمنون الفاهمون لعقيدتهم كما ينبغي ، المحسنون للوضوء والغسل والصلاة والزكاة والصيام ، عاملين بذلك كما ينبغي ، وإن كانوا قلة نادرة ، وهذا التقسيم الخماسي يذكرنا بقول عليّ (كرم الله وجهه) : (الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع يتبعون كل ناعق) وهكذا المسلم ، إما يكون عالما ربانيا ، أو متعلما على سبيل النجاة أو تاركا الهمج الرعاع الذين يتبعون كل ناعق ، فمما لا يليق بمن أكرمه الله بالإسلام أن يكون منهم ، بل يتدبر كل قول وعمل من منظور إسلامه فقط ، حتى لا يكون فريسة سهلة لأحابيل الشيطان وتلبيسه ، ولا يفقد مناعته أمام الأفكار والتصورات التي تبثها جبهة إبليس ، إذ المؤمن ليس من الغافلين.

ونعود إلى التقسيم الخماسي لنؤكد مرة أخرى أن ابن فودي قد أجاد التشخيص ووضع يده على مكامن الداء ، إنه لم يطلق حكما واحدا على المجتمع ، كما يفعل بعض أصحاب النيات الحسنة ، أو بعض المدفوعين من جبهة الشيطان ، إنه لم يقل إنه مجتمع كافر أو مرتد ، أو عاصي أو مسلم أو جاهلي ، برغم أن أغلبية المجتمع كافرة بالأصالة أو بالتخليط، كما أشار محمد بللو ، فأي مجتمع لا يخلو من هذه الأصناف الخمسة التي رآها ابن فودي حوله.

وإن من الأخطار المحدقة بالطليعة الإسلامية القول بأن الناس كلهم كفار ، دون استثناء أو احتراز ، إنه باب يؤدي إلى البغضاء والشحناء داخل الصف الطليعي نفسه ، وهو ما أراده الأعداء لنا وتمنوا وعملوا له كثيرا ، كما أن القول بأن الكل

كفار يعزل الطليعة عن جماهيرها ، وهو أمر بالغ الخطورة فالإسلام ليس حكرا على أحد مهما كان إخلاصه وتفانيه في سبيل هذا الدين ، فهذه الجماهير يجب أن تتحمل مسئولياتها تجاه إسلامها ، ويجب أن تفهم أن القضية قضية دين وإسلام ومصير ، وليست قضية سياسية لا تهمها ، أو تخص فئة قليلة ذات رسم معين أو هيئة وأفكار متطرفة ، وكل هذا لا يعنيها من قريب أو بعيد ، ومن العجيب أن بعض المُكَفّرين يرون أن الإسلامبولي ورفاقه ليسوا إلا كفارا قتلوا كفارا ، فلا حول ولا قوة لا بالله العلي العظيم ، إن المجتمع مهما كثر فيه الكفر والابتداع والعصيان لا يخلو من مؤمن بالله ، بل إن آل فرعون كما أشار القرآن الكريم لم يخل منهم مؤمن يكتم إيمانه ، قال تعالى : (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) [1].

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [2] ، ترى هل مجتمعنا أسوأ من مجتمع فرعون الذي كان يقول أنا ربكم الأعلى ؟؟

إن البعض قد يخلط بين حكم الدار ، هل هي دار حرب أم دار إسلام وبين حكم الناس ، متصورا أن المسلم لا يقيم إلا في الأخيرة فقط ، وهو وهم ، فربما لا يستطيع لسبب أو آخر أن يهاجر من دار الكفر ، أو أن دار الإسلام ليست قائمة على عهده ، وإذا كانت الهجرة واجبة على المسلم ، إلا أنه قد لا يستطيع ، ولا يهتدي سبيلا ، وقد يعيش بين الكفار طمعا في إسلامهم ، وفي كلٍ فإن عدم القدرة على الهجرة لا يخرج من الملة ، والخلاصة أن الدولة قد تكون كافرة أي دار حرب ولكن بها [3] مسلمون ،

---

(١) ٢٨ / غافر.
(٢) ١١ / التحريم.
(٣) يرجى من القارئ الرجوع إلى حكم إقامة المسلم في دار الكفر بملاحق الكتاب.

والعكس صحيح ، ففي دار الإسلام يعيش الكفار ، بل المنافقون أيضا.

وهنا قسم ابن فودي البلاد إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

غلب فيه الكفر ، وكان المسلمون فيه أقلية ، ولكن يحكمه حاكم مسلم ، يطبق شرع الله ، فالبلد مسلم ، أي دار إسلام.

القسم الثاني :

المسلمون فيه أغلبية أكثرية ، ولكن حكمه غير إسلامي ، بمعنى أن القانون الذي يحكم قانون وضعي فالبلد يعتبر غير إسلامي ، ويطلق عليه دار الحرب ، مثل برنو وكنو ، ذلك لأن حكم البلد حكم سلاطينه ، إن أقاموا شرع الله كان بلدهم دار إسلام ، وإلا كان دار كفر أو دار حرب ، وعندها يجب الجهاد أو الهجرة لتحويله إلى بلد مسلم ، أو دار إسلام.

القسم الثالث :

ليس فيه إسلام فهو دار حرب.

ولقد تطلع ابن فودي حوله في السودان الغربي فلم يجد بلدا يُحكّم الإسلام ، بما فيها مملكة غوبرا التي نشأ فيها ، وبقية ممالك الهوسا السبعة التي أصبحت فيما بعد جزءا من دولة الخلافة التي أسسها الشيخ وجماعته.

وكان رأي الشيخ صائبا وتشخيص الداء سليما ، ومن ثم انطلقت دعوته من تصورات شرعية صحيحة ، وأحكام فقهية دقيقة ، وهكذا القيادة الإسلامية وفهم

القادة الناضج للإسلام وللوضع من حولهم ، ومن هنا يأتي القرار الصحيح في وقته المناسب ، ويتأمل الشيخ الأوضاع من حوله فيجد نفسه أمام عدة جبهات أو مجالات للدعوة ، هي : الحكام ، التعليم ، الصوفية ، المرأة ، المسجد.

فماذا كان موقفه من هذه الجبهات ؟؟؟

١- الحكام :

تأمل الشيخ أحوال الحكام في بلاد السودان الغربي فوجدهم :

١- يبحثون عن قضاء شهواتهم فقط ، إذ هم كالبهائم ، قال تعالى : (أولَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولَـئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ) [1] ، (وَيَأكُلُونَ كَمَا تَأكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) [2].

٢- يبنون ملكهم على أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، فكل من أرادوا قتله أو طرده أو هتك عرضه أو أكل ماله فعلوا ذلك متابعة لأهوائهم بغير حق شرعي.

٣- يكلفون الناس بما لم يضعه الشرع عليهم من الأموال.

٤- يأكلون من الطعام ما يشاءون حلالا أو حراما ، ويلبسون من الثياب ما يشاءون.

٥- ويركبون من المراكب ما يشاءون حلالا أو حراما ، ويأخذون من النساء ما يشتهون من غير نكاح ، ويسكنون القصور المزخرفة حلالا أو حراما ، ويكثرون النساء في بيوتهم حتى يبلغ نساء بعضهم ألفا ، وما فوق ذلك.

٦- يأخذون دواب الناس من غير إذنهم لحمل طعام السلطان إليه ، ومن يتبع دابته إلى مواضع حط رحالهم ردوا إليه دابته ، ومن لم يتبع دابته هلكت أو صودرت.

٧- يتركون إماءهم وخدمهم يفسدون في البلاد.

---

(١) ١٧٩ / الأعراف.
(٢) ١٢ / محمد.

٨- يبدلون أحكام الله بأحكام وضعية ، فقد حكم الشارع بجلد الزاني غير المحصن ، ورجم من أحصن ، وحكم بقطع يد السارق لكنهم بدلوا هذه الأحكام وغيرها بقصد أكل أموال الناس.

٩- يأخذون مال من مات في بلدهم ، ويسمون ذلك إرثا ، وهم يعلمون أنه ظلم.

١٠- تعذيب المسلمين بسبب إسلامهم كتعذيب بلال لإسلامه وتعذيب امرأة فرعون لإيمانها بموسى وبدين موسى.

١١- يعتمدون على العرافين والسحرة ، ويعظمون الأحجار والأشجار بالذبح ، يوالون الكفار ، أي يظاهرون الكفار ويحمونهم ، وينصرون جيوشهم على جيوش المسلمين من غير تأويل.

١٢- يجبرون الناس على الدخول في جيوشهم ، وكل من لم يذهب وضعوا عليه من الأموال ما لم يضعه الشرع.

١٣- إذا سبقك الخصم إليهم حكموا له - ولو كنت على حق - إلا إذا أعطيتهم أكثر من خصمك.

١٤- يغلقون الباب دون ذوي الحاجات والمساكين ، ويفتحونه للأغنياء ، حبا في أموالهم ، أو للأصدقاء والمعارف حبا في زيادة كسبهم.

١٥- يمنعون عباد الله بعض ما شرع الله لهم كالخُمُر للنساء ، وهي واجبة لهن والعمائم للرجال ، وهي سنة.

١٦- لا يتركون العادة التي وجدوا عليها آباءهم وأسلافهم ولو كانت قبيحة.

١٧- يشتغلون بعمل الباطل ليلا ونهارا من غير غرض شرعي- كضرب الدفوف والمزامير والطبول ، ذلك لأن المسلمين يضربون الطبول ونحوه لغرض شرعي كإرادة اجتماع الجيش وإعلام خروجه ونزوله وقدومه وإعلام قدوم العيد.

١٨- يتصفون بالكذب والخيانة والتكبر ، حتى إنك لا ترى أحدا منهم إلا متكبرا ، ومن نقص شيئا من تعظيمهم عاقبوه على ذلك.

١٩- وجهوا مناهج التربية بقصد إبعاد الناس عن حقيقة الإسلام الحركي والعملي ، فمثلا :

أ - لا إله إلا الله لا تتناول ملوك الدنيا.

ب- لا فرق بين المسلم والمنافق ، فكلاهما يظهر الإسلام ، وإن اختلف قلباهما.

ج- كل من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن لم يفهم معناها ولم يعمل بمدلولها.

د - الرشوة تعني الهدية.

فماذا كان موقف ابن فودي من هؤلاء ؟ هل جلس هو وأصحابه يتجادلون ويتخاصمون ؟ يقول قائل هم كفار ، ويرد آخر مرتدون ، وثالث منافقون ، وينبري رابع دفاعا عن الحاكم الآمن المطمئن : (يا أخي ، هلا شققت عن قلبه ؟) هل غرق في وصم الحكام بالظلم والفسق والضلال ... الخ.

إنما بدأ عمله مع الجماهير ، حتى كوّن منهم جماعة مؤمنة ملتزمة ، تمكنت من الدفاع عن نفسها أمام بطش الحاكم ، نزعت منه ملكه ، وسنعرف ذلك عند الحديث عن جهاد الشيخ.

٢- **التعليم :**

كان الشيخ يعتبر التعليم فريضة ، لكنه لابد أن يكون له تصور مثل التصور الذي وضعه النبي الأكرم بوحي من الله سبحانه وتعالى ، وهو تعليم ليس للمباهاة ، والتقدم على الأقران ، واستمالة وجوه القوم ، وجمع حطام الدنيا ، فأنت إذن ساع بهذا إلى هدم دينك ، وإهلاك نفسك ، وبيع آخرتك بدنياك ، وبضاعتك خاسرة ،

وتجارتك بائرة ، ومعلمك معين لك في عصيانك ، وشريك في خسرانك ، وهو كبائع سيف لقاطع طريق ، ومن أعان على معصية ، ولو بشطر كلمة كان شريكا فيها ...).

وهو يقسم طلاب العلم إلى ثلاثة أقسام :

(أ) رجل طلب العلم ليستعين بـه في حياتـه العاجلـة ، ينـال بـه العزة والمـال ، وهـو بذلك مستشعر في قلبـه ركاكـة إحساسه وخساسة مقصده فإنـه من الخاسرين ويخاف عليه من سوء الخاتمة.

(ب) رجل استحوذ عليه الشيطان فأخذ علمه ذريعة إلى التكـاثر بالمـال والتفـاخر بـالجـاه ، والتعزز بكثرة الأتباع ، يدخل بعلمـه كل مدخل رجـاء أن يقضي من الدنيا وطره ، مضمرا ذلك فـي نفسه ، لاتصافه بسيمة العلمـاء ، وترسمه برسومهم فـي الزي والمنطـق ، مـع تكالبـه علـى الـدنيا ظـاهرا وباطنـا ، فهـذا مـن الهـالكين الحمقـى المغرورين ، إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين.

(ج) رجل طلب العلم ليتخذ بـه زادا فـي الميعاد ، ولـم يقصد بـه إلا وجـه الله ، والـدار الآخرة ، وهذا من الفائزين.

ولقد رد الشيخ ـ رحمه الله ـ أوهام بعض الطلبة الذين نظروا في كلام مـن حض من الأئمـة علـى دراسـة علـم التوحيد ، وحذر مـن الجهل فيـه ومـن التقليد ، فجعلـوا يـسألون النـاس عمـا يعتقـدون ، ويكلفـونهم الجـواب ، والإبانـة عن الـصواب ، يقـول محمـد بللـو : (فربما عثروا على قاصر العبارة عمـا فـي قلبـه ، أو ملجلج اللسان لدهش نالـه ، أو جاهل بشيء مما يقدح في العقيدة ، أو يظنونـه قادحا إن لم يقدح ، يشيعون عليـه ، ثـم أشـاعوا أن الفساد قد ظهر في عقائد الناس ، وجعلوا يقررون العقائد للعوام بعبارات قد تقررت عندهم ، واصطلاحات محررة ، وحدود معبرة ، حسب ما في كتب المتكلمين ، فشاع عند النـاس أن من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقررون فهو كافر.

وأشاعوا أن عوام المسلمين لا تؤكل ذبائحهم ، ولا يناكحون مخافة أن يكونوا لم يعرفوا التوحيد.

ثم لم يقفوا في هذا ، بل لما انتهكوا حرمة عامة المسلمين ابتلاهم الله بانتهاك حرمة خاصتهم أيضا ، فتناولوا فقهاء عصرهم ، ووقعوا فيهم ، في أهل العلم والدين ومن هم على سبيل المهتدين ، وقد اشتعلت فتنتهم ، وتراكمت ظلماتهم حتى كادت تطبق على هذا القطر كله ، فطلع هذا الشيخ عليهم - يقصد أباه عثمان - فأطفأ الله به نارهم ، وكشف بنوره ظلماتهم ، فأبطل مذهبهم واجتث شجرتهم من فوق الأرض ، ولم يبق لها قرار.

وله تآليف في الرد عليهم ، تنيف على الخمسين تأليفا ، وله معهم وقائع ومشاهد في المناظرة ، أجاد فيها ، وكشف عن ساق الحق والحقيقة ، والحمد لله.

ومثل هذا الرد على طائفة من الطلبة ، وقفوا على بعض الكتب الفقهية ، ولم يهتدوا لواضح سبيلها ، فجعلوا يفتون بالشواذ والمراجيح ، وبعضهم يطالع الكتب الغريبة ، وبعضهم يأخذ من كتب المرجئة) انتهى كلام محمد بللو بتصرف يسير ، وإني لأدعو القارئ الكريم إلى تأمل هذا النص جيدا لأننا بحاجة إلى الاعتراف بأن بعض شباب الطليعة الإسلامية - أو على الأقل من يحسبون عليها - بعضهم لا يخلو من الأمراض التي أشار إليها النص السابق ، ومن ثم لزم الإشارة إلى ما يلي :

١- إن إقبال الشباب على النظر في الكتب الإسلامية وغيرها أمر محمود طيب ، ولكن على الطليعة الإسلامية الواعية أن توجه الشباب إلى قراءة ما يناسب عقليتهم وظروفهم ، حتى لا يكون لما يقرأ نتيجة عكسية ، أو غير مرضية ،

فالكتاب كالغذاء ، يمكن أن يكون جيدا مفيدا ، ولكنه لا يناسب - وربما يضر - هذا المرء أو ذاك.

وعلينا أيضا ألا نخدع من الواجهة الإسلامية ، فلا شيء يمنع الأعداء من استخدام نفس الواجهة ، وهنا يكون الحذر والفطنة ، وبخاصة نحو تلك الكتب التي تثير الشقاق داخل الصف الطليعي نفسه ، أو داخل الصف المسلم بشكل عام ، وفي هذه الحالة لا نهمل هذا النوع من الكتب ، بل نقرؤه قراءة جيدة فاحصة واعية حذرة.

ومما سمعت في هذا القبيل أن بعض المنافقين في إيران يستغلون جو الحرية في بلدهم فيرسلون كتبا تصرف أهل السنة عن إخوانهم الشيعة ، وتوجد النفرة والفرقة بين الأشقاء المسلمين ، وفي هذا الحال لا تستطيع الدفاع عن إخوانهم المسلمين إذ سيقال لك : (لقد جاءت هذه الكتب من إيران نفسها ، وبأقلام شيعية) وهكذا أخي المسلم يمكن للمنافقين أن يستغلوا واجهة الإسلام لضرب المسلمين وهدم وحدتهم ، فلنكن على حذر وفطنة من كل كتاب أو داع إلى المساس بوحدة الصف المسلم.

وقد تستغل الواجهة الإسلامية في إشغال الشباب ببعض الأحكام الفرعية الجزئية ، وصرف الناس عن مشكلات المسلمين الحقيقية ، وهذا لا يعني أن الكاتب قصد ذلك قصدا ، بل قد يكون من المخلصين الذين يريدون نفع المسلمين ورفعة الإسلام ، ولكن الأعداء يستغلون ما يكتب في غير ما يحب.

٢- إن بعض الشباب قد يعرض نفسه للفتوى ، ولا حجر على ذلك ولا اعتراض ، ولكن على من يفتي أن يعرف بدقة الأحكام الشرعية ، وخاصة فيما يفتى فيه ،

إضافة إلى شيء مهم جدا ، وهو فهم الأوضاع والظروف من حوله ، فأنت إذا أفتيت شابا بأن يعفى لحيته عليك أن تعرف إمكانية تطبيق هذا الحكم ، فقد يسبب له من المتاعب أو من المشكلات ما هو في غنى عنها ، وقد يستطيع أن يكون أكثر إفادة للصف المسلم بدونها.

٣- إن الخوض في العامة الذي أشار إليه محمد بللو قد وقع فيه بعض الشباب المسلم ، ممن توهم أن الجماهير المسلمة ليست على الإسلام ، إذ هي لم تقرأ الكتب التي قرأها ، ولا علم لها بالأفكار التي يعرفها ، كما أن هذه الجماهير لا تعرف حكم المجتمع ، هل مسلم أم جاهلي ... الخ ، ولا تستطيع تحديد نوعية حاكميها ، هل هم كفار أم مؤمنون ... الخ ولا تستخدم عبارات مقررة عند الشاب ولا تستخدم اصطلاحات محددة معبرة حسب ما في الكتب التي قرأها وعرفها.

إن هذا الحكم على الجماهير من أخطر المنطلقات الخاطئة التي ينتج عنها أن تنعزل تلك الجماهير عن طليعتها الإسلامية ، فإذا كنت تناضل من أجل الإسلام فلا تتوقع من أحد أن يقف معك ، فقد اتهمته وحكمت عليه بأنه ليس على الإسلام ، كما أنك أيها المناضل عزلت نفسك أيضا ، وهو ما يخطط له الأعداء ، حيث يسهل تمييز الشاب الطليعي وضربه ، لأنهم ليسوا إلا قلة (حاقدة) أو فئة ضالة مضللة ، وقديما قال فرعون : (إنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ) [1] كل هذا يحدث للدعاة إلى الله ، والجماهير لا صلة لها بهم ، لأن حزب الشيطان قد اكتسب الجماهير على صفه ، أو على الأقل نجح في تحييدها ، فعلى الطليعة المسلمة أن تتفهم هذه القضية جيدا وأن تحاول كسب الجماهير إلى صفها.

---

(١) ٥٤ / الشعراء.

كذلك لم يسلم بعض المفكرين والعلماء من الخوض أيضا ، فمن قائل : إن فلانا ـ من أهل العلم ـ ليس على شيء ، أو من متوهم أنه لا يقل عن الشافعي ومالك ، وغيرهما : (نحن رجال ، وهم رجال !!) لا يا أخي ، ليس الأمر كما تصورت ، إنهم علماء ربانيون مجتهدون ، ونحن على أحسن الأحوال متعلمون على سبيل النجاة ، إذا أخلصنا النية لله.

ومن حق هؤلاء العلماء علينا ، وبخاصة الفقهاء أن نرجع إلى ما قالوا أولا قبل أن نفتي في أي مسألة ، لأن من الحمق أن نترك تلك الثروة الفقهية الهائلة ، لنبدأ من حيث انتهوا لا من حيث بدأوا ، وهو ما يفعله الراسخون في العلم في كل ميدان ، ولنرجع إلى كتب الشيخ عثمان بن فودي ، أو كتب الإمام ابن تيمية ، حتى إن البعض عاب (ابن فودي) على كثرة نقله عن السابقين ، والواقع أنه لم يكن لابن فودي إلا أن يفعل ذلك لأنه امتداد لمن سبقه ، وليس نبتا غريبا بعيدا منفصلا ، فاللاحق لابد أن يفيق من السابق ويعتمد عليه ، وإنه ليحسن أن نعطي مثلا من أحد كتب ابن تيمية ، يظهر فيها كيف يعتمد على السابقين من الأئمة في مناقشة القضايا الفقهية ، يقول : (وأما الأذكار الواجبة فاختلف في منع ترجمة القرآن الكريم ، هل تترجم للعاجز عن العربية ، وعن تعلمها ؟ وفيه لأصحاب أحمد وجهان ، أشبههما بكلام أحمد أنه لا يترجم ، وهو قول مالك وإسحاق ، والثاني يترجم ، وهو قول أبي يوسف ومحمد الشافعي [1] ...) هذا كلام الشيخ ابن تيمية ، إنه يرجع فيما قاله إلى ما قال الفقهاء قبله ، ويعتمد عليه ، ومنه يبدأ ، ألا ترى أنه أحق منا بالقول : (هم رجال ونحن رجال) لكنه لم يفعل.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم / ص١٨٢.

وثمة خطر آخر يواجه المفتي الشاب ، وهو أنه يأخذ من القرآن والحديث مباشرة ، دون الرجوع إلى كتب الفقه أولا ، فهل تعتقد أخي المفتي أننا أكثر فقها بالكتاب والسنة من أمثال الشافعي ومالك أو غيرهما ؟ اللهم لا ...

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى تلك الجبهات التي واجهت ابن فودي لنتحدث عن :

٣ـ **الصوفية :**

كان الشيخ يعمد إلى شرح الحقيقة كحقيقة ، فإذا عرف الناس الحق تركوا الباطل ، دون تعرض للأشخاص والجماعات ، ولقد كان للصوفية دور كبير في نشر الإسلام في إفريقية وغيرها ، ولكن هذه الطرق قد تنحرف قليلا أو كثيرا عن منهج الإسلام وروحه ، وبالتالي تبعد عن منابعها الأصيلة ، وشيوخها المؤسسين أو من ينسبون أنفسهم إليه ، فكيف تعامل الشيخ معهم ، هل كان العداء والهجوم والنفور ؟ لم يحدث شيء من هذا على الإطلاق ، لقد كان يعالج القضايا التي تثيرها الطرق الصوفية من غير أن يتعرض لقائليها ، أو الهجوم عليهم ن فهو يشير إلى سلبيات زعماء الصوفية ، وبالذات القادرية بقوله : (لقد أعطاني الشيخ عبد القادر الجيلاني ثلاثا ، الدعوة والجهاد والخلافة) وأخذ في إبراز تعاليم الشيخ عبد القادر الحركية والعلمية بقصد توعية القادرية بأفكار شيخهم ليعملوا بها ، وقد استطاع أن يجعل منهم مجاهدين بمعنى كلمة الجهاد ، وقد كتب كتبا عديدة في القادرية بقصد تدعيمها بآراء إسلامية صافية وعلمية كتلك التي كتبها الشيخ عبد القادر نفسه ، مثل :

١ـ التفرقة بين علم التصوف الذي للتحقق وعلم التصوف الذي للتخلق.

٢ـ تنبيه الغافلين ، وتنظيم الآثار ، وبديع الأخبار.

٣ـ السلاسل الذهبية للسادة القادرية.

وهكذا فإن منهج الشيخ في التعامل مع الصوفية يعتبر دروسا مفيدة للطليعة الإسلامية في كيفية التعامل مع القوى الإسلامية العاملة في الساحة ، وكيف يمكن تحويل هذه القوى جميعا إلى جند مجاهدين.

٤ـ المسـجد :

لقد اعتبر الشيخ المسجد المنطلق والمركز ، ينطلق منه المجتمع المسلم بقيادته ، كما أنه مركز الدعوة إلى الله ، كما اعتبره معهدا تربويا لتربية المسلمين في كيفية تعاملهم مع بعضهم وأكد على دور المسجد في بناء المجتمع مؤكدا استحالة نجاح أية نهضة إسلامية في حالة غياب المسجد وقادة المسجد ، وأرجع كل أسباب الضعف بين المسلمين إلى ابتعادهم عن المسجد ودوره الفعال في تنمية قدرات المسلمين التعليمية والعسكرية والأخلاقية والاقتصادية والصناعية.

ولذا فإن من الخطأ أن تبتعد الطليعة الإسلامية عن المسجد وجماهيره ، مهما كانت المبررات والحجج ، فلن تبدأ نهضة المسلمين إلا من المساجد وإذا كان بعض المخلصين يعتبرها مساجد ضرار ، فإن البعد عنها وعن روادها لن يصلحها ، بل سوف يحولها إلى ضرار في ضرار ، فما رأينا البعد عن موطن الداء يشفيه أو يخففه ، بل يجعله يستفحل ويصعب علاجه.

وإذا كانت بعض الحكومات شديدة الحرص على ضم المساجد الأهلية إليها ، لتكون تحت إشرافها فإن هذا لا يعني أن تلك المساجد قد تحولت إلى أماكن يحرّم ارتيادها ، ويجب الابتعاد عنها ، والانعزال إلى مسجد معين - أو مساجد بعينها - والصلاة خلف إمام معين ، أو أشخاص معينين ، مما يؤدي إلى عزلة الطليعة عن

جماهيرها ، كما يمكّن الأعداء من رصد هذه الطليعة ، والتعامل معها ، والمؤمن كيّس فطِن ، فلا يلدغ من جحر مرتين ، بله مرات.

٥- المـرأة :

لقد كانت المرأة شبه مجوسية ، على الرغم من أنها مسلمة اسميا ، فكانت تعتقد وتطبق ما كان يعتقده ويطبقه الرجل ، إضافة إلى عدم احتجابها عن الرجال الأجانب ، كأخي زوجها ، وابن عمها ، وابن خالها ، وصديق زوجها ، كما كانت النساء يخرجن إلى الأسواق بدون عذر شرعي ، وإلى ولائم الأعراس والعقائق المشتملة على المنكرات ، واغترار الرجل وثقته اللامحدودة بأمانة زوجته لكونها عفيفة فيتركها مع الرجال الأجانب.

ورفضت المرأة التعليم الإسلامي ، تاركة ذلك لزوجها ، ظنا منها بأن الزوج يكفيها ذلك ، وضرب الشيخ عثمان مثلا على جهل المرأة بأن : بعض المارة أعطوا امرأة من بلدنا ـ تصلي وتسبّح ـ زكاة الفطر لظنهم أنها تجهل ، ولا تصر على جهلها بالتوحيد والتعليم عموما ، فسألناها فقالت : الرسول خلق الدنيا ، وهو ولد الله ، فحاولنا إصلاحها ، ولكنها اتهمتنا بالجهل مصرة على رأيها ، لذلك طلبنا منهم أن يأخذوا ما قدموه لها ، لأنها رفضت فرضا من فروض الله ، وهو طلب العلم الذي فرضه الله على كل مسلم ومسلمة.

هذا هو الداء إنه جهل المرأة ، ولذا كان العلاج التعليم ، فلن تكون هناك نهضة إسلامية بدون المرأة المؤمنة ، العاملة بدينها ، ومن ثم أخذ الشيخ يدرس للرجال والنساء ، وأحيانا يجمع بينهم في مكان واحد ، وذلك لضيق الوقت بسبب تجواله ، أو لضيق الأماكن وعدم وجود إمكانيات لبناء منفصل لهن ، الشيء الذي

جر إليه نقد العلماء الذين عابوا عليه الجمع بين الرجال والنساء في مجالس التعليم وهو ما يتنافى وسنة الاحتجاب.

وقد رد الشيخ على منتقديه بأنه يجمعهم كما جمعتهم الصلاة ، إلى أن يجدوا مكانا متسعا ومنفصلا ، يقول : (من الأمور التي عمت بها البلوى ، في هذه البلاد الهوسوية ما يفعله كثير من علماء هذه البلاد ، من ترك الزوجات والبنات مهملات كالأنعام ، من غير أن يعلموهن ما فرض الله عليهن ، من عقائدهن ، وأحكام وضوئهن وصيامهن ، وغير ذلك مما أوجب الله عليهن تعلمه ، وهذا خطأ عظيم وبدعة محرمة ، وجعلوهن كالوعاء ، يعملون فيه ، فإذا ما انكسر طرحوه في الدمن - أي موضع النجاسة - يا عجبا كيف يتركون أزواجهم وبناتهم في ظلمات الجهل والضلال ، وهم يعلمون طلبتهم صباحا ومساء ؟ وما ذلك إلا للتعظيم ، لأن تعليم طلبتهم رياء وفخرا ، وهذا خطأ عظيم ، لأن تعليم الزوجات والبنات واجب وتعليم الطلبة نفل ، والواجب مقدم على النفل إجماعا.

يا نساء المسلمين لا تسمعن إلى أقوال الضالين المضلين ، الذين يغرونكم بأن يأمرونكم بطاعة الأزواج ، من غير أن يأمروكن بطاعة الله ورسوله (ﷺ) ، ويقولون : سعادة المرأة في طاعة زوجها ، وما ذلك إلا لطلب غرضهم ومرادهم فيكن ويكلفونكم ما لم يوجب الله ورسوله عليكن ، من الطبخ والغسل ، ولا يكلفونكن ما أوجب الله ورسوله عليكن من طاعة الله ورسوله ، نعم تجب طاعة الزوجة لزوجها إجماعا سرا وعلانية ، ولو كان زوجها حقيرا جدا ، وحرام عليها عصيان زوجها مطلقا وإجماعا ، إلا إذا أمرها بمعصية الله - فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق - وإذا أطاعت المرأة زوجها كان أجرها مرتين ، لكن بعد طاعة الله ورسوله.

ويتسائل الشيخ قائلا : أيهما أفضل تركها جاهلة ، أو الجمع بينها وبين الرجل في التعليم إلى حين استطاعتي ؟

وهكذا عرف الشيخ أدواء مجتمعه ، كما عرف كيف يتعامل معها ، ولكن ما هي وسائله التي كان يملكها في مواجهة تلك الأدواء ؟ لم يكن للشيخ قوة أو ركن شديد يأوى إليه ، بل اعتمد على نفسه ، وعلى علمه ، فكانت أسلحته التدريس والوعظ ، ثم التأليف.

أولا : التدريس والوعظ :

كان للشيخ مجلسان ، أحدهما لتدريس الحديث والآخر للوعظ والإرشاد ، أما تدريسه فكان يخرج له بعد صلاة العصر والعشاء ، يفسر القرآن ، ويدرس الحديث والفقه والتصوف وسائر العلوم الأخرى.

أما وعظه فكان يخرج له ليلة كل جمعة ، وكان يحضر وعظه خلق كثيرون رجالا ونساء وكان يحدث الناس في خمسة أشياء وهي :

١- ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع.
٢- الحث على إتباع سنة رسول الله (ﷺ).
٣- رد أوهام الطلبة في التوحيد والفقه والتصوف.
٤- إخماد البدع الشيطانية والعادات الجاهلية.
٥- بث العلوم الشرعية.

وكان إذا جلس لوعظه بدأ يحدث الناس في أصول الدين ثم في الفقه حيث يبدأ من باب الاستنجاء فالوضوء فالغسل والتيمم والصلاة ، فالزكاة والصيام والحج والزكاة واليمين ، فالنذر ، فالنكاح ، فالبيع.

ثم يذكر الناس في التصوف ، ويذكرهم بآيات الترهيب ، وذكر النار ثم يذكرهم بآيات الترغيب وصفات الجنة ، وكان يستعين بتآليفه الخاصة ، أو بمؤلفات غيره.

وكان الشيخ يخرج إلى البلاد المجاورة للتدريس والوعظ فذهب إلى بلاد (زُنْفرا) وتحول في مملكة (كِبّ) حتى جاوز نهر النيجر إلى الجنوب ، ودخل بلاد (الدند) ومكث في بعض مدنها فتاب على يديه خلق كثير ثم عاد إلى وطنه.

ثانيا : التأليف :

لقد اهتم الشيخ بالإعداد الفكري ، المتمثل في التأليف والنشر فكتب هو وأتباعه ـ وخاصة ابنه وأخوه ـ كثيرا ، ولم تكن كتاباتهم لذات الكتابة ، أو التجارة ، كما فعل وما زال يفعل غيرهم ، وإنما كتبوا بقصد إيضاح الصعب وتقصير الطويل ، وتطويل القصير ، ونثر المنظوم ، ونظم المنثور ، وشرح الصعب في الجوانب الفكرية والعقائدية واللغوية ، وإبداع الجديد الذي لم يتطرق إليه الكتاب من قبل ، من لغة وآداب وقانون واجتماع وسياسة واقتصاد ، وغيرها من المواضيع الأخرى لطلابهم.

لقد كتب الشيخ لإعداد النواة الأولى وتربيتها تربية عقائدية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية ، هذا إضافة إلى ما كتبه ردا على منتقديه.

وبعد سنوات من الدعوة إلى الله ، تدريسا ووعظا وتأليفا ، أثمرت جهود الشيخ عن تغير جذري في المجتمع ، ما أسفر عن أنصار له في دعوته ، سماهم الجماعة ، ومن ثم كان عليه أن يعيد تصنيف مجتمعه طبقا للأوضاع الجديدة ، حتى يتسنى له التعامل الناجح معها ، فقسم الناس إلى ثلاثة أقسام :

١- المؤمنون الأقوياء وهم جماعته.

٢- المسلمون غير الملتزمين بمنهجه الإسلامي ، ولكنهم يقولون : لا إله إلا الله ، ويتسمون بأسماء إسلامية ، ويطبقون بعض تعاليم الإسلام ، ويدخل في ذلك كل المسلمين غير العاملين ، جهلا منهم ، بما في ذلك بعض زعماء الطرق الصوفية وأتباعهم.

٣- كفار : وقسمهم إلى قسمين :

(أ) قوم لم يقاتلوا المسلمين ، ولو يقوموا بأي عمل عدائي ضدهم ، ممن يقول القرآن فيهم : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ [1] ... الآية).

(ب) قوم خططوا وأظهروا نواياهم لضرب المسلمين بطريق مباشر أو غير مباشر ممن يقول فيهم ربنا : (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ [2] ... الآية.

وقد تعامل الشيخ مع كل قسم من الأقسام الثلاثة تعامل الداعية الواعي الذي يحتاج إلى كل إنسان بقصد هدايته على منهج الله ، عدا الذين أظهروا العداء وخططوا لضرب المسلمين ، فإنهم قد عوملوا معاملة المثل ، بل وأشد.

---

(١) ٨ ، الممتحنة.
(٢) ٩ ، الممتحنة.

والآن وقد أصبح للشيخ جماعة قوية ، وصغار العوام عارفين عاملين ، والطلبة علماء مهتدين ، ووفدت وفود الإسلام شرقا وغربا ، وقدم عليه الكثير من العلماء ، وظهر الدين ، وتوسل الخلق إلى الاقتداء به ، كل هذا كان تمهيدا ناجحا للخطوة التالية :

الجهاد :

رأينا أن الشيخ بدأ العمل مع الجماهير ، حتى آمنت بدعوته ، وسار الرجل في طريقه إلى الله لا يتعرض للسلاطين ولا يحاول الاتصال بهم مقتديا بقول الرسول الكريم : (الفقهاء أمناء الرسل ، ما لم يدخلوا في الدنيا ، قيل : يا رسول الله ، وما دخولهم في الدنيا ؟ قال : اتبّاع السلطان ، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم واعتزلوهم) ويقول أيضا : (شرار العلماء الذين يأتون الأمراء ، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء) [1].

ولكن سلطان غوبر ، باواغن غوارزو (١٧٧٦ ـ ١٧٩٤) أرسل إلى الشيخ ليسهم في تعليم أبناء القصر فوافق أملا في التأثير على السلطان وحاشيته وأبنائهم ، فإذا لم يستطع فإنه ـ على الأقل ـ يمكن أن يوجد الاضطراب والشك في عقائدهم غير الإسلامية حتى يعودوا إلى الإسلام الصحيح ، أو يهزموا هزيمة نفسية قبل أن يبدأ الجهاد الفعلي معهم ، على أن يبقى في القصر فترة محدودة فإذا رأى بوادر للإصلاح استمر ، وإلا فالانسحاب ضروري ، لأن الاستمرار سيكون بمثابة التعاون مع الباطل ، والقبول بالحلول الشيطانية التي تسمى الحلول الوسطى.

(١) انظر الإحياء للغزالي ، باب العلم والعلماء.

وذهب الشيخ إلى السلطان فشرح له الإسلام الصحيح ، وطلب إليه إحياء معالم الدين ، وإقامة العدل بين الرعية ، وتطبيق الأحكام الشرعية ، فأجابه الملك بالسمع والطاعة ، وأسند إليه الفتوى ، وأصبح ابن فودي المرجع الوحيد للسلطان ، دون غيره من العلماء ، فأخذوا يحسدونه ويعيرونه باتصاله بالقصر ، ويرمونه بطلب الجاه وحب الرياسة والرياء والهوى ، ويتهمونه بشتى المعايب والمثالب.

ولكن الشيخ علا شانه ، وزادت جماعته حتى صار السلطان يتوجس منه ، ويخاف على عرشه ، ولا يمل الرجل من النصح ، لا يلاطف ، ولا يداري ، كما يفعل غيره من العلماء ، الذين تمكنوا من الوشاية إلى القصر ، فأفسدوا ذات بينهما.

وتأتي سنة ١٢٠٢هـ ـ ١٧٨٨م ليجتمع السلطان بمعاونيه لبحث أسهل السبل للقضاء على حركة الشيخ وعلى شعبيته ، وقد رأوا أن يستدعي ابن فودي مع عدد من العلماء لحضور عيد الأضحى مع السلطان ، وتهدي لهم هدايا بحضور أكبر عدد ممكن من علماء السودان الغربي ، على أن يكون النصيب الأكبر من الهدايا للشيخ ، فإذا قبلها فإنه سيتقدم للسلطان والسلطة ـ التي يعارضها ـ بالشكر والعرفان ، ويكون بهذا قد أنهى معارضته ، وانتهت شهرته بين المجتمعات في أنحاء غربي السودان.

وبمجرد وصول الدعوة دعا الشيخ إلى اجتماع مع زملائه العلماء لمناقشة الأمر ، ثم رأوا ضرورة المشاركة لتكون كلمة حق عند سلطان جائر ، وأمام الملأ ، والتحدث إلى المسلمين وغير المسلمين ، مطالبا بحقوقهم المهضومة ، على أن تحمل المطالب صورتين ، صورة الرجاء ، وصورة تكشف ما يقوم به السلطان من ظلم وحصروا مشكلات المسلمين وقتذاك في :

١ـ انعدام حرية الدعوة الإسلامية في أرض غوبر ، وباقي الممالك في السودان الغربي.
٢ـ إجبار كل من يعتنق الإسلام على العودة إلى دين آبائه.
٣ـ اعتقال وسجن الأبرياء بغير وجه حق.
٤ـ عدم تقدير لابسي العمائم.
٥ـ الإجحاف في الضرائب فوق طاقة الناس.

بدأ الحفل وقد شارك فيه أكثر من ألف عالم ، وعند انتهاء الحفل وزعت الهدايا ـ وكانت هدية الشيخ أعظمها ـ لكنه رفضها مطالبا بما يأتي :
١ـ على السلطان قبول المنهج الإسلامي كمنهج حياة ، ونظام للدولة.
٢ـ إطلاق حرية الدعوة وحرية الدعاة.
٣ـ ألا تمنع السلطات أحدا من الاستجابة إلى دين الله.
٤ـ تقدير لابسي العمامة لأنها سنة.
٥ـ إطلاق سراح المسجونين الذين سجنوا بغير وجه حق.
٦ـ التخفيف من الضرائب.

وختم نداءه قائلا : (نرجو أن تجد هذه المطالب أذنا سامعة من السلطات لأن ذلك سيساعده على الاستمرار في سلطنته إلى ما شاء الله) وغادر ساحة الاحتفال مباشرة بعد انتهاء خطبته ، فكانت خير وسيلة يخاطب بها المظلومين وخير وسيلة إلى تعبئتهم ، وبداية تجمع كثير منهم حوله ، وهكذا كسب الشيخ هذه الجولة ، ونجا من المؤامرة.

ولما سقطت المؤامرة لجأ السلطان إلى محاولة قتل الشيخ ، فأرسل إليه

يسأله الحضور ليفتيه في مسألة خطيرة ، فذهب الرحل ، ومعه أخوه عبد الله ، وصديقه عمر الكموني ، فلما دخلوا عليه أجلسهم في إحدى غرف القصر ، وفجأة وعلى حين غرة أطلق عليهم الرصاص ، ولكن الله أنجاه وصاحبيه ، وعندها دنا منهم معتذرا فأغلظوا له القول ، وخرجوا من القصر سالمين ، وهم يشكرون ربهم على هذه الكرامة البالغة.

ويموت السلطان باوا ليخلفه أخوه يعقوب (١٧٩٤ ـ ١٨٠٠) ثم مات الأخير ليخلفه أخوه نافاتا (١٨٠٠ ـ ١٨٠٢).

المواجهة مع نافاتا :

نظر السلطان الجديد إلى ابن فودي نظرة حسد وكراهية بسبب ازدياد نفوذ الشيخ ، مما دعاه إلى الرجوع إلى قريته دُغَل.

وقرر النظام الجديد زجر الدعاة إلى الله ، ومنعهم من الوعظ ، وأمر كل من دخل الإسلام أن يرجع إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده ثم كان الإنذار النافاتي الشهير ذو البنود الثلاثة :

١ ـ ليس لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده.

٢ ـ من لمْ يرث الإسلام فليعد إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده.

٣ ـ لا يتعمم أحد بعد اليوم ، ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها.

أما البند الأول فإنه يعني شل حركة الشيخ ، إذ لن يستطيع بدون أنصاره وأعوانه أن يتحرك الحركة المطلوبة.

وأما الثاني فهو اعتراض على حق الفرد في اعتناق ما شاء من الأديان ، كما أنـه صدّ كبير عن دين الله ، ولا تعجب أيها القـارئ الكريم إذا عرفت أن هذا البنـد مطبق في كثير من دول العالم ، حتى في بلاد المسلمين ، وإن كان بشكل غير معلن ، فكثيرا مـا يبقى الداخل في الإسلام مخفيا أمره ، خوفا من الذادّين عن دين الآباء والأجداد ، فإن نظام الحكم لا يحميه - برغم ادعائه الإسلام - لأنه لا يروق له أن يرى راية الإسلام ترتفع ، فلا طاقة له على هذا ولا صبر.

وقد يجد الداخل إلى دين الله أنه لكي يعلن إسلامه أو يشهره - في بعض بلاد المسلمين - أن يخوض غمار بحور من الإجراءات والتحقيقات في مراكز الشرطة ومديريات الأمن ، وأخيرا لا يتمكن من إشهار إسلامه ، أو يختفي تماما ، أين ؟ وماذا حل به ؟ علم هذا عند ربي.

أما البند الأخير فإنه يدعو إلى الدهشة والاستغراب ، فهل العمائم والخُمُر تؤثر على ملك نافاتا أو غيره من السلاطين ، في القديم أو الحديث ؟ والشيء بالشيء يذكر ، فهذا مصطفى كمال أتاتورك - في القرن العشرين يجبر المسلمين الأتراك على خلع الطربوش وارتداء القبعة ، ومن خالف فالجلد أو السجن ، وأحيانا القتل يا إلهي !! ما أعقل هؤلاء السياسيين ، وما أشد ذكائهم !!!.

لقد سمع القائد العسكري الإنجليزي المؤذن فسأل : ماذا يقول ؟ قالوا يؤذن ، قال : إنه لا يقول شيئا ضد مصلحة بريطانيا العظمى أليس كذلك ؟ قالوا : بلى ، قال : فليقل حتى تتمزق حنجرته ، لا شغل لنا به.

نعم ، لا شغل لهم ، هؤلاء قوم عقلاء ، وإن كانوا لنا أعداء ، أما نافاتا

وأتـاتورك ، ومـن لـف لفهمـا ، فـإن الله قـد طمس علـى بـصائرهم رحمـة بالمـسلمين ونـصرا لدينـه ، فلـو كـان هـؤلاء عقـلاء أو أذكيـاء لاقتنـع بهـم عامـة الموحـدين ، وأصحاب النوايا الطيبـة منـهم لتكون الفتنـة بهؤلاء الظـالمين والوقـوع في شراكهم وأحابيلهم ، ولذا كانت حكمة العليم الخبير بكشف جند الشيطان وحزبه.

كما يقتضـي تدبير علام الغيوب أن يقـف أعـداء الله للدعاة بالمرصـاد ، حتـى تنمـوا شجرة الإسلام ، وتتمكن الجماعة المسلمة من إقامة دين الله ، وتحطيم رمـوز الكفر وحماته ، وإنا لنتخيل الجماعة الأولى في مكة ، وقد وقفت منهـا قريش موقفـا سلبيا ، فلا اكتراث ، ولا اهتمام ، إن هذا قد يعنـي موتـا بطيئـا للجماعة أو انقراضـها أو زوبانها في المجتمع الجاهلي ، ولو لم تفعل قريش ما فعلت لما فكر المسلمين في الهجرة ، وفـي دار الهجرة لـم يترك الصناديد محمدا ، بـل ذهبـوا إليـه فـي مهجـره ، وحاولوا القضاء عليه وعلى دعوته ، لكن الله نصر نبيه ، وهكذا يسعى الكفار دائمـا لخزي الدنيا والآخرة.

ونعـود إلـى الـسلطان نافاتـا الـذي يحـرم علـى نـساء المـسلمين أن يـضربن بخُمُرهن على جيوبهن ، استجابة لأمر ربهن ، إنـه يذكر بابن سلول العصر الذي كان يقف في كل خطاباته ليسخر من الطاهرات العفيفات اللائي يسترن وجوههن بالنقـاب ، ثم تُمنع الطالبات المنقبات من دخول الجامعة - بإيعاز من الرئيس المؤمن أو بـأمر منه - وتُشدّد الحراسة على الجامعات والكليات والمعاهد وسائر المؤسسات التعليميـة ، ويقف على الأبواب حراس كلهم يقظة وحذر من كل لحيـة أو نقـاب أو حتـى الخمـار ، أمـا النقـاب فلابـد مـن الـتخلص منـه نهائيـا إذا أرادت صـاحبته الـدخول ، أمـا اللحيـة والخمار فعيون الحارس مفتحة حديدية حادة ، ومعاملة حازمة صارمة ، لا تخلو من

الاحتقار والازدراء ، ولابد من البطاقة الجامعية ثم النظر مليا فيها للتأكد من شخصية الطالب الملتحي أو الطالبة المختمرة ، وأنهما من طلاب الكلية أو المعهد، أما الطالبة المتبرجة فإنها تستقبل بابتسامة ترحيب ، ولا تطالب بشيء ، فالخطاب من عنوانه يظهر ، وكلما أظهرت الطالبة مفاتنها كانت أكثر ثقة ، ومظهرها يوحي بالاطمئنان والارتياح.

ونترك أرض الكنانة إلى إيران حيث تذهب ابنة الشاة إلى إحدى الجامعات فترى الطالبات المسلمات وقد سترن الوجه منهن بالنقاب ، فتقول معبرة عن دهشتها واستنكارها :

(أين جند أبي !؟) نعم أين جند الشيطان ؟ لقد بذلوا كل ما في وسعهم ـ طوال عشرات السنين ـ لإخراج المرأة المسلمة من بيتها ، من حصنها ، من حجابها ولكنها تعود لأحضان الإسلام العزيز ، إلى حصنها ، ثم تغطي وجهها ؟ يا لخيبة الشيطان ، وأين ؟ في الجامعة ، معذرة يا بنيتي ، يا ابنة الشاة المغوار فربنا يقول (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [(١)].

ونعود على أية حال إلى نافاتا صاحب القرار الشهير الذي أعلن به الحرب على ابن فودي وجماعته ، ولكن الله كفى المؤمنين القتال ، ومات السلطان ذليلا مقهورا ، وتولى ابنه ينف الذي كان له الفضل الأكبر في إقامة الخلافة ، كيف ؟ إن هذا ما يظهر في :-

---

(١) الصف ، آية ٨ ، ٩.

المواجهة مع يُنْفَ :

هلك صاحب القرار ليترك خليفته ينف (١٨٠٢ - ١٨٠٨) يواجه مصيره المحتوم ، إذ شمر عن ساعد الجد حربا ضد الجماعة ، وإيذاء لها.

وكان فتى من جند إبليس فارتقى   به الحال حتى صار إبليس من جنده

وقد برهن السلطان على شدة عداوته للشيخ والجماعة بتلك المجزرة التي يرويها محمد بللو بقوله : (غزا - أي ينف - قرية عظيمة من قرى الإسلام ، على حين غفلة من أهلها ، فقتلوا ما شاء الله من فقهائها وقرائها في نهار رمضان وهم صائمون ، ونهبوا أموالهم ، وأسروا ذراريهم ، وجعلوا يفترشون الكتب والمصاحف ، ويغتصبون الألواح فيوقدون بها ، ويستهزئون بأهل الإسلام ، ويقولون لهم : (إيتونا بما تعدوننا إن كنتم صادقين) [1] ولم يكتف بهذا ، بل بدأ يُحِدُّ أشْفاره وأسنانه ويشحذ أسلحته استعدادا لإبادة الجماعة عن آخرها ، وكان ينف داهية حين دبر لفصل رأس الجماعة عن الجسد ، إذ وجه نداء إلى الشيخ بأن ينجو بنفسه وأهله إذا أراد ، لأنه ينوي الفتك بالجماعة !! يا إلهي ، ما أطيب قلب السلطان وما أرحمه !! إنه يريد القضاء النهائي على الجماعة ، ولكن قلبه الكبير ، لا يسمح بإذاية الشيخ.

انظر أخي القارئ ماذا يقول له : (اخرج من بلدي أنت وأولادك ونساءك وإخوتك ، ولا يخرج أحد غيرهم من جماعتك ، وفارقهم) ترى هل يترك الرجل جماعته هاربا بنفسه ؟! لا يمكن ، ورفض الشيخ الإنذار قائلا : (لا أفارق جماعتي ، ولكني أخرج من بلدك مع كل من يريد الخروج معي ، ومن يُرد الإقامة فليقم) وهكذا فشلت المؤامرة الجديدة التي كانت ترمي إلى ضرب الحركة في مقتل ، بحرمانها من

(١) إنفاق الميسور / ص٩٣.

قيادتها ، وفي هذه الحالة ما أسهل إفناءها والقضاء عليها ، كما أن ابن فودي نفسه لو هاجر إلى أي مكان فإن الجماعة لم تكن لتتركه ، بل لابد أن تلحق بقائدها ولذا كان الشيخ حصيفا ومنطقيا في رفضه تهديد السلطان.

كما أن الإقامة أو الهجرة أمر يتعلق بحرية الإنسان الشخصية ، وإذا كان السلطان يكره الجماعة ولا يطيقها ، أفلا يكون من حقها ترك بلده إلى غيره ؟ أي منطق هذا ؟! إنه منطق السلاطين ، الذين يريدون خضوع الشعوب لهم ، وركوعها تحت إقدامهم أو الإبادة والعذاب والدمار.

وفي النهاية أحس ينف أنه ورط نفسه ، وأدخلها مدخلا صعبا ، فتظاهر بالندم ، وأراد التراجع ، فطلب من الشيخ : (المقام وترك الانتقال) مع أن قرائن الأحوال مؤذنة بعدم الأمانة منه ، وشواهد الأدلة ناطقة بذلك ، فاعتذر إليه الشيخ وأصرّ على الهجرة.

الهجرة ؟! :

أية هجرة ؟ ألم يقل الرسول (ﷺ) : (لا هجرة بعد الفتح) أليس المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ؟ لقد أقدم الشيخ على الهجرة لقول الرسول : (لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار) وقوله : (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) قال الشيخ المتفق على علمه وصلاحه عز الدين بن عبد السلام : (الهجرة تجب في آخر الزمان كما تجب في أول الإسلام) ولذا فالهجرة واجبة على المسلم من دار الحرب إلى دار الإسلام لا يجوز تركها إلا لعذر شرعي ، مثل عدم وجود دار إسلام أو عدم وجود حيلة أو سبيل ، أو البقاء بغية

الإصلاح أو الهداية.

كمـا يجـوز للمـسلم أن يهـاجر مـن دار الكفـر أو دار الحـرب إلـى دار أخـرى لا تكون محاربة للمسلمين ، أو توفر قدرا ما من حريـة العبـادة والدعوة إلى الله ، ولنـا في صحابة النبي الأكرم القدوة الحسنة ، فقد هـاجروا من مكـة إلى الحبشة وهـي ليست دار إسلام ، بل كانت فقط دار نصرة أو منعة على الأقل ، إذ رفض حاكمها تسليم المهاجرين إلى وفد قريش الذي جاء يطلبهم.

ولو كانت الحبشة ـ آنذاك ـ دار إسلام ، أو تمكن المسلمون مـن تحويلها إلـى دار إسلام لما تركوها إلى المدينة التي تحولت من وعد وبيعة بـأن تكون دار نـصرة للنبي الهادي وصحبه إلى دار إسلام ، إلى أن أصبحت نواة للدولة الإسلامية الكبرى.

على أية حال ، هاجرت الجماعة ومعهـا قائدها إلى قريـة (غُدُ) علـى أطـراف الـصحراء ، هنـاك فـي مملكـة (كـبّ) المجـاورة ، وكـان عـددهم خمـسة آلاف ، يقـول محمد بللو : (كتب إليّ الوالد أن أقدم إلينا بما قدرت من العون على الهجرة ، فإنـا ـ إن شاء الله ـ على جناح الهجرة ، فسرت إلى (كبّ) فبثثت الوثـائق ، ونـاديت الجمـوع ، فسرت حتى دخلت دُغَل ، ووجدتهم في الهجرة ، فهاجرنا من جميع بلادهم سالمين ، فنزلنا بـ (غد) فجعل المنتسبون إلى الشيخ من أهل الأطراف يهـاجرون إليه أرسـالا لشهرين ، ثم حجزوا الناس عن الهجرة في المحرم بـأمر الأمير ، فجعلوا يقطعون على المهاجرين الطرق ، ويأخذون أموالهم ، فلم نـزل هكذا ، يلتحق بنـا طائفـة من عيـالهم وأمـوالهم ، وطائفـة بعيـالهم دون أمـوالهم ، وطائفـة بأنفـسهم دون عيـالهم وأموالهم).

ولما رأى السلطان أن النـاس لا ينتهون عن الهجرة كتب إلـى الشيخ يلـتمس منـه الرجـوع إلى قريته دغل ، وعفـا الله عمـا سلـف ، وقابـل ابن فـودي ذلك بصـدر رحب ، إلا أنـه اشترط على الأمير :

١- أن يتوب ويخلص لدين الله.

٢- أن يتفق هو المسلمون على دين واحد.

٣- أن يبسط القسط والعدل.

٤- أن يرد ما سلب من الجماعة ، وأن يطلق سراح الأسرى.

وسار البريد حاملا رد الشيخ ، وشروطه أو الضمانات التي طلبها قبل الرجوع إلى قريته ، فلما وصل الكتاب وقرئ على السلطان الذي أحضر جميع الوزراء - جعل يَسُبّ الشيخ والجماعة ، ويهدد ويتوعد ، واستفتى علمائه في الأمر فقـالوا لـه : (أنت على حق والشيخ وجماعته على الضلال) فكـانوا كما قالت علماء اليهود حين سألهم المشركون : من أهدى سبيلا يا معشر أهل الكتاب ، نحن أم محمد ؟ قال ابن صوريا : اعرضوا علينا دينكم ، قالوا نحن ننحر الكومـاء [1] ، ونسقي الحجيج ، ونفك العُنَاة ونحفظ بيت ربنا ، ونعبد ما يعبد آباؤنـا ، ونصل الأرحام ، فقال : وما دين محمد ؟ قالوا : صنبور [2] قطع أرحامنا ، واتبّعه سراق الحجيج ، بنو غفار ، قال : لأنتم خير منه ، وأهدى سبيلا ، فأنزل الله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ۞ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ۞ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ۞ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ

(١) الناقة الضخمة السنام.
(٢) أبتر لا ولد له ، ولا أخ فإذا مات انقطع ذكره.

آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً) [1].

ويقال بأن من ترجم للسلطان كتاب الشيخ زوّر وحرّف كما شاء ، وذكر أمورا لا تطابق الحال ، كل ذلك إغراء للأمير على القضاء على ابن فودي وجماعته ، وذكر أمورا لا تطابق الحال ، كل ذلك إغراء للأمير على القضاء على ابن فودي وجماعته ، ووافقه على ما زَخرف واخترع وزور من حضر من علماء السوء.

ووقع ينف في شَرَك علمائه وخائنيه المخادعين ، فقال لرسول الشيخ : (أنفذ ولا أجد لك دليلا ، وإذا بلغك الله إلى الشيخ فأخبره بأني على التهيؤ والجهاز في المسير ، فليتأهب للقائي) وخرج الرسول هائما على وجهه ، لا يدري أين يتوجه ، لا يجد من يودعه ، ولا معرفة له بالطرق ، ورجال الأمير يقتلون كل من يرون من الفلانيين ـ أي الذين ينتمون إلى قبيلة ابن فودي ـ فسار إلى الشمال حتى عثر على دليل سلك به إلى مكان آمن ، ثم تلطف واحتال حتى وصل الشيخ فأخبره بجميع ما كان [2] ، وهو ما يعني إعلان الحرب.

البيعة :

لم يبق للجماعة ملاذ أو ملجأ في ملوك البلاد لتضافرهم على عداوتهم ، وتعاقدهم على ذلك يريدون استئصال الجماعة من جذورها ، وهنا اجتمع القوم وتشاوروا في أمرهم ، ورأوا أنه لا يتأتى للمسلمين أن يكونوا هملا من غير أمير ، فبايعوا الشيخ على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، وبايع هو على الكتاب والسنة [3] وكان ذلك عام ١٢١٨هـ ـ ١٨٠٤م.

(١) النساء ، الآيات ٥١ ـ ٥٤.
(٢) السابق.
(٣) السابق ص٩٦.

وكـان أول مـن بايعـه أخـوه عبـد الله ، ثـم ابنـه محمـد بللـو ، ثـم الـوزير عمـر الكموني ، ثم بايعتـه الجمـاهير ، وبهذا أشرقت شمس الخلافـة الإسـلامية فـي غرب إفريقية ، والتي عرفت في التاريخ باسم خلافة سوكوتو نسبة على عاصمتها ، والتي تقع الآن في شمال غرب نيجيريـا ، كمـا عرفت أيضا باسم الإمبراطوريـة الفلانيـة ، نسبة إلى الشيخ عثمان الفلانـي ، وقد أسميناها الخلافـة الراشدة ، لأنهـا كانـت علـى منهاج النبوة ، كما سيتضح في موضعه.

ويـشهد فجـر القـرن التاسـع عشر مـيلاد دولـة إسلامية عظيمـة ، كتـب عنهـا الغرب كثيرا بلغاتهم ، وبقيت لغة القرآن خلوا من أيـة دراسـة مستقلة عنهـا ، وهـو أمر بالغ الخطورة ، ولهذا حاولت ، وأدعو الله أن يوفق ويهدي.

أما رئيس هذه الدولة فهو أمير المؤمنين عثمان بن فودي الفلاني ، وهو ثاني رجل يلقب بهذا اللقب بعد أمير المؤمنين أسكيا محمد ، وبدأ الشيخ في ممارسة مهام منـصبه الجديـد فأختـار أخـاه عبـد الله وزيـره الأول ، وصـديقه عمـر الكمـوني وزيـره الثـاني ، وصـديقه محمـد ثنبـو بـن عبـد الـرحمن إمامـا فـي الـصلاة ، وقاضـيا فـي الخصومات ، أما منصب القيادة العامة للجيوش فكان من نصيب محمد بن الحسن.

وبهذا تتحول الجماعة المسلمة إلى دولـة كاملـة الأركـان ، قيادة علـى رأسـها أميـر المؤمنين ، وجيوش معدة مستعدة ، وأرض - أو وطـن - وهـي قريـة غُدُ التـي تحـولت إلى إمبراطوريـة واسعة ، ثم الشـعب ، كل هذا في تلك العصـور التي يسميها البعض بعصور الانحطاط.

وإذا قامـت دولـة إسـلاميـة فـإن المهمـة الأولى لهـا ، لـيس الرخـاء ، أو الأمـن

والاستقرار ، وإنما الجهاد ، وقد وعت القيادة الجديدة هذه الحقيقة تماما ، فقد تمت البيعة ليلة الخميس ، وفي الصباح عقدت الرايات ، وبدأت الجيوش تستعد للقاء ينف.

معركة الفرقان ونتائجها :

رأينا أن الجماعة لم تضيع وقتا ، بل عقدت رايات الجهاد ، وبدأ حفر خندق حول يثربهم (غدُ) اقتداء بالنبي الأكرم ، وكانوا يتمثلون بما أنشده الصحابة عند حفر خندق الأحزاب :

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلـن سكينـة علينـا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينـا

وأخذت الجماعة تتحول من الدفاع إلى الهجوم ، فتشن الغارات على عدوها وتكبده الخسائر الفادحة ، وأخذ جيش الجماعة يقوى عددا وعدة بانضمام أعداد كبيرة من الفلانيين حتى أصبح خطرا كبيرا على أمير غوبر الذي راسل أمراء الهوسا محذرا إياهم من الخطر الداهم ، فقام كل منهم بما استطاع من إيذاء وحرب لمن يوالي الشيخ من الفلانيين خاصة ، كما التمس من الأمراء أن يمدّوه بجيوش تمكنه من القضاء على ابن فودي.

وقد استمرت الغارات بين الفريقين شهورا حتى وصلت الإمدادات المطلوبة ، فسار ينف على رأس جيش جرار قوامه آلاف الفرسان ، غير الرجالة ، أما جيش الجماعة فلم يزد عن عشرين فارسا فقط ، والباقي راجلون ، وتولى قيادة الجيش عبد الله ابن فودي ، ودارت معركة ضارية ، ثبت فيها المسلمون ، فولى ينف هاربا ،

واستولت الجماعة على غنائم كثيرة.

وانتشر خبر هزيمة الأمير ، وأسقط في يد من والاه من الأمراء ولكن بعض الأمراء الذين يبغضون ينف أرسلوا بتهانيهم إلى أمير المؤمنين الجديد.

وكانت هذه المعركة - المعروفة في التاريخ بمعركة كُتُو - بمثابة معركة بدر التي خاضها الرسول وأصحابه - رضوان الله عليهم - والتي أثبتت للقوى المعادية أن المسلمين ليسوا عددا من المستضعفين ، كما كان قبل الهجرة ، بل أصبحوا دولة محاربة مجاهدة تدافع عن نفسها ، وتقف على قدم المساواة - عسكريا - مع أعدائهم ، إن لم تتفوق عليهم ، وهكذا كانت هذه المعركة كما أسميناها ، معركة الفرقان ، إذ فرقت بين حالين وعهدين ، أي قبل الهجرة وبعدها.

وكان لابد من تدعيم الانتصار العسكري بمراسلة أمراء الهوسا ، وبخاصة الذين أمدّوا أمير غوبر بالجيوش ، توضيحا لموقف المسلمين ، وإزالة سوء التفاهم الذي أوجده ينف بين الأمراء والجماعة ، ولذا قام أمير المؤمنين بالكتابة إليهم متناولا النقاط الآتية :

١- دعاهم إلى أن يخلصوا لله دينهم ، وأن يكفوا عن كل ما يخالف الشرع.
٢- إنه يسعى لإقامة السنة وإخماد البدعة ما دام حيا.
٣- دعاهم إلى مساندة الإسلام ، ومحاربة أمير غوبر ، وحذرهم من العاقبة الوخيمة لكل من ينحاز إليه.

وكان رد الفعل متفاوتا ، فقد رحب أمير زقزق بما كُتب إليه ، أما أمير كشنة فقد مزق الكتاب عقب تلاوته عليه ، وأخذ يتوعد ابن فودي ويهدد ، فكان أول من

مزق الله ملكه ، في حين وقع الخطاب من أمير كَنْو موقعا حسنا ، إلا أنه لم يلبث أن نكص على عقبيه ، وانحاز إلى ينف ، وأخذ يضيق الخناق على من في مملكته من جامعة المسلمين.

نهاية الطاغية :

منذ انتصار القوات الإسلامية في معركة كُنْو أخذ ابن فودي في إعداد الخطط الحربية التي تكفل له القضاء السريع على عدوه فأجرى المشاورات مع مجلسه الحربي المكون من أخيه عبد الله ، وابنه محمد بللو ، وقائد الجيش على جيد ـ الذي تولى القيادة بعد استشهاد محمد الحسن ـ لنقل مركز القيادة من مهجرهم (غد) إلى قرية قريبة من أرض العدو ، هي (مغبْش).

وبدأت الجيوش الإسلامية تقترب أكثر فأكثر من القاضاوا العاصمة حتى دخلت سكتو ١٨٠٤م وبدأ الزحف نحو العاصمة ، إلا أن ينف سخر من هذا الزحف الخطير ثقة منه في مناعة حاضرته.

إلا أن أحد عمال ينف الواعين رأى سمو الإسلام ، وألا سبيل إلا الملاينة ، فحاول أن يقوم بدور المصلح بين الفريقين ، وأرسل إلى أمير المؤمنين أن أمير غوبر قد ندم ، وعزم أن يقبل من ابن فودي كل مطالبه ، وطلب الشيخ عثمان أن يَحْضُر ينف بنفسه ليتعبد بذلك ، ولكن الأمير استشار وزراء فأشاروا عليه بإرسال نواب عنه فرفض الشيخ ، وفشلت محاولة حقن الدماء ، وترك الأمر للسيف.

وبما أن الجيوش الإسلامية أصبحت على مقربة من العاصمة فقد ضرب الحصار الأول عليها في ديسمبر سنة ١٨٠٤م ، تحت قيادة عبد الله بن فودي ، ثم

حوصرت مرة أخرى تحت قيادة محمد بللو وعلي جيد سنة ١٨٠٦م ، وفي سنة ١٨٠٨ استطاع المسلمون اقتحام المدينة المحصنة ، وقتل ينف وعدد كبير من رجاله ، وقد أدى ذلك إلى إلقاء الرعب والذعر في قلوب أمراء الهوسا جميعا ، فقد أيقنوا أن ذات المصير ينتظرهم.

وعلى أية حال فإن القوات الإسلامية استطاعت خلال السنوات (١٨٠٨- ١٨٠٩م) أن تستولي على جميع ممالك الهوسا ، وما يقع جنوبها ، كمملكة (نفي) كما استولت على مساحات شاسعة كانت تابعة لمملكة (أويو) ومملكة (الجكن) وعدة مقاطعات يقع بعضها الآن في النيجر ، والآخر في الكاميرون.

وقد قسم ابن فودي الإمبراطورية التي أسسها إلى قسمين ، الغربي تحت يد أخيه عبد الله ، والشرق تحت يد ابنه محمد بللو ، وانصرف هو للتعليم والتأليف حتى توفي سنة ١٨١٧م بالعاصمة سكتو ، ودفن بها ، ولا يزال قبره مزارا للناس من جميع أنحاء نيجيريا.

وهكذا خاضت الجماعة المسلمة قرابة الأربعين [١] معركة أن يسقط الطاغية ينف بدأت معركة كُتُو التي أنشد فيها الشيخ عبد الله قصيدة جاء فيها :

بدأت ببسم الله ، والشكر يتبعه	على قمع كفار علينا تجمعوا
ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من	بلادهم ، والله في الفضل أوسع
طوارق من غوبر، وينف سفيهُهُم	يخربهم والله يرى ويسمع
فقلت وفألي مثل أمر محقق	لديّ ، سينفي ينف بالذل يرجع
إلى أن تراعينا وزاد اقترابنا	رموا فرميناهم فولوا وأقشعوا

(١) انظر تفاصيل هذه المعارك في الملاحق.

فلم يـك إلا أن رأيـت جهاهــم [1]	فقد انكشفت عن شمس الإسلام تلمع
ينصـر الـذي نصَر النبـي على العدى	يبـــدر م المـلائـــك [2] يجمـــع
فيـا أمـة الإسلام جدوا وجـاهدوا	ولا تهنـوا فالصبـر للنـصر مرجع
فقتـلاكم في جنـــة الخلـد دائـما	وراجعكـم بالعــز والمـال يرجـع
فقـد تمّ وعـد الله في نصـر دينه	ولـم يبـق إلا شـكـره والتضـرع

وكما أصيب المسلمون في أحد أصيبت الجماعة في معركة منى ، فقتل كثير من القراء والصالحين ، وكادت جيوش ينف تشق طريقها نحو (غد) كما فعل المشركون بعد هزيمة المسلمين ، لولا أن الجيش الإسلامي استطاع رد رجال ينف على أعقابهم.

وكما استطاع النبي الأكرم وصحابته دخول مكة ، رأس الكفر آن ذاك كذلك استطاعت الجيوش الإسلامية بعد معارك طاحنة الاستيلاء على القاضوا عاصمة الطاغية ، لتستقر قواعد أول خلافة إسلامية في غرب إفريقية.

موجبات الجهاد :

إنه يحق للمرء أن يتساءل لماذا تسفك الدماء ، هذه الدماء الغزيرة ، ولماذا لا يسود السلام والوئام بين الشعب والحاكم ؟ لماذا تطارد الجماعة المسلمة وتصبح عند السلطان العدو اللدود كما فعل نافاتا وينف ومن لفّ لفهما من أمراء كل مصر وأوان ، وصدق النبي الكريم (ﷺ) قال : (ما أخاف على أمتى من الدجال ، ولكن الأئمة المضلين ، إن أطاعوهم فتنوهم ، وإن عصوهم عذبوهم) صدقت يا رسول الله

(١) الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه.
(٢) من الملائك.

إن أطاع المسلمون هؤلاء الطغاة فتنوهم في دينهم ، وإن عصوهم عذبوهم ، ولا حل مع هؤلاء غير السيف والجهاد وإراقة الدماء.

أما موجبات الجهاد فهي كما ذكرها محمد بللو :

١- الدفع عن الأهل والنفس والدين ضد ينف ومن والاه ، قال تعالى : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) وقال سبط الرسول الأكرم (ﷺ) (من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحُرَم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ، ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله).

٢- محاولة نصر الحق على الباطل والسعي في مصالح المسلمين ، إذ جهاد الكفار لكل من قدر واجب - بعد كمال الشروط - وكذا المرتدون.

يقول محمد بللو : (إن ملوك بلادنا هذه وجنودهم وعلماء السوء من هذا القبيل - الكفار المرتدين - لأنهم وإن كانوا يدّعون لأنفسهم الإسلام ، فهم مقترنون بما لا يصدر إلا من كافر ، كجهل في العقيدة والذبح للأشجار والأحجار ، وإنكار الحق المبين ، وبعضهم يصرح على نفسه بالكفر ، ولا يدعي الإسلام ، وبعضهم يأخذ بالعبادة ، وينكر الأحكام ، وغير ذلك.

ويقول : (والحاصل أن أحوال ملوك بلادنا هذه كأحوال (سني علي) من ملوك صنغاي حسبما ذكر عنه أسكيا محمد كما مر فأجابه المغيلي بأن ما ذكر عنه عَلَمٌ على كفره بلا شك ، وكذلك كل من عمل بمثل عمله ، وأنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، فالجهاد فيهم وفي أنصارهم ، وأخذ السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه ، وإذا فهمت

هذا علمت أن الجهاد وإن كان دفعا ففيه نصر الحق على الباطل ، والسعي في المصلحة ، وفك رقاب المؤمنين من أسر الكفرة ، ولا يخفى أن الجهاد واجب في هذه البلاد لمن قدر ولو لم يكن دفع).

وينقل عن الشيخ مختار الكنتي في كتابه الجرعة الصافية والنصيحة الكافية (بلد السودان بلد غلب على أكثر أهلها الكفر ، ومن فيها المسلمين تحت قهر الكفرة ، قد اتخذوهم أمراء ، والناس يعملون بعمل أميرهم غالبا ، وقد غلب عليهم ظلمات الجهل والهوى) ويعلق محمد بللو بقوله : (وهذا الذي ذكره سيدي مختار الكنتي هو المعروف في البلاد السودانية هذه قبل الجهاد).

صدى الخلافة :

هل يمكن أن تحدث كل هذه الوقائع والأحداث دون أن يحس بها العالم الإسلامي ؟ وهل يمكن أن تدور هذه المعارك الطاحنة دون صدى لها وخصوصا في شمال أفريقية ؟ صحيح أن المسلمين كانوا يعيشون فيما يسمى بعصور الانحطاط وفي مواجهة الهجمة الاستكبارية المستعمرة ، ولكن هذا لا يمنع أن يحس المسلمون بنبض تلك الأحداث التي وقعت في سودانهم الغربي.

ولقد سبق أن السودان الغربي كان له علاقات وثيقة مع العالم الإسلامي تلك العلاقات التي تمتد جذورها في التاريخ ، ولقد جاء الإسلام ليوثق الصلات والعلاقات.

ونضيف أن الدولة العثمانية منحت السيد محمد شتا ـ أحد أعيان مسلمي لاجوس ـ البكوية سنة ١٨٩٣م ، وذلك بمناسبة افتتاح مسجده الذي بناه على نفقته الخاصة ، وأحضر له مهندسا تركيا ليكون البناء على الشكل الإسلامي التركي ، ما يدل على أن

الدولة العلية كانت على صلة بتلك البلاد على عهد الخلافة الفودية ، وإن كان هذا الموضوع بحاجة إلى دراسة خاصة.

على أية حال لقد أحس المسلمون بما حدث وهو ما نجده في شيئين :

١ ـ كانت هناك مراسلات بين ملاي أحمد سلطان المغرب وبين سلطان أهير ، ثم بين الأول وبين ابن فودي كما يتضح في هاتين الرسالتين :

١ ـ الرسالة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله وبالله ، وما توفيقي إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّـهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّـهِ) الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام ، وأزكى الصلاة والسلام على سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب وعجم ، وعلى آله وصحبه ، وكل من انتصر به.

ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلق الأسد في آجامها تجم

وبعد السلام التام ، المحفوف بمزيد من الإكرام ، على أخينا في الله سلالة السلاطين والخلفاء الأساطين ، سلطان أهير ، السلطان السيد محمد الباقر بن السلطان محمد العدال.

فلتعلم أنه أتى حضرتنا العلية باليد صحبة هديتك الدالةِ على حسن طويتك كتاب منك كريم ، فتلقيناه بالتبجيل والتكريم ، وفتحناه فإذا هو مخبرنا عن حسن حالكم وما فتح الله به عليكم من بلوغ آمالكم ، ومخبر عن حال الفقيه النبيه الصالح

السيد عثمان بن محمد بن فودي ، صالح ، الذي أقام ببلادكم منار الإسلام ، وأحيا سنة النبي (ﷺ) وأخمد البدعة والضلالة ، وهدم أركان الجهالة ، وشنّ الغارات على بلاد الكفرة ، حتى كسر شوكتهم ، وأضعف مملكتهم ، وقهر أهل الطغيان والفساد ، وعلا به الإيمان وساد ، وزاد في شرح حاله عندنا حامل كتابكم إلينا ، الشيخ عثمان محمد بن منصور ، بلسان طليق ، غير ذي عي أو قصور ، وأطال لسانه بالثناء عليكم وعلى وزيركم ، حتى خلنا أن العدل عليكم مقصور ، فحمدنا لكم الله ، الذي يتوكل عليه المتوكلون ، وبه نستعين ، وهو سبحانه القوي المعين ، ونسأله تعالى أن يُسْبِل عليكم مِنَنه ومنَحَه ، ويديم على أعاديكم نِقمَهُ ومحنه وحسن طويته ، وتصديق فعله ، وقد ذلل قطوفه لناظره تذليلا.

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومما زاد غبطة فيه وميلا إليه ، ثناؤكم عليه الدال على حسن سيرتكم وخلوص سريرتكم ، وأن القصد وجه الله ، والعمل بقوله جل وعلا : (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى) الذي هو معتمد المؤمنين في التمسك بحبل الله الأقوى.

وها نحن ـ إن شاء الله ـ لا ننساكم من الدعاء في الخلوات والجلوات ، وفي مظان الإجابة وأدبار الصلوات ، فلا تنسونا أنتم من ذلك أيضا ، وفي أوقات الإجابة وحالة الرجوع إلى الله والإنابة ، وأن يعيننا على ما كلفنا به من أمور الرعية ، وإن الأمير أحوج إلى صالح الأدعية ، سيما في هذا الزمان الذي انتشرت فيه المفاسد وطار به صيت كل فاسد ، ولم يوجد من يبذل للأمير النصح ولو رجلا واحدا.

وإذا صفا لك من زمانك واحد فاشدد عليه وأين ذاك الواحد

وقد صفا لك في هذا القائم ـ فيا ذكرت لنا ـ وكتبت به إلينا فاشدد بيدك عليه ، وأدم إحسانك إليه ، ختم الله لنا ولك بالخاتمة الحسنى ، وجعلنا جميعا من أهل المقر الأسني ، بجاه النبي وعترته ، وكل من هو ناصر لملته ، ويصلك الطابع الذي بعثت عليه ، على الوصف الذي أشرت في كتابك إليه ، صحبة رسولكم الشيخ عثمان ، الذي وصفتموهم بغاية الوصف والأمان ، ولم نجد بدا من إسعافك لما طلبت توفية بحق مالك في جانبنا من المحبة التي عليها طبعت ، فنسأل الله أن يلهمنا ما يبيض محيانا ومحياك ، وأن يغفر لنا من فضله ما جنيناه ، ويجعل خير أيامنا وأسعدها يوم نلقاه ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وبتاريخ أواسط جمادى الآخرة عام ١٢٢٥هـ.

٢ـ الرسالة الثانية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلاة على سيدنا محمد المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه ، الذين انتهجوا نهجه القويم.

إلى السيد الذي فشا في أقطار السودان عدله ، وانتشر في الآفاق المغربية ديانته وفضله ، العلامة النبيه ، العديم في زمانه الشبيه ذي النورين ، العلم والعمل اللذين هنا منتهى الأمل ، السيد عثمان بن صالح القلاني ، نفع الله بعلومه القاصي والداني وسلام منا عليه ، ما أشد شوقنا إليه ، ورحمة من الله تغشاه ، حتى لا يخشى إلا الله (وَاللَّهُ أَحَقُّ أن تَخْشَاهُ).

وبعد فقد بلغنا من الثناء عليك ، والتعريف بأحوالك وأفعالك وأقوالك ما أوجب محبتنا إليك وتسلينا عليك ، وذلك على لسان سلطان ناحيتكم ، وأمير الطوائف الإسلامية بساحتكم المقرّ في كتابه بفضلك وأنك ناصح لله ، وعليه مدار محبتنا

للسلطان محمد الباقر بن محمد العدال فإنه أخبرنا بما قمت به من الأمر الواجب من الأمر المعروف والنهي عن المنكر الذي له نصب الرسول والأمير والوزير والحاجب ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وترادفت عليك وفود الإسلام أفواجا ، وصرت بلطف شمائلك إنسان العين من عين الإنسان : والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ، ما لم يروا عنده آثار إحسان.

وهذا من أعظم منح الله وأتم النعم كما يشهد الحديث : (لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْر النعم) فالله تعالى يجازيكم عن الإسلام خيرا ويقيكم ضيرا ويديم دولتكم محفوفة محفوظة ، وبعين العناية ملحوظة ، وفي حصن الله الحريز آمنة ، قال الله : (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) والسلام معاد على جنابكم الذي صار للإسلام بخلوص نصيحتكم كالبيت المعمور.

الثاني عشر

من جمادى الآخرة عام ١٢٢٥م.

٢- شارك المهدي السنوسي وأنصار المهدي في المعركة التي استشهد فيها الأمير طاهر آخر الخلفاء الفوديين.

ويفهم مما سبق أن صدى الخلافة لم يتجاوز الشمال ، حيث جاءت رسائل سلطان المغرب ملاي أحمد ، ثم الشرق حيث شارك أنصار المهدي في معارك الخلافة مع الإنجليز بالتعاون مع المهدي السنوسي ، ولكن أبحاثا أخرى يمكن أن تكشف عن صدى هذه الخلافة الراشدة في العالم الإسلامي.

٢ـ الحــرب مــع بـرنــو

بعد هلاك ينف وسقوط عاصمته أسرع أتباع الشيخ المنتشرون في بلاد الهوسا إلى أمير المؤمنين الذي وزع عليهم ألوية الجهاد ـ ذات اللون الأبيض ـ فتوجه كل منهم إلى منطقة عمله التي حددها له ، ولا يكاد حامل اللواء يصل إلى منطقته حتى ينضم إليه غيره من الجماعة ، ومن ثم تأسست جيوش قوية من هؤلاء القوم ، انبثت في كل ناحية تحارب أعداء الله وأعداءهم.

وفي برنو قام السلطان بما يلزم من اضطهاد رجال الجماعة والتضييق عليهم فتجمعوا في مكان واحد للدفاع عن أنفسهم ، فهاجمهم السلطان لكنهم ردوه على أعقابه ، ثم رأوا الهجرة للمشاركة في الجهاد مع إخوانهم ، إلا أن الأمير ضاق ذرعا بهجرتهم فكتب إلى ابن فودي يطلب منه أن يأمرهم بالبقاء في بلاده لأنها دار إسلام ، ليست بدار حرب زاعما أنه أمير المؤمنين ، فأمر الرجل ابنه محمد بللو بالرد عليه ، فبين له السبب فيما وقع بينه وبين الجماعة في برنو من الحرب والهجرة ، كما بين له أيضا أن أمراء الهوسا كفار ، وأن مظاهرتهم من مسلم ارتداد فليحذر أن يغروه بغرورهم ، فيدخل في أمورهم ، وطلبت ـ أي محمد بللو ـ منه أن ينصر الجماعة عليهم ، وكتبت إلى الفلانين ما يقتضي الموافقة بينهم وبين أمير برنو ، وحذرتهم من الاعتداء في بلده [(١)].

هذا موقف ابن فودي من أمير برنو ، فماذا كان رد الأمير ؟ لقد هم بقتل الشيخ الحاج آدم الذي حمل إليه جواب ابن فودي قائلا له : (إنك فلاني ذهبت إلى

(١) إنفاق الميسور ، ص١٥١.

إخوانك ، ولم آمن أن حملت منهم السحر إلينا) فشفع لـه أحد المقربين إلـى الأمير ، ثم هاجر الحاج آدم من برنو.

ولم يكتف أمير برنو بهذا بل أجاب أمراء دورا وكنو وكشنة إلى ما طلبوه من عون ونجدة لمحاربة الجماعة برغم موقفها السابق منه - بتهدئة الفلانيين في بلده - وتوضيح الأمر له ، وتحذيره من الوقوف إلى جانب أمراء الهوسا لأنهم كفار ، وبأن من يواليهم من المسلمين مرتد ، برغم هذا كله وقف الأمير إلى جانب الأمراء الوثنيين ضد الجماعة المسلمة ، يقول محمد بللو : (كما هو معروف أن الملوك ترى على أنفسها إنجاد الملوك على من غلبهم [1]) ولذا لا يعجب المرء إذا رأى الحكام جميعا على اختلاف ولاءاتهم يجمعون على ما يسمى بالشرعية ، أي الشرعية للمتحكم في رقاب الناس ، مهما كان بُغض الشعب له ولنظام حكمه ، فإذا تعرضت الشرعية أو نظام الحكم أو رأس الحكم لأي خطر من جانب الشعوب هب الملوك والحكام جميعا هبة رجل واحد دفاعا عن أخيهم في الحكم والملك ، ولو خاضت في بحار من دماء الشعوب ، أو أصبحت البلاد صعيدا زلقا ، وتبقى الأصنام الشرعية متسلطة على رقاب الخلق حتى يأتيهم ملك الموت ، أو يغلبهم غالب من بني جلدتهم ، نعم إن الملوك ترى على أنفسها إنجاد الملوك على من غلبهم.

ونعود إلى أمير برنو الذي يدعي أنه أمير المؤمنين ثم يصدر قراره إلى اثنين من ولاة مقاطعاته الغربية المتاخمة لبلاد الهوسا بإمداد الأمراء المستنجدين به بالجيوش ، ولما بلغ الخبر جنود ابن فودي الذين وجههم إلى حدود برنو قاموا برد فعل عنيف ، فجهزوا جيشين ، سار أحدهم غربا ليحارب غلاديم - أحد واليي برنو -

(١) السابق.

وأخذه على غره ، فهزمه هزيمـة منكرة ، وطرده من عاصمته نْغُرو ، وبذا أصبح الطريق نحو برنو مفتوحا أمام الجيش الثاني الذي سار جنوبا نحوها ، واستطاع أن يحتلها بعد معركة عنيفة تحت قيادة الماهر المختار ، أما سلطان برنو فقد هرب إلى كانم حيث طلب مساعدة الشيخ محمد الأمين الكانمي ، وبقي الماهر المختار شهورا حتى غلبه الكانمي وأعاد السلطان أحمد بن علي إلى عاصمته.

وما لبث السلطان أن توفي فخلفه ابنه دُونَمة ، ولكن جيوش الخلافة ما لبثت أن أعادت الكرة مرة أخرى بقيادة إبراهيم زكي القلب ليخرج السلطان مرة أخرى من عاصمته ، ولكن الكانمي يعيده إليها أيضا.

<u>محمد الأمين الكانمي :</u>

ولد بفزان من أب عربي ، وأم كانمية ، حج وأقام مدة بين المدينة ومصر وفاس ، ثم عاد إلى وطنه كانم ، ومعه كتب وطلاب كثيرون ، ولم يمض وقت طويل حتى ذاع صيته في البلاد كلها ، لعلمه وورعه ، وأصبح له نفوذ كبير لدى الخاصة والعامة ، فقد استطاع إخراج الفلانيين من عاصمته برنو مرتين ـ كما سبق ـ بفضل شجاعته الفائقة وبأسه الشديد ، كما ساعد السلطان دونمه في سحق قبائل باغَرْم التي ثارت ضده بعد معركة طويلة دامية.

وفي سنة ١٨١٤م بنى دارا في كوكاوا التي صارت مقره ، وفي حين أقام السلطان دونمه بمدينة مَنْغِنو هاجرا العاصمة غسَرْكَمو لكثرة تعرضها لغارات الفلانيين.

ومن مقره هذا أخذ الكانمي يراسل ابن فودي منددا بالجهاد الذي قام به هو

وأتباعه ، ويدافع عن قضية برنو ، ويرد على أمير المؤمنين الذي كان يكتب إليه أو يأمر أخاه عبد الله أو ابنه محمد بللو بالتمرد على الكانمي ، وتوضيحا لموقف الخلافة ورجالها من برنو ، وسبب قتالها وحربها.

وخلاصة رأى الخلافة أن المسلم الذي يوالي الكفار ويظاهرهم على المسلمين هو مرتد يجب أن يحارب ، وقد وقف أمير برنو مع الأمراء الكفار ضد المسلمين ، وسير جيوشه لحربهم ، فلا مناص من حربه ، ليس لأنه كافر بالأصالة ، بل لأنه ارتد حين ظاهر أمراء الهوسا على المسلمين ، أما الكانمي فهو عالم جليل القدر ، لكنه متأول ، فحاله تختلف عن حال الأمير ، كما أوضحت الخلافة رأيها فيما وقع بينها وبين الأمراء ، الطاغية ينف.

ويرى الكانمي أن أهل برنو الذين يحاربون الفلانيين ليسوا كفارا برغم ما هم عليه من المعاصي والمفاسد ، وأن ابن فودي رغب عن العلم إلى الملك والرئاسة ، وأنه أي الكانمي يقوم دفاعا عن نفسه ضد غارات مجاوريه من الفلانيين.

على أية حال فإن هذه المراسلات تعتبر ثروة علمية فقهية تدل على قدم راسخ في العلم ، وعلى امتلاك ناصية العربية ، ولذا حرصنا على إثباتها في الملاحق بغية الاستفادة منها.

ولكن هذه المراسلات ـ التي دامت سنوات ـ لم تؤد إلى السلام بين الجارين ، وعندها أدرك الكانمي أنه لابد من السيف ، فأعد جيشا جرارا سنة ١٨٢٦م وسار غربا ـ نحو الخلافة ـ حتى وصل إلى غرْكو ، فأنزلت به هزيمة ساحقة ، ولكنه استطاع أن ينجو بحياته ، وكانت هذه آخر محاولة له ضد القوات الإسلامية ، وفي

سنة ١٨٣٥م توفي الكانمي فخلفه ابنـه عمر الذي أدرك أنـه لا جدوى من الحرب ، فكان أن وفقه الله إلى إبرام الصلح مع الخلافة ، ليسود السلام بين الجارين ، برنو والخلافة.

وبعد أن أمِن السلطان دونمة صاحب برنو جانب الجيوش الإسلامية بموجب الصلح أخذ يفكر في التخلص من عمر بن الكانمي ، فانتهز فرصة غيابه عن مقره فأعلنها حربا سافرة عليه ، وطلب المدد من أمير وداي ، ودارت حرب أهلية بين الفريقين أسفرت عن مقتل دونمة ، وإبادة أسرته كلها ، وفي سنة ١٨٤٦م جلس عمر على عرش برنو ، وتلقب بالشيخ بدلا من لقب مَيْ ، ومعناه السلطان الذي تلقب به الأمراء قبله ، ولا تزال إمارة برنو في أسرة الكانمي حتى الآن.

هذه باختصار قصة الصراع بين برنو وبين الخلافة ، ولنا على هذه القصة الملاحظات الآتية :

١- إن نجدة السلطان أحمد صاحب برنو لإخوانه أمراء الهوسا ربما يكون أمرا منطقيا ، ولأن المعروف - كما قال محمد بللو - أن الملوك ترى على أنفسها إنجاد الملوك على من غلبهم ، ولو أدى إلى بحار من الدماء ، وحول البلاد إلى خراب ، ولكن الشيء غير المنطقي أن يقود الحرب ضد الخلافة عالم درس في المدينة ومصر وفاس ، ولو أنه عاش ليرى دونمة وماذا فعل مع ابنه عمر بعد أن أمن جانب الخلافة ، نقول لو عاش لعرف أنه كان مَعْبَرا لتثبيت عرش دونمة وأبيه ، ولذا حين انتهت مهمة العالم الجليل وابنه كان جزاء سنمار ، وصدقت يا رسول الله : (العلماء أمناء الرسل على عباد الله تعالى ، ما لم يخالطوا السلاطين ، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل ، فاحذروهم واعتزلوهم).

فإذا كانت مخالطـة السلاطين - مجرد المخالطـة - خيانـة للرسل ، ترى مـاذا نسمي المقاتلة حماية للعروش ، وضد من ؟ ضد الخلافة الإسلامية ، وبـرغم مـا فعل الكانمي فإنه كان في نظر الخلافة عالما متأولا.

ولكن لمـاذا وقـف الكـانمي هذا الموقـف ؟ إنـه سوء الفهم الذي يقـع ضـحيته القادة الرساليون [1] ، لقد سئل الإمام المودودي ، عليه من الله سحائب الرحمـة : مـا هي أهم مشكلاتكم ؟ قال : سوء الفهم لنا من جانب المسلمين.

فيا علماء المسلمين لا تخونـوا الرسل بمخالطـة السلاطين ، ولا تـساهموا فـي تثبيت عروش الظالمين ، ولا تكونوا معْبرا لهم ، فإنكم إن حققتم أهدافهم فـإن جـزاء سنمار بانتظاركم.

والـشيء بالـشيء يـذكر ، فلنـسأل التـاريخ كيـف كافـأ محمـد علـي - جـد الملـك فاروق آخر الملوك في أرض الكنانـة - شيخ الأزهر الشيخ الشرقاوي ، وعمـر مكـرم وغيره من الزعماء ؟

ماذا كان جزاء الشعب الذي وقـف بجانبـه حتـى أصبح واليـا علـى مصـر ؟ إنـه جزاء سنمار ، أو قل مكافأة السلاطين لمن يساعدهم على ارتقاء العروش أو تثبيتها.

ولنـسأل التـاريخ أخـي المـسلم عن الثـورة الجزائريـة المجاهدة ضد المحتلـين الفرنسيين [2] التي قدمت مليون شهيد من أجل إقامة دولة إسلامية عربية ، مـاذا كان

(١) أي ابن فودي وإخوانه من مؤسسي الخلافة.
(٢) احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م.

جزاء المجاهدين الموحدين حين تسلم العلمانيون السلطة [1] ؟ كان ضرب الحركة الإسلامية المضحية ، ذات المليون شهيد هو الجزاء ، وظل النظام قديمه وجديده محافظا على سنته ، وهو العداء المتواصل للإسلام.

إن هؤلاء الطغاة المستكبرين الذين أخذوا على عاتقهم العداء الكامل والحرب المستعرة لضرب الإسلام ، والقضاء على علمائه ومفكريه وطلائعه ، هؤلاء المجرمون ماذا ننتظر منهم غير ما فعلوا ، بل يجب أن نتوقع منهم أكثر مما حدث ، ولا نلدغ من الجحر كل مرة ، أما المسلمون فلا شك أنهم بحاجة إلى مزيد من الوعي والحذر ، كيلا نلدغ من نفس الجحر ، وفي كل مرة ، علينا باستحضار مواقف الطغاة ، أمثال دونمة ، إلى آخر مسلسل الأعداء الألداء.

وكان أيضا على الثورة الإسلامية في الجزائر أن تتقدم إلى قيادة البلاد ، مهما كلفها الأمر من تضحيات ، فإن البلاد إذا وقعت في قبضة قوى غير إسلامية فإنها تعتبر مهمتها الأولى والأخيرة والأساسية والخطيرة ليست إلا ضرب الحركة الإسلامية ، والتاريخ خير شاهد على هذا.

ومن الجزائر وأرض الكنانة نعود إلى السودان الغربي حيث أمير المؤمنين عثمان بن فودي الذي سلم الدولة بعد استقرار أركانها إلى اثنين من العلماء المفكرين ، القادة المجاهدين هما ابنه محمد بللو ، وأخوه عبد الله ، أصلح من في

---

(١) لاشك أننا بحاجة ماسة إلى التعرف على كيفية سرقة الإسلام من الثورة الجزائرية حتى لا يلدغ المسلمون من جحر واحد في كل مرة ، ولذا أنصح بقراءة كتاب : (مذكرات شاهد القرن ، الطالب) ففيه بعض الخيوط التي يمكن أن تقود إلى إلقاء الضوء على قضيتنا هذه ، مكتفيا هنا باقتباس هاتيك السطور من الكتاب المذكور :
إن الظروف السانحة وضعت العلماء أمناء على مصلحة الشعب ، فسلموا الأمانة لغيرهم لأنهم لم يكونوا في مستواها العقلي ، وسلموها لمن يضعها تحت أقدامه كسلم يصعد عليه للمناصب السياسية.

القوم لمنصب الخلافة.

ويبدو أن الرجل وعى دروس التاريخ فلم يترك زمام القيادة بعد الانتصار إلا للعلماء الرساليين ، ولذا فإن أحدا لم يستطع أن يخطف الثمرة أو يسرقها ، كما حدث لثورات إسلامية عديدة أخرى.

ولا يصح أن يقال إن الحركة الإسلامية لا يليق أن تلهث خلف كرسي الحكم ، لأنها تدعو إلى الله دون غرض دنيوي ، فهذا يؤدي إلى أن يشهر بها أعداؤها ، باتهامها بمحاولة قلب نظام الحكم ، وأن المسلمين إرهابيون دمويون ، ليسوا دعاة إلى الله مخلصين مجاهدين ، وهذا لا يصح أن يقال أو يدور في أذهان الطليعة الإسلامية ، لأنك أيها المجاهد لو لم تتقدم لشغل كرسي القيادة فإن عدوك سيجلس عليه ، ثم الويل الويل لك ولإخوانك منه ، إنه الثبور وعظائم الأمور.

ومن ناحية أخرى فإنك أيها المجاهد ماذا تريد من الحكم ؟ هل تريد المال الوفير ، الفراش اللينة ، الدور والقصور ، النساء وشهوات البطن والفرج ؟؟ أنت لا تريد شيئا من هذا كله ، لأنه ليس إلا حطاما زائلا ، أنت تريد إقامة شرع ربك ، وأن يكون الدين كله لله ، ولذا لا يهم ما يقوله الأعداء ، وماذا تنتظر أن يقولوا فيك أيها المجاهد الرسالي ؟

وإذا كنا نثني على موقف ابن فودي الذي لم يترك لغيره فرصة لسرقة ثورته أو جرّها إلى الانحراف فإن هذا الموقف ليس إلا قبسا من نور النبي الأكرم (ﷺ) حين عرضت عليه قريش كل ما يتمناه امرؤ في هذه الدنيا ، المال حتى يصبح أغنى القوم ، الزواج بأجمل العذارى ، الملك ، لا تقطع قريشا أمرا دون مشورته ، العلاج إن كان

به مس من الجان ، ترى هل فرح محمد ، ورأى أن الثمرة نضجت ودنت ؟ لم يحدث شيء من ذلك على الإطلاق ، ولكن كان الرد الخالد : (والله يا عم ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه).

وهكذا لم يرض محمد بن عبد الله (ﷺ) بكل المغريات التي عرضتها قريش ، معلنا أنه يريد إظهار الدين أو الشهادة ، فهل تقبل الطليعة الإسلامية بعد جهاد طويل وتضحيات جسام بأن تكون حليفا فقط للناكثين بالعهود ، والخائنين للحليف الناصر ؟ أم تراها تصل قمة سعادتها وانتصاراتها بمشاركتها بوزير أو أكثر في حكومة علمانية معادية ، لا ترى لها من عمل غير قمع المسلمين واضطهادهم ؟ ومن المؤسف أن الطليعة ربما تقبل على نفسها أقل مما سبق ، فترضى أن تستغل في مسرحية تسمى بالمعارضة ، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تجد بعض المنتمين إلى الحركة الإسلامية - أو من يحسبون عليها - يرضون لأنفسهم أن يكونوا ذيولا للمعارضة ، مساهمين بذلك في خداع شعوبهم.

أيها المسلم الكيس الفطن ، لقد كان نبيك الأكرم (ﷺ) في مكة ، حيث لا ناصر ولا معين إلا الله ، والموحدون قلة قليلة مستضعفة ، لا مال له ، ولا عدد ، ومع كل هذا رفض أن يكون ملكا على قوم كفار ، ورفض الرئاسة عليهم ، ترى هل تقبل أنت أيها المسلم أن تكون ذيلا للذيول والأذيال ؟ اللهم لا ، اللهم لا ، اللهم لا.

وهاجر محمد بن عبد الله (ﷺ) إلى المدينة ، فكانت الدولة الإسلامية تحت قيادته هو ، لم يترك زمام الأمر مثلا لابن سلول - حيث كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجه - مكتفيا بدور ما يسمى بالمعارضة ، أو مغتبطا سعيدا باشتراكه في الحكم ،

وهكذا فعل ابن فـودي ، بويـع علـى الكتـاب والـسنة ، فكـان أمير المـؤمنين ، وحـين استقرت أركان الدولة وأراد التفرغ للعلم والعبادة كان في خلافته أصلح الصلحاء لهـا ، ابنه وأخوه ، اختيار موفق وموضوعي.

وإن المرء ليرى نفسه فرحا مستبشرا حيث استفادت الحركة الإسلامية سنة ١٩٧٩م مـن دروس التـاريخ ، ففـي قمـة انتـصارها بإسقاط الـشاه لـم يـستطع أحد خداعها أو سرقتها أو استدراجها ، لقد وعت الطليعة المجاهدة كل أسـاليب الاستكبار العالمي ، فهي مسلحة بقيادة العلماء الرساليين الذين لا يستطيع أحد الـضحك عليـهم أو خداعهم ، كما ذكر وزير الدفاع الأمريكي.

بل أن تجربة الحركة الإسلامية مع مصدق وبازرغان وأخيـرا مـع بنـي صـدر قد أعطت للمجاهدين بعدا آخرها مهمـا وضروريا ، وهو أنـه لا يكفـي أن يكون فـي مكـان القيادة أحد الموالين أو المتحالفين معها ، مهما كان إخلاصه ، لأن الدولـة يوم أن تولد تبدأ المؤامرات ضدها على الفور ، من الـداخل والخـارج ، حـروب ، وحـصار اقتصادي وإعلامي ، وكلما خرجت الدولة الإسلامية من معركـة دخلت أخـرى ، وكلمـا نجـت مـن مؤامرة كان غيرها معدا جاهزا للتنفيذ ، وكل هذه المسئوليات لا يقـوى علـى حملهـا إلا علمـاء الـدين الرسـاليون ، أصـحاب الإرادة الـصلبة التـي لا تقهـر ، والبـصيرة النـافـذة الواعيـة الفاهمـة ، أمنـاء الرسل على عباد الله تعالى ، كما ذكر نبينا الأكرم (ﷺ).

نخلص من هذا كله إلـى أن الطليعة الإسلامية حين تنتصر لا ينبغي أن تترك القيـادة لأحـد غيرهـا ثـم عليهـا أن تقدم علمـاء الـدين الرسـاليون فقـط ، فهـم وحـدهم المـستأمنون علينـا ، ولـيس أحـد غيـرهم مهمـا كـان مخلـصا ، وبهـذا تـسلم الأمـة مـن الفصل بين القيادة السياسية والقيادة الدينية ، فيصبح أمير المؤمنين إمام النـاس فـي

الصلاة وفي الجهاد كما كان النبي (ﷺ) والراشدون ، كما فعل ابن فودي ، كما حدث في إيران حيث وجدنا رئيس الجمهورية إمام جمعة العاصمة وخطيبها.

والآن نعود مرة أخرى إلى الحرب بين برنو والخلافة لنقارنها بالحرب المستعرة بين الجارين المسلمين فنقول :

إن الحرب بين برنو والخلافة لا تختلف كثيرا عن الحرب بين الجارين المسلمين ، العراق وإيران ، فصاحب برنو كان يحارب دفاعا عن عرشه وعن عروش زملائه ؛ ولذا فإنه سيّر الجيوش للقضاء على الخلافة الناشئة ، والعراق هو الآخر قام مدفوعا بنخوة عربية للقضاء على الخطر الإسلامي الداهم ، الذي يهدد العروش والأصنام من عرب وعجم ، ولكنا نعتقد أن سلطان برنو كان مدفوعا بدوافع ذاتية غير مرتبطة بخارج بلاده [1] ، أما العراق فإنه إضافة إلى دوافعه الخاصة بحماية نفسه يحارب نيابة عن القوى المستكبرة ، ولذا فإن هذه القوى باختلاف ألوانها تقف مع العراق ، وإلى جانبه ، بالمال والسلاح والرجال والإعلام ، كلّ بما يملك ويتيسر له.

فالحرب بين الجارين المسلمين ليست بسبب سوء فهم ، أو خلاف على الحدود ، وإنما هي حرب الاستكبار العالمي ضد دولة الإسلام الناشئة ، وليست العراق إلا رأس الحربة فقط ، أو مخلب القط ، ولا ينبغي أن تنتهي الحرب قبل أن تكسر الحربة ويحطم المخلب.

---

(١) ولا يبعد أن يستغل لضرب دولة الخلافة ، دون وعي منه أو قصد.

٣- إسـقاط الخلافـة

قبل أن نتحدث عن إسقاط الخلافة أو القضاء على الثورة نشير إلى ما يلي :

١- إننا نرى أن إسقاط الخلافة ليس هدفا تكتيكيا ثانويا ، إنما هو هدف استراتيجي أساسي ، ومن ثم فإن الاستعمار لا يرحل قبل نزع الفتيل الإسلامي من الشعوب ، أو بمعنى آخر سرقة الإسلام من أهله بتحويل دفة الحكم من يد القوى الإسلامية إلى القوى العلمانية أو الكافرة ، فإذا تم له ذلك ترك البلاد من خلال ما يسمى بالاستقلال.

ومن ثم فإننا إذا تركنا السودان الغربي إلى العاصمة الدولة العلية حيث المعركة المستعرة للقضاء نهائيا على ما سمي بالرجل المريض ، نقول لو ذهبنا إلى هناك لننعم النظر في رفض السلطان عبد الحميد الاستجابة لمطالب اليهود برغم إغراءاتهم ، فسوف يتضح لنا أن الرجل رفض - برغم مخاطر قراره - ليقينه أن ما يريده اليهود ليس إلا محاولة لزرع خلايا سرطانية في جسم الأمة الإسلامية ، ومن المنطق والعقل أن يرفض.

لقد كان الأفغاني محقا تماما حين قال عن السلطان عبد الحميد : (لو وزن بأربعة من نوابغ عصرنا لوزنهم) فوقف ضد اليهود وحلفائهم حتى أسقطوه ، وكان يمكن أن يهادن أو يُدْهِن ، لكنه وقف صامدا ، وأبى أن يدنس تاريخه وشرفه بإيجاد موطئ قدم لبني صهيون.

ولكن ترى لو كان السلطان إنسانا طيبا رقيق القلب ، لم يقف من اليهود هذا الموقف المتشدد ، ترى هل كانوا يتركونه ؟ إننا نشك في ذلك ، ونحدس بأن اليهود

ومـن وراءهـم أرادوا أن تكـون فلـسطين موقعـا فـي قلـب الأمـة نفـسها لتحطيمهـا والقضاء عليها ، ونعتقد أن حكاية أرض الميعاد والشعب اليهودي المشرد ما هي إلا خدع ماكرة ، أرادوا بها استدرار عطف العالم ، وتبرير جرائمهم.

٢- وكـان مـن أهم أسـباب نجـاح ابـن فـودي وجماعتـه في إقامـة الخلافـة الأخـذ بزمـام المبادرة دائمـا وبخاصـة من الناحيـة العسكرية ، فلقد تمت البيعة لـيلا ، وفي الصباح - دون انتظار أو تراخ - كان حفر الخندق حول (غد) التي هاجروا إليها ، ثم أرسلوا جيشهم إلى أطراف غوبر فنقلوا المعركة إلى أرض العدو دون انتظـار [1] ، وهكـذا اسـتمروا فـي معـاركهم داخـل غـوبر نفـسها حتـى فتحـوا حاضرتها القاضاوا.

كذلك امتـاز ابن فـودي بسرعة اتخـاذ القرار ، والحركـة في الوقت المناسب فبادر إلى الهجرة مع جماعته حين عرف أن ينف يريد أن يفتك بهم ، وحين انتصر في معركة كُنو التي أسميتها معركة الفرقان نهض - دون إبطاء - إلى مراسلة أمراء الهوسا موضحا موقفه ، ومحذرا إياهم من التعاون مع أمير غوبر ضده ، كل هذا والمعارك مستمرة ، والجيوش تتقدم داخل أرض العدو نفسه.

كما كان من أسباب نجاحه عدم انفراده باتخاذ القرار ، دون مشورة ، وخير مثال على ذلك أن السلطان عندما أراد استدراج الشيخ إلى قبول هداياه حتى يسقط في أعين النـاس لجأ - رضوان الله عليه - إلى العلماء حوله يستشيرهم ، فكان أن وفقوا إلى القرار السليم ، فقلبوا الخدعة على رأس مدبريها ، وكانت النتيجة على

(١) لم يكد عام ١٨٠٤م عام البيعة ينتهي حتى كانت الجيوش الإسلامية تدق أبواب العاصمة في أول حصار لها في شهر ديسمبر من نفس العام.

عكس ما دبروا وخططوا.

٣- إن هذه الإمبراطورية التي أقامها ابن فودي هي خلافة إسلامية راشدة ، سارت على منهاج [١] النبوة حتى آخر أمير من أمرائها ، فقد تميزت بما يلي :

(أ) لم يكن الحكم وراثيا في آل فودي ، كما كان في الدول الإسلامية الأخرى ، بدءا من الأمويين والعباسيين وانتهاء بالدولة العلية ، وإذا كان عثمان قد ترك شئون الحكم - في حياته - لابنه محمد بللو ، ولأخيه عبد الله فلأنهما كانا أصلح الناس لهذا الأمر ، فقد كانا من العلماء الأجلاء المجاهدين.

ومما يدل على أن الحكم لم يكن وراثيا أن السلطان محمد بللو أوصى بأن يكون المجاهد عمر الفوتي (١٧٩٦ - ١٨٦٤ م) خليفة له برغم عدم وجود نسب أو قرابة بين الرجلين ، صحيح أن الذي خلف محمد بللو هو عتيق وليس الفوتي ، ولكن مجرد الوصية دليل على الموضوعية في اختيار الخلفاء ، دون أن يكون الحكم وراثة.

(ب) إن أخلاق الخلفاء جميعا كانت أخلاقا إسلامية عظيمة ، تذكرنا بأخلاق الصحابة والراشدين ، فالأمير عتيق حين اشتد عليه المرض أوصى ابنه أحمد قائلا : (لا تطلب الملك بعدي ، وإذا طلبته وكنت السبب في إراقة دماء المسلمين قدر ما يروى ذبابة فإني بريء منك ، وأخشى ألا يرى وجهي وجهك يوم القيامة ، وإن على ذمتي الديون العامة ، فأما العامة فاقضها من بيت المال ، وأما الخاصة فمن مالك الخاص ، وأوصيك ألا تفارق الأمير ولي الأمر في السكن ،

---

(١) وأهم الأسباب كما ذكرنا قبلا أن القيادة كانت موحدة ، فلا فصل بين الدين والسياسة ، أو بين القيادة الدينية والدنيوية.

وأن تسكن في البلد الذي يسكن فيه ، لئلا يدخل بينك وبينه أهل الإرجاف والفساد ، مع العلم أني ما تركت شيئا من مال الدنيا ، لا في داري ، ولا في غيرها ، فلا تفتنن أمهاتك ، وأن تحسن إلى إخوتك ، وتجتهد في تعليم الصغار ، وتزويج الكبار).

وكان الأمير طاهر يواظب على الصلوات الخمس في الجامع ، حتى قال بعضهم : (إنه كان يؤذن في بعض الأوقات) ولا غرو فهو القائل : (لولا الخلافة لكنت امرءا مؤذنا).

(ج) وأهم هذه الميزات طريقة تأسيس الخلافة وقيام الدولة ، فقد أسسها علماء مجاهدون ، نتيجة دعوة إسلامية خالصة ، استمرت ثلاثة عشر عاما كما حدث مع النبي الأكرم (ﷺ) وبعد الدعوة هجرة ثم بيعة وجهاد ، حتى كان فتح الفتوح بالقضاء على الطاغية ينف وفتح القاضاوا ، كما فتح الرسول (ﷺ) مكة عاصمة الشرك ، ومركز الحرب والمؤامرات ضد المسلمين ، وإن كان المصطفى (ﷺ) قد بويع قبل الهجرة ، أما ابن فودي فكانت بيعته بعد الهجرة إلى (غد) ، كما بايع على الكتاب والسنة.

وإنه ليحق للمرء أن يعجب كيف يتحول للشيوخ الذين لا يملكون غير قال الله وقال الرسول (ﷺ) ، كيف يتحول هؤلاء إلى قادة سياسيين وعسكريين ، محاربين أشداء حاذقين ، مفكرين عظماء ؟ ما مكنهم في النهاية من القضاء على الطاغية ، وإقامة أعظم خلافة إسلامية في القرن التاسع عشر ، كل هذا من بركات الإسلام العظيم الذي يحول تبن النفوس إلى تبر.

ألم يعش العَالم كله ليرى شيخا تخطى الثمانين من عمره ، وعلى بعد آلاف الأميال يسقط الشاه سنة ١٩٧٩م ، ثم يدْخُل البلاد ، دون جيوش ولا قوة غير شجاعة المسلم المطمئن إلى قضاء ربه ، غير عابئ بما يمكن أن يتعرض له من أخطار ، فهو القائل : (إن دمنا ليس أغلى من دم الحسين) وبعد هذا كله يسقط الحكومة القائمة ، وبشكل أخرى ، إن هذا ليس كرامة للرجل فقط ، ولكنها بركات الإسلام التي تلاحق الكفار ، في كل مكان ، تؤرقهم وتقضُّ مضجعهم ، فالمارد الإسلامي قد يستيقظ في أي مكان ، وإن ربك لبالمرصاد ، وجند محمد (ﷺ) قادمون.

على أي حال فإن خلافة ابن فودي الإسلامية تؤكد أهمية الدور الذي ينتظر من علماء الإسلام وخطورة هذا الدور ، فهم كما ذكر الرسول (ﷺ) : (أمناء الرسل) فيا علماء الإسلام ، اللهَ اللهَ فينا ، اللهَ اللهَ في الأمانة ، ويا أحباب محمد عليكم بالعلماء الرساليين ، هم الزعماء والقادة وأولياء الأمر ، طاعتهم من طاعة الله والرسول.

ومن ناحية أخرى فإن على العالم الرسالي أن يعد نفسه لمهام القيادة ، فإن كان جهاد كان أول المجاهدين ، إن أراد الساسة في الداخل أو الخارج استدراجهُ أو التلاعب به كان أكثر منهم دهاء ووعيا ، وهكذا ، ومن ثم لا تقع الأمة في محنة الفصل بين القيادة الدينية والسياسية.

٤- وأخيرا يجب ألا نغفل لحظة واحدة عن الحقيقة التي تفرض نفسها على كل دولة إسلامية ، وهي الحرب ، إن بعض أصحاب النوايا الطيبة يحسبون أن إقامة الدولة هي نهاية الجهاد ، لتوضع السيوف في أغمادها ، ولكن التاريخ يؤكد العكس تماما ، فالجهاد لا ينتهي بإقامة الدولة ، ولكنه يبدأ ، وينتهي بسقوطها.

إذن تبدأ الدولة الإسلامية بالحرب ، وتستمر في الحرب ، وتسقط بالحرب ، فهي إذا حرب في حرب ، ولنستقرئ التاريخ ، ماذا حدث بعد الهجرة إلى يثرب ، بدر، أحد ، الأحزاب ، وغيرها ، ثم فتح مكة ثم حنين ، وغيرها ، وبعد وفاة النبي الأكرم (ﷺ) كانت حروب الردة الطاحنة ، وقبلها إنقاذ جيش أسامة .. الخ ، هكذا استمرت حركة الجهاد ، وستمضي إلى يوم القيامة.

والدولة العلية قضت حياتها في الحرب والجهاد حتى سقطت سنة ١٩٢٤م ، ومن يطالع تاريخ هذه الإمبراطورية العظيمة يجد هذه الحقيقة واضحة ناصعة ، بادية للعيان ، والأمر لم يختلف مع خلافة ابن فودي فقد خاض قريبا من أربعين معركة كبرى حتى أسقط الطاغية ، واستمرت الدولة محاربة فاتحة حتى سقطت محاربة أيضا ، لم تترك سلاحها حتى استشهد آخر أمرائها مع عشرات الآلاف من المسلمين.

كل هذا يجعلنا نعتقد أن الحرب والجهاد بالنسبة للدولة الإسلامية روح وحياة ورواء ، وشهادة حية ناطقة بأنها على الحق المبين ، وعلى هدى النبي الأكرم ، محمد الخاتم (ﷺ).

. إننا يجب أن نمعن النظر في حقائق التاريخ ، يجب أن نعيد قراءة تاريخ المسلمين ، لنقرأه قراءة رسالية حتى نتمكن من فهم ما يدور حولنا ، لأن الحاضر مرتكز على الماضي ، وهو أكبر معلم يفسر لنا كثير من الأشياء التي يمكن أن تكون غير مفهومة لبعض الناس.

ولكن لماذا تحارب الدولة المسلمة ؟ إنها على الحق ، وإذا جاء الحق زهق

الباطل ، ولكنـه قبل أن يزهق عليـه أن يدافع عن نفسه ، ولذا يقوم أتبـاع الباطل بمحاربة الدولة المسلمة ، ما يدفعها إلى الذود عن نفسها ، وعن الحق الذي تدعو إليه ، وهكذا.

ومن ناقلة القول أن يعرف الجميع أن الإسلام مـا نشر إلا بالسيف والدم ، أن شجرة الإسلام العظيم لا تسقيها إلى دماء المسلمين الزكية ، وهذا لا يضير الإسلام ولا يَصِمُهُ في شيء ، لأنه لا يستخدم دم سلاحه ضد المستضعفين الآمنين ، الذين لا حول لهم ولا قوة ، بل إنـه يشهر أسلحته في وجـه المستكبرين الطغاة ، الذين يسخّرون الشعوب وما تملك من أجل شهواتهم وأهوائهم ، ومن الرجولة أن تقف مع المستضعفين ضد المستكبر ، ولكن تعالوا لنتساءل : ماذا يريد جند محمد (ﷺ) من الحرب ؟ إنه يحاربون ليكون الدين كله لله إنهم يريدون ـ كما قال ربعي بن عامر ـ إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

ولكن ألم يقل ربنـا : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [1] ؟ بلى ، لقد أمرنا بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد يكون رفع السلاح من الحكمة ، وتكون الشهادة قمة الحكمة ، فإذا قام الطاغية ينف أو خلفاؤه باضطهاد المسلمين ، وإعداد الجيوش للقضاء عليهم ، فهل من الحكمة أن نناقشه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وحين بدأت جحافل قريش تصل إلى المدينة عام الأحزاب فكيف قابلهم رسول الله (ﷺ) هل ألقى عليهم خطبة بليغة ، هل جاءهم بالبلغاء الفصحاء ؟ لم يحدث شيء من هذا أو ذلك ، بل كان الرد عسكريا ، كما كان

---

(١) ١٢٥ / النحل.

الهجوم عسكريا.

وإذا حاورك أحد أو ناقشك فإنك تحاوره أيضا وتناقشه ، ولكن إذا رفع سلاحه متعمدا قتلك ، فهل من الحكمة والموعظة الحسنة أن تدافع عن نفسك بلسانك ، أم بالسلاح أيضا ، أيها الطيبون استيقظوا وأفيقوا ، فلا يفل الحديد إلا الحديد.

وبعد هذه الخواطر حول إسقاط الخلافة والقضاء على الثورة نتحدث عن أمر مهم سبق الزحف الاستعماري نحو الخلافة هو :

الاستطلاع والرصد : إنه من البديهي قبل أن تبدأ معركة ما ، صغرى أو كبرى أن تعرف عدوك معرفة جيدة ، فبمقدار هذه المعرفة يكون النصر أو الهزيمة ، وهذه العملية ، سواء سميت بالاستطلاع والرصد أو بالتجسس ، أو بغيرها من الأسماء فإنها ليست أساليب مغامرات سينمائية ، وإنما هي ببساطة شديدة معرفة العدو ، تلك التي يمكن أن تتحقق بوسائل لا تخطر على البال ، فالأقنعة كثيرة ، والتمويه على الناس ما أسهله وأيسره.

ولقد كانت هذه العملية تتم في السابق بأساليب سنذكر بعضها هنا ، تلك التي استخدمت كوسيلة ـ فيما نرى ـ للتجسس على دولة الخلافة قبل بدء المعارك معها ، مذكرين المسلمين بأن العدو لا يضيع فرصه لرصدهم ومعرفتهم معرفة جيدة ، فإذا كان الوقت لضربهم كان كل شيء معروفا عنهم ، ولا نملك الدخول هنا في تفاصيل فنية ، ولكننا نرى وجوب الإشارة إلى استغلال الأدباء والدراسيين والمفكرين ، والمؤسسات العلمية ، أو ذات الواجهات العلمية الأكاديمية ، كيف ؟

هذا أمر بسيط ، إذا جئنا إلى أحد الدارسين - بطريق أو بآخر - وأغريناه بدراسة موضوع التطرف الديني مثلا ، ثم انتهى العمل العلمي العظيم ، واستمر الدارس إلى حال سبيله في هذه الدنيا ترى ماذا يحدث بعد ذلك عرف الدارس أم لم يعرف ، أراد أم أبى ، إن هذا العمل العلمي العظيم يذهب إلى جهات الاختصاص التي تتلقفه - بلهفة وترحاب - تتعرف منه على الطليعة الإسلامية من الداخل لتعد أيسر الطرق لضربها والقضاء عليها.

ولذا عليك أيها المسلم أن تكون شديد الوعي والحذر ، فإذا رأيت دراسة مشبوهة ، يشم منها رائحة التجسس على إخوانك فابتعد عنها وعمن يقوم بها ، ولا تتعاون معه ، على الإثم والعدوان عليك ، وعلى إخوتك في الله ، وعليك تبصير غيرك قدر المستطاع.

مثال آخر ، إن عدوك قد يتترس خلف عناوين وأسماء ، لا علاقة لها - في الظاهر - من قريب أو بعيد به ، كيف ؟ إذا رأيت مركز للدراسات الهيمونية ... ومعذرة لهذه الكلمة - أو مؤسسة ... إلى آخره ، واجهة علمية أو اقتصادية ، وهنا على المسلم أن يدقق في هذه الأسماء قبل أن يتعاون معها ، فلا تُقدِّم على شيء عن الحركة الإسلامية تفيد بها العدو ، حتى ولو تأكدت من إخلاص القوم ، لماذا ؟ لأننا إذا افترضنا الإخلاص وحسن النية ، فما يدرينا أن العدو قد دفعهم إلى هذا العمل - دون أن يعرفوا - وإذا لم يكن العدو وراءهم فما الذي يمنع من الاستفادة من المعلومات المقدمة واستغلالها في ضرب الحركة الإسلامية ، وهكذا ، فالحذر أيها المسلمون.

مثال آخر، مما يحكي أن جهة ما في أوربة عقدت مؤتمرا دعت إليه الدارسين -

في نيجيريا ـ للكتابة حول : الشخصيات الإسلامية في هذا البلد ، تذاكر سفر مجانية ، إقامة كاملة لمدة أسبوعين في العاصمة الفرنسية ، لماذا ، وما هدف التعرف على الشخصيات الإسلامية ، وبشرط أن يكونوا من الأحياء ، الهدف واضح ، إنه معرفة هؤلاء الرجال للقضاء عليهم ، ولذا فإن الحل ألا يكتب أحد ـ إذا قبل المشاركة ـ عن الأحياء ألبته ، بل يكتب عن الراحلين ، الذين أقضوا مضجع الاستكبار العالمي ، وما يزال الخوف منهم ، ومن تكرار أمثلتهم ، ومن يسيرون على دربهم.

الخلاصة أن العدو قد يستغل واجهات علمية أو أدبية أو اقتصادية من أجل التجسس على الحركة الإسلامية ، ومعرفة أسرارها ، بل لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن العدو يُمكن أن يستخدم واجهة إسلامية ، يُحَولها أو يحرك خيوطها بشكل مباشر أو غير مباشر ، وهنا يلزم المثل القائل : (احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة) ولذا لا يدهش المرء حين يرى بعض الواجهات الإسلامية تعمل ـ من طرف خفي أو ظاهر ـ على الفرقة بين المسلمين ، أو تشي بهم إلى الأعداء ... إلى آخره.

على أي حال نعود إلى التجسس على الخلافة لنشير إلى بعض الحوادث التي تبدو في أعين بعض الناس عابرة ، وهي فيما نرى كانت جزءا من التخطيط لضرب الخلافة الإسلامية ، ومن العجب أن بعض المسلمين كان يتطوع لهذا العمل ، لا ندري أسذاجة منهم ، أم عمالة للعدو.

١ـ يحكى أنه في سنة ١٧٩٢م وفد أحد التجار إلى السودان الغربي من مراكش ، ويدعى الحاج عبد السلام الشعبيني ، هذا الحاج أخبر مشكورا القائم بشئون إفريقية في لندن بأن هناك بلادا تسمى بلاد الهوسا في غرب إفريقية ، يستعمل أهلها الحروف العربية في كتاباتهم.

وترتب على ذلك أن زار بلاد الهوسا كثير من الجواسيس ، تحت واجهة علمية جغرافية ، وهي دراسة الأنهار في إفريقية ، ثم أتوا أيضا لمعرفة عادات الشعوب الإفريقية ولغاتها ، وهي أمور علمية ـ كما يظهر ـ لا صلة لها بالاستعمار أو غيره ، ومن الذين كتبوا عن هذه البلاد هنرى بيرث الذي قام برحلات واسعة النطاق في حوض النيجر فيما بين سنة ١٧٧٣م ـ ١٨٥٠م ، وقد كتب كثيرا عن قبيلة الهوسا ، وعن لغاتها.

ترى ماذا كان يفعل هذا الرجل المخلص الأمين ؟ أهي رحلات علمية بريئة ، أهي دراسة الناس ولغتهم ، من أجل سواد العيون ، أم هو علم من أجل العلم ؟ إننا نشك في كل ذلك ، وما نرى الأمر إلا جاسوسية ماكرة ، في ثوب رحلات ودراسة وعلم.

٢ ـ جاء وفد إنجليزي إلى برنو عام ١٨٢٢م خادعا محمد الكانمي ـ صاحب الملاحم ضد الخلافة ـ فأخبرهم الرجل أنهم رحالة وتجار ، يريدون مشاهدة عجائب البلاد من بحار وغياض ، ومن العجيب أن الإنجليز جاءوا بصحبة يوسف باشا صاحب طرابلس ، كما أن الكانمي بعث برسالة ودية جدا إلى ملك بريطانيا ، كما بعث برسالة أخرى إلى السلطان محمد بللو يوصيه بالوفد خيرا ..

وليسمح لنا القارئ بأن نورد نص الرسالتين :

<u>الأولى :</u>

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله.

من عبد الله محمد الأمين بن محمد الكانمي ، إلى المفضل على نظرائه ، المحترم دون قرنائه ، السري عظيم الإنجليز ، سلام يليق به منا ، أما بعد ، فقد قدم

علينا مراسيلكم ، الضاربون في الأرض بقصد التنزه ، والوقوف على عجائب الأرض على ما ذكروه ، فرحبنا بهم ، وأكرمنا نزلهم ، لما نسمعه عنكم من مواصلتكم للمسلمين ، وثبوت المحبة بينكم وبين سلاطين المسلمين من آبائكم وأجدادكم وأجدادهم ، فراعينا تلك المحبة ، وعاملناهم بمقتضاها ، وعلى حسب ما قدر الله (ﷻ) وبلغوا سلامكم ، وما ذكرتموه لنا في كتابكم من أنكم ما تقصرون في كل ما نقترحه من المصالح ، وصار في علمنا وشكرنا ذلك منكم ، وهاهم قد تواجهوا راجعين لكم ، بعد أن قضوا وطرهم ، ومات من حضر أجله ، وهو الطبيب ، ونعم هو رجل عاقل ، حسن الحال.

وطلب منا الرأس خليل ، الطريق للمسافرين في طلب سن الفيل ، وريش النعام ، وغير ذلك من الحوائج ، التي لا توجد في بر الإنجليز ، فقلنا له : إن أرضنا هذه لا تصلح لمسافر ثقيل ، صاحب مال عظيم ، كما علمتم حالها وشاهدتموه ، أما إذا كان أناس خفاف ، بضاعتهم قليلة ، مثل أربعة أو خمسة فلا بأس ، هذا غاية ما أذنا له فيه ، أما أكثر من ذلك فلا يأتون [1] ، وإذا أردت أن يعود منكم مرسل لهذه الناحية ، فالأحسن أن يكون الرأس خليل ، لأنه عرف الناس ، وعرف الأرض ، وصار من جملة الوطن ، والمصالح اللازمة لنا ذكرناها في تذكرة ، ها هي واصلة إليكم ، واكتب للقنصل الذي في طرابلس ، والقنصل الذي في مصر بأنه إذا جاء أحد من خدامنا ، واحتاج لهم في أمر - برا وبحرا - أن يقفوا له ما استقضاهم إياه ، والسلام.

(١) يبدو أن عدد الوفد كان كبيرا.

الثانيـة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله.

إلى حضرة النبيه النزيه ، المحترم العفيف والوجيه ، وجهبذ الوقت والأوان ، وعلامة العصر والزمان ، إمام المملكة السودانية ، وحاكم الناحية الهوسية ، محبنا العلامة محمد بللو بن الفهامة الشيخ عثمان ـ عليه من الله سحائب الرحمة والرضوان ـ سلام يغمر شذا المسك دونـه ، ويأمن صروف الدهر أن تخونـه ، ورحمـة الله تعالى وبركاته المكنونة والمخزونة.

أما بعد ، فباعث التخبير ، ومنير الرقم والتسطير ، إعلامكم ـ علمتم الخير ، ووقيتم الضير ـ إن جنس الانجليز من النصارى ، بينهم وبين المسلمين من قديم الأزمنـة عهود غير منكوثـة ، ومحبـة دنيويـة عن الآباء والأجداد موروثـة ، ولذلك يتوغلون في بلدان لإسلام حيث أرادوا ، ويتخللون الأقطار والأقاليم آمنين كيف شاءوا ، وقد أتوا ناحيتنا هذه في ذمة الأجل الأفضل ، والحب الأكمل ، السيد يوسف باشا ، صاحب طرابلس ، طلبوا منه أن يتنزهوا في عجائب بلاد السودان ، ويقفوا على غرائب ما بها من البحار والغياض ، النادر مثلها في كثير من الأوطان ، ولما قضوا مآربهم مما بأرض برنو ، وما جاورها ، طلبوا منا المجاوزة إلى جهتكم ، لما سمعوا أن العجائب ثَمّ مكثرها ، فأذنت لهم في المسير ، وأصحبتهم كتبا لتنزل منزلة الخفير ، وقدركم أعلى من أن ينبه على ما ورد في حفظ الذمة ، عن سيدنا ، شفيع الأمـة (ﷺ) وعلى آلـه وصحبه والقـادة والأئمـة ، وقد علمت أن المسلمين تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، فكونوا بهم ببال ، ولا تطرحوا أمرهم في زوايا الإهمال ، ولا يؤذهم أحد بقول ، ولا فعل ، ولا يتعرض لهم بسوء حتى يعودوا إلينا ـ إن شاء الله ـ آمنين مطمئنين مستأنسين ، كما خرجوا منا ، والله تعالى يجازيكم عنا

أحسن الجزاء ، وينظمنا وإياكم في سلك عباده المقربين الأصفياء ، والسلام على كافة من حوته حضرتكم ، وعلى من هو منك وإليكم عموما ، بلا تخصيص ، والسلام..

أرأيت كيف خدع العالم الجليل في هؤلاء الرحالة الجواسيس ، وكيف يتحدث عن الانجليز ؟ إنه أمر يدعو إلى الأسى والحزن ، ولكن هل يمكن أن يكون لهؤلاء الجواسيس دور في الحرب التي دارت بين الكانمي وبين الخلافة ، أو بينهما وبين ينف ؟ لا يوجد ما يمنع ذلك ، وإن كان الموضوع يحتاج إلى التحقيق والتمحيص ، نأمل أن يتكفل بهما أحد الزملاء ، وإن كان من حقنا أن نضع علامات استفهام حول عديد من الأشياء ، زيارة هذا الوفد الضخم لبرنو ولدولة الخلافة ، وفي هذا الوقت بالذات ؟ رحلات هنري بيرث الواسعة في حوض النيجر ، فيما بين سنة ١٧٧٣م ـ ١٨٥٠م وفي تلك الفترة بوجه خاص ، حيث المعارك الطاحنة مع ينف ؟ كتابة هذا الهنري وغيره عن الهوسا وعن لغتها ؟ وهل كان هؤلاء الجواسيس جميعا على صلة بمخطط استكباري عالمي ، أو سخروا لخدمة هذا المخطط دون علمهم ؟ كل هذا ليس ببعيد وإن كان بحاجة إلى الدراسة الفاحصة الواعية.

٣- وإن ننس فلا ينبغي أن ننسى دور المنصرين ، طليعة الاستعمار وجواسيسه ، ونعطي مثلا واحدا ، هو المنصر الألماني (J. F. Schon) الذي جاء إلى سيراليون لنشر النصرانية ، واستطاع إتقان الهوسا ، وألف كتبا عديدة بهذه اللغة ، فيما بين (١٨٤١م ـ ١٨٨٥م) ، فهل قام بهذا لوجه الله ؟ أو خدمة للعلم ؟ الله أعلم.

هذه أمثلة فقط من عمليات التجسس لاستطلاع ورصد دولة الخلافة تمهيدا للمرحلة التالية ، وهي :

ـ الزحف الاستعماري :

بدأ هذا الزحف الاستكباري الانجليزي سنة ١٨٦١م باحتلال لاجوس التي أصبحت فيما بعد عاصمة لما أسموه بنيجيريا ، وأرغموا ملكها على توقيع معاهدات بينهم وبينه ، ومن هذا المرتكز بدأ الزحف إلى داخل البلاد ، وقد تم لهم الاستيلاء على الجزء الجنوبي الذي أطلق عليه محمية نيجيريا [1] الجنوبية سنة ١٩٠٠م ، تتقدمهم الجواسيس من المنصرين والتجار والمكتشفين والدارسين والرحالة كما سبق.

وبدأت الجحافل الصليبية تتقدم من كل حدب وصوب لتطبق على دولة الخلافة من جميع الجهات ، وبخاصة من الجنوب ، ويقول صاحب فتح الرحيق : (هاجت الإفرنج على أرض نيجيريا من جميع الجهات ، فمن شرق المملكة دخول النصراني المدعو بالأمين ، والثاني المدعو بشندي الذي تناحر مع القائد العظيم ، وأما من ناحية الغرب فدخولهم أرض فوته ، وإخراجهم أميرها أحمد بن عمر الفوتي الفلاني حتى وصل سكتو ، ومات بها ، وأما من ناحية الشرق فمجيئهم من أرض الكامرون إلى تبالي ، وضربهم بلد فودي ، وقتلهم أمير بيجو عمر ، واحتلالهم تلك البلاد ، ثم ضرب عاصمة أدماوه جولة ، ومن الشمال دخولهم آدر وأهير ، واستِلابهم أرض أقدس ، وقتلهم أمير دمغرم تنيمو) كل هذا على عهد الأمير الثاني عشر طاهر بن أحمد.

ولقد كان المجاهد الطاهر كثير الطموح في الدين ، فلما أغبرت البلاد ، وأظلمت الجهات ، رأى في تلك الظلمات نارين قد تقاربا ، نار الإسلام ونار الكفر

---

(١) يقال إن اسم نيجيريا ظهر أولا في جريدة التايمز اللندنية في يناير ١٨٩٧م ، ثم أقره البرلمان البريطاني في يوليو ١٨٩٩م ، وهذه التسمية نسبة إلى البلاد التي تقع حول نهر النيجر ، فهي ـ أي نيجيريا ـ منحوتة من كلمتين Niger أي نهر النيجر + NIGERAI = Area ، ومعناها منطقة نهر النيجر.

وتـذكر حديث النبـي الأكـرم (ﷺ) (المـؤمن والكـافر لا تتـراءى نـارهمـا) فأخـذ يـذكر الناس عقب كل صلاة ، ويحض المسلمين على الجهاد في سبيل الله ، وكـان يقـول : (أيها النـاس ، إن قتلاكم في الجنة ، وقتلاهم فـي النـار) وذلـك بعد أن أرسـل الانـجليز طالبين أن يسلم لـهم الأمر ، ويتركوه على ما هو عليـه من الملـك ، ولا يعرضـون لـه في ملكه ، فكان يرد عليهم شر رد.

وكان يقرأ على الجنـود أمثـال هذه الآيـة : (يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَـةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ [1]) وكان يهون عليهم أمر الدنيا ، وينفـرهم منها ، ويعظم في قلوبهم أمر الآخرة ، ويقربها إليهم : (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَـهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّـارَ نَبَاتُـهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ [2]). يقول صاحب فتح الرحمن [3] : (فإذا ثبت هذا فلابد أن إمارته كانت فاروقية ، فهو خاتمة مجاهدي الإسلام ، ولا نرى مثله إلا ما كان في السيد أحمد السنوسي مـع إيطاليا ، والشيخ شـامل الداغستاني ، قـاوم روسيا أربعين سنـة ، والأمير عبد القادر الجزائري وقف في وجه فرنسا سبعة عشر عاما ، والشيخ محمد بن عبد الكريم الخطابي قاوم فرنسا وإسبانيا معا ، وجهـا لوجـه ، ولو كانت كل دولة قاومت من جهتها لما كان للكفار هذا الإعجاب) والاستعلاء.

علـى أيـة حـال لقد تقدمت جحافل النـصارى إلـى عاصمـة الخلافـة ، وعنـدها اجتمع المسلمون للتشاور ، فاختلفت الآراء ، فمن قائل بوجوب الصلح مع الإنجليز ،

---

(١) ٤٥ ، الأنفال.
(٢) ٢٠ ، الحديد.
(٣) ٨١/١ ، ٨٣.

ومـن النـاس مـن رأى القتـال حتـى يقـضي الله أمـرا كـان مفعـولا ، وهنـاك مـن أشـار بالهجرة إلى الشرق قبل وصول العدو ، وكان أمير المؤمنين يميل إلى هذا الرأي ، فعزم علـى الهجـرة ، وبـدأ النـاس يـستعدون لهـا ، لكـنهم سـمعوا بوصـول الجحافـل الصليبية فاستعدوا للقتال ، وخرجوا وعسكروا بعد صلاة الجمعة ينتظرون أعداءهم الذين لم يصلوا إلا صبيحة الأحد ، وتقابل الجيشان وتقـاتلوا فـانهزم جيش الخلافـة ، وبعد ذلك تفرق الناس ، فاتجه أمير المؤمنين وطائفـة مـن الجيش إلـى الشرق حتـى وصلوا إلى بلدة بيرم حيث لحق به الانجليز فقاتلوه حتى استشهد رضوان الله عليه ، ومعه كثير من الوجهاء والأعيـان وفضلاء المسلمين ، فتفرق مـن بقـى مـن الجيش إلى فرقتين ، واصلت إحداهما الهجرة إلى الشرق بقيادة محمد بللو بن الأمير الطاهر حتى وصلوا إلى السودان المصري فسكنوا على ساحل النيل في قرية الشيخ طلحـة ، وبقيت ذريتهم هناك حتى اليوم ، واستمر بعض النـاس فـي الهجرة حتـى وصـلوا إلـى مكة المكرمة ، وبقوا فيها إلى أن توفوا بها ، أما الفرقة الثانية فرجعت إلى سكتو.

أما محمد بللو بن الشهيد الطـاهر فقد عرضت عليـه الوظـائف المختلفـة فـأبى قائلا : (إن هذا ليس بشيء ، كما أن الدولـة التي تَحْتَ النصارى ليست بدولـة) ومـا كانت نفسه الأبية تطمح إلا إلى الخلافة الإسلامية العظمى التي تكون تحت يـد خليفـة المسلمين ، لتجـري فيهـا الأحكـام الـشرعية والحـدود الإسـلامية علـى منهـاج النبـوة المبارك ، وبقي الرجل معتزلا الوظائف حتى توفي (ﷺ) سنة ١٩٤٠م.

وهكذا انجلت المعركة عن استشهاد الأمير الطـاهر ومعـه من الموحدين ستة وثلاثون ألفا من الشهداء الأبرار ، وهاجر ابنه محمد بللـو ، ومـن ثـم أصبحت الأمـة جسما بلا رأس ، فتجمع النـاس حول الوزير الذي التجأ إلى قرية تسمى دينـاوا ، ولـم

يبق في حاضرة الخلافة إلا قليل من الناس ، وكتب الانجليز بالأمان إلى الوزير وطلبوا منه العودة إلى سكتو ، فتشاور مع بعض العلماء ، واتفق الرأي على العودة والتفاوض مع النصارى بشرط ألا يمنعوا المسلمين من أداء فرائضهم الدينية فتصالح معهم الوزير محمد البخارى ، ثم كتب هذه الرسالة المهمة إلى القادة يوضح لهم مبررات هذا الصلح فيقول :

الحمد لله الملك الحكيم ، والقادر المنفرد بالإيجاد والإعدام ، والذي تعالى عن أن تضاف أحكامه إلى العلل ، جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد خير الأولين والآخرين ، وعلى آله وأصحابه ، وأزواجه الطيبات ، أجمعين.

أما بعد فهذه رسالة مني إلى كل من وقف عليها من أهل العلم والتدبير ، كتبتها إليهم ليعلموا أني ما فعلت هذا الأمر الذي فعلته مع النصارى اتبّاعا لهوى النفس ، ولكن فعلته بإشارة علمائنا إليه ، وذلك لما نزلنا في مرنون ، اجتمع الناس عندي لأجل المشورة ، وشاور بعضهم بعضا ، ولم يرد سبيلا للهجرة عن هذه الأرض ، لما في الطريق من قلة المياه ، وعدمها أصلا في بعض الطرق ، وشدة الحر ، وكون النصارى نازلين في جميع الطرق ، فلما سمعت أن لا سبيل إلى الهجرة ، أمرت كل واحد منهم أن يفارقني ويأخذ طريقه فأبوا على ذلك.

فلما رأى علماؤنا ذلك أشاروا عليّ بذلك الأمر الذي فعلته مع النصارى ، قرأوا عليّ كتاب شيخنا وإمامنا عثمان بن فودي (ﷺ) أما المحل الذي قرأوا على فهو قوله : المسألة الرابعة في بيان حكم موالاة الكفار ، فأقول بالله التوفيق : إن موالاة الكفار على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : موالاة هي كفر على الإجماع ، وهي مواصلة الكفار ومصادقتهم ومحبتهم لأجل أنهم كفار ، وبغضا لدين الإسلام ولمن جاء به ، وعلى هذه الموالاة معنى قوله تعالى : (لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي [1] شَيْءٍ) وقوله تعالى : (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ [2] مِنْهُمْ).

القسم الثاني : موالاة هي معصية ، لا كفر على الإجماع ، وهي مواصلة الكفار ليصيب الواصل ما في أيديهم من الأموال ، وعلى هذه الموالاة معنى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ [3]) أي اليهود ، إذ قال المفسرون : إنها نزلت في بعض المسلمين ، كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم.

فتبين أن مجرد حب الكفار ومواصلتهم ليصيب الواصل ما في أيديهم من الأقوال لا يكون كفرا ، بلى هي معصية ، قال أبو يحيي زكريا الأنصاري في فتح الرحمن عند قوله تعالى : (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ [4] مِنْهُمْ) إن قلت هذا يدل على إن ود أهل الكتاب يكون كفرا ، وليس كذلك ، قلت إنما قال ذلك مبالغة في اجتناب المخالف في الدين ، أو لأن الآية في المنافقين ، وهم كفار ... انتهى.

القسم الثالث : موالاة هي جائزة على الإجماع ، وهي مواصلة الكفار وموالاتهم باللسان دون القلب ، خوفا منهم ، وعلى هذه الموالاة معنى قوله تعالى : (إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً) قال البيضاوي عند تفسيره هذه الآية : هذا نهي عن موالاة

(١) ٢٨ ، آل عمران.
(٢) ٥١ ، المائدة.
(٣) ١٣ ، الممتحنة.
(٤) ٥١ ، المائدة.

الكفار ظاهرا وباطنا في الأوقات كلها إلا وقت الخوف ، فإن إظهار الموالاة حينئذ جائزة ، قال جلال الدين السيوطي في التكملة ، تفسيره في بيان معنى هذه الآية : إن تخافوهم فلكم موالاتهم باللسان ، دون القلب ، وهذا قبل عزة الإسلام ، ويجري في بلد ليس قويا فيه ... انتهى.

قلت : أعوذ بالملك المعبود بحق من القسم الأول والثاني ، فلما سمعت قراءتهم على كتبت إلى كبير النصارى كتابا ، وانتظرت جوابه في ديناوا ، فلما أتاني جوابه ركبت ، وذهبت إلى سكتو خائفا من أن يتعرضوا لديننا ، ويصدونا عن الإسلام ، ويأمرونا بإتباع دينهم ، فلما خاطبتهم سمعت منهم كلاما ، لا يميل إلى منع الصلاة التي هي أعظم العبادات ، ولا إلى منع صوم رمضان ، ولا إلى منع الزكاة ، ولا إلى منع حج البيت الحرام ، غير أنهم يظهرون القهر على المسلمين ويفتخرون عليهم بنيل الغلبة وشدة القوة ، ويأمروهم بحمل الأشياء الثقيلة ، وبناء البيوت على أرجاء البلد.

فلما عرفت ذلك منهم فرحت وحمدت الله على ذلك وشكرته ، وجلست في سكتو وعاملتهم ، ثم بعد ذلك كله دخل في قلبي شيء ، وهَيَّج لي هموما ، وحرت في أمري ، فلما رأيت ذلك بعثت إلى العلامة الفهامة الأخ أحمد بن سعيد عن بيان حقيقة أمرنا هذا فكتب إليَّ هذه الورقة :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فمن الفقير إلى عفو مولاه أحمد بن سعيد ـ رحمه الله ـ إلى أخينا أمير المصالح ، وإلى النصائح محمد البخارى بن الخال أحمد ـ رحمه الله ـ تحية وسلام عام ، ورضاء وإكرام.

وبعد فقد رأينا ما جرى به القدر علينا ، وعلى جميع أهل الإسلام ، فالدنيا دار بلاء وامتحان ، ولنا أسوة بما فعل الكفار بخليفة رسول الله (ﷺ) ببغداد وحرقها وإتلافها ، ونبش قبور الأولياء ، وتمزيق الأمة ، وقتل الخليفة ، حتى خلت الدنيا من الخليفة مدة ، ولنا أسوة وتسلية وتسلية بالكافر القرمطي ، الذي سلطه الله على مكة بجنوده يوم النحر ، وقتل المسلمين حتى امتلأ المسجد الحرام بالقتلى بين الركن والمقام ، وامتلأ بئر زمزم بالقتلى ، وحتى أخذ الحجر الأسود وساريه ، وكما جبر الله ذلك للمسلمين برد الحجر ، ورد الخلافة إليهم ، نرجو أن يجبر الله لنا هذا الأمر، يصلحه بقدرته وفضله. ثم إن فعلكم هذا هو عين الصواب ، والله أعلم ، لأن بلادنا هذه بلاد إسلام ، إذا هاجرنا منها صارت بلد كفر ، مع أن الهجرة الواجبة التي يقدمها الإنسان المسلم على كل شيء - حتى على النفس - هي الهجرة عن محل صَدَّهُ الكفار فيه عن قواعد الإسلام الخمس ، أو صيَّروه عبدا ، وأما هؤلاء فلم يصدوا عن الدين ، وشعائر الإسلام قائمة في بلدنا ، وغايتهم طلب الترأس في أمر الدنيا والبلاد ، وأما الإسلام فلم يصدوا أحد عنه من (فوته) إلى هنا.

فالأفضل لكم أن تهادنوهم وتصالحوهم ، لأن المهادنة جائزة للإمام ونائبه إذا عجز المسلمون عن القتال ، كما في المختصر ، وقيده بشروط ، ويجوز للمسلمين أن يبدلوهم مالا ، إذا تعين خوف استئصال الجماعة الإسلامية في تلك البلاد والإمام الأعظم ، كما في شرح المختصر ، وفي ضياء الحكام للشيخ عبد الله عند ذكر المهادنة ، ويجوز كل ما منع للخوف المذكور هذا ، وقال أبو عمران يستحب ألا تزيد المدة على أربعة أشهر إلا للخوف والعجز عن القتال فيجوز مطلقا ، هذا وفي قصيدة الشيخ عثمان رحمهُ الله تعالى : (باللغة الفلانية) :

ودع بدعاك كفرني ولا يا — مكافرين فهماك آيا
يد د مبّ علاوا النب — ولا يتن مكفرفهم صاحب
يد د مبّ [1] وندود وضرورة — دن يد غيد فهم وبصيرا

وهو عين ولايتنا معهم الآن ، نتقيهم باللسان والمعاملة في أمور الدنيا ، وحاشا أن نحبهم في قلوبنا ، وأن نتبع دينهم ، وهو ما دلت عليه الآية : (إلاَّ أن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ [2] تُقَاةً) ويجري ذلك في كل بلد ليس الإسلام فيه قويا أما الموالاة التي بمعنى نصرهم ، والاستنصار بهم على ما لا يجوز شرعا كقتال المسلم ، وتخريب المسجد وغزو المسلمين ، فذلك كفر على فتوى المغيلي.

وأما السكنى والمجالسة مع الكفار ، فليس بكفر إذا لم يكفر الساكن ، بل ذلك معصية اختيارا ، وأما اضطرارا فلا شيء فيه ، وأما تأويلا فهو أبعد من الإثم ، أما لهدايتهم أو لرجاء زيادة الإسلام وقوته كحالنا هذا ، فكيف تكون المساكنة كفرا - إذا لم يكفر الساكن - ولقد سكنا مع الكفار في بلدهم نحو مائة سنة قبل الشيخ وأخيه ، وبعد وجودهما نحو إحدى وخمسين سنة ، فلا يكفر أحد بتلك المجالسة ، وكونهم تحت حكم الكفار ، وفي ذلك يقول الشيخ عبد الله : (إنا وإن كنا بأرض لم تكن للمسلمين ، نقيم في بلد الكفار لسنا نخالطهم بشيء ، بل لهم دين ، ولنا دين النبي المختار ، هذا وإن إسلام بلدنا وكونه دار الإسلام ظاهر محقق ، فلنشتغل بتدبير بقاء ذلك الإسلام في بلدنا ، حتى ترجع كل قرية إلى محلها ومسجدها ، فعسى الله أن يقوي دينه بإذهابهم عنا بقدرته ، هذا قدر فهمي في هذه المسألة ، وكفاك فائدة بفهمك ، كما قال شيخنا عثمان.

---

(١) أبيات باللغة الفلانية ، بالحرف العربي.
(٢) ٢٨ ، آل عمران.

فاجتهد أيها الوزير مع أهل الحل والعقد ، بتحسين النية في نصب هذا الإمام ، استبقاء للإسلام وأهله في هذه البلاد ، وأنتم أعلم بما يكون صلحا بينكم وبين النصارى في أمر الدنيا ، لأنها مطلبهم فقط ، أما دينكم فواف كامل ، ودين الرعية تبع دينكم ، فأصلحوا أمرنا بإخلاص التوبة والنصح لأمير المؤمنين الذي بايعتم له ، وقد سمعنا أنه ذو دين ، وافر العقل ، وغير متصلب في أموره ، قابل للنصح ، ذو حظ في العلم ، فلله الحمد على ذلك ، والناس أكيس من أن يصطفوا رجلا حتى يروا عنده آثار أحسان ، فاجتهدوا في تقوى الله ، والعدل والتوكل عليه ، نرجو من الله أن يعافينا ، ويجبر لنا أمرنا ، كما جبر لأسلافنا حين ابتلاهم فصبروا وتابوا ، ورزقنا الله توبة نصوحا ، قال رسول الله (ﷺ) : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى يأتي أمر الله) انتهى.

فلما قرأت كتابه ، وفهمت خطابه ، امتلأت فرحا وسرورا ، وشكرت الله على ذلك ، ثم قرأت شرح المختصر فازداد سروري ، وحمدت الله وشكرته ، ثم اعلموا يا إخواني أن الدار دار بلاء وامتحان ، فاصبروا وتوكلوا ، ولا تستغربوا من وقوع شيء في هذه الدنيا ، لأنها دار أكدار ما دمت مقيما بهذه الدار ، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها ، وواجب نعتها ، ثم اعلموا أنها حقيرة فانية ، اجتهدوا في طلب الزاد إلى الميعاد ، قبل حلول الأجل ، ودخول القبر وسؤال الملكين ، اللهم يا حكيم ، يا رحيم ، يا علي ، يا من هو بكل شيء عليم ، نجنا من شر أنفسنا ، وارزقنا توبة نصوحا ، وسلمنا ونجنا من مصائب هذا الزمان النكد والصعب ، وحل بيننا وبين إبليس اللعين ، ونجنا منه نجاة سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، محمد (ﷺ) وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطيبات ، وسلم.

الصلح مع الكفار [1] :

لا شك أن هذا الصلح - أو قل هذا الاستسلام - الذي تم مع الانجليز كان نتيجة الهزيمة العسكرية التي سنتحدث عن أسبابها فيما بعد ، ولا يمكن اتهام الوزير محمد البخاري بموالاة الانجليز ، أو الانحياز إليهم ، ولم يكن أمام الرجل غير إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، ولكننا لا نوافق على جملة ما ورد بخصوص الانجليز ، وبخاصة الانخداع الواضح بهم ، ولذا نرى مناقشة بعض الفقرات من رسالة الوزير :

١- قال الوزير : (وذهبت إلى سكتو خائفا من أن يعرضوا لديننا ويصدّونا عن الإسلام ، ويأمرونا باتبّاع دينهم ، فلما خاطبتهم سمعت كلاما ، لا يميل إلى منع الصلاة التي هي أعظم العبادات ، ولا إلى منع صوم رمضان ، ولا إلى منع الزكاة ، ولا إلى منع حج البيت الحرام ، غير أنهم يظهرون القهر على المسلمين ، ويفتخرون عليهم بنيل الغلبة ، وشدة القوة ، ويأمرونهم بحمل الأشياء الثقيلة ، وبناء البيوت على أرجاء البلد).

٢- قال الشيخ أحمد بن سعيد الذي استفتاه الوزير : الهجرة الواجبة هي الهجرة عن محل يصد فيه الكفار عن قواعد الإسلام الخمس ، أو يصيروه عبدا ، وأما هؤلاء فلم يصدوا عن الدين ، وشعائر الإسلام قائمة في بلادنا ، وغايتهم طلب الترأس في أمر الدنيا والبلاد ، وأما الإسلام فلم يصدوا أحدا عنه من (فوته) إلى هنا.

---

(١) لا يجوز الصلح مع الكفار المحاربين إلا إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، أما الهدنة المؤقتة عند الضرورة لضعف المسلمين وقوة الكفر فهي جائزة ، وقال الشوكاني : (إن مصالحة العدو ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائز للحاجة والضرورة ، دفعا لمحظور أعظم) وقال مالك : (لا يجوز مهادنة المشركين السنة والسنتين والثلاث إلى غير ذلك) ولا نشك في إخلاص الوزير البخاري وموالاته المسلمين ، لكنه اجتهد فنال أجرا ، وإن كنا بحاجة إلى دراسة نصوص الاتفاقية مع الإنجليز ليكون الحكم عليها دقيقا نهائيا.

٣ـ قال الشيخ أحمد بن سعيد أيضا : وأنتم ـ يقصد الوزير ـ أعلم بما يكون صلحا بينكم وبين النصارى في أمر الدنيا ، لأنها مطلبهم فقط ، وأما دينكم فوافٍ كامل ، ودين الرعية تبع لدينكم.

أولا : إن الدنيا مطلب النصارى ، وهذا مما لا يجادل فيه أحد ، ولكن إذا سلب الحكم من المسلمين لا يكون دينهم وافيا كاملا ، بمعنى أنهم لا يستطيعون إقامة الأحكام الشرعية ، والحدود الإسلامية ، فالدولة تحت النصارى كما قال محمد بللو ابن الطاهر ليست بدولة.

ثانيا : إن الوزير ومفتيه يسويان بين الدين وبين العبادات ، أو يجعلون الاثنين شيئا واحدا ، وهو وَهْم كبير ، إذ حديث النبي (ﷺ) : (بني الإسلام على خمس) واضح للدلالة على أن الشهادة والصلاة والزكاة والحج ، كل هذه العبادات هي عمد الإسلام ، وليست هي الدين كله ، وهؤلاء النصارى لا يمنعون أحدا من تلك الشعائر ، لأنها لا تؤثر على مصالحهم في شيء ، وقد سبق أن نقلنا تعليق القائد الإنجليزي على الأذان ، فما دامت العبادة لا تؤثر في مصلحة بريطانيا العظمى فلا اعتراض ، ولا صد عنها.

ثالثا : لقد أطبق الإنجليز على دولة الخلافة من جميع الجهات ، فقتلوا الأمراء والأعيان ، عشرات الآلاف من المسلمين الأبرياء استشهدوا على يد هؤلاء النصارى ، مآسٍ ومصائب أنزلوها على رءوس الأفارقة الآمنين في أوطانهم ، أظهروا القهر عليهم مفتخرين بنيل الغلبة والقوة ، أمروهم بحمل الأشياء الثقيلة ، وسخّروهم في بناء البيوت لهم ، وترأسوا على المسلمين بالقوة والقهر ، كل هذا

وغيره أليس صدا عن دين الله ؟ ألم يحن بعد أن يفطن المؤمنون إلى ألاعيب هؤلاء النصارى وخداعهم ؟ وهل بعد تلك المصائب يحق لأحد أن يحسن الظن بالإنجليز ؟ ما هذه الغفلة !!.

ولقد ظلوا محافظين على عدائهم للمسلمين حتى اليوم ، لم ينكثوا عهد الحرب والصدّ عن دين الله.

أسباب الهزيمة العسكرية :

إن هذه المعركة الأخيرة بحاجة إلى دراسة تفصيلية لمعرفة أكثر بأسباب الهزيمة ، وليكون درسا وعبرة يستفيد منها الموحدون ، كما أنه ترتب على نتائج المعركة إسقاط أعظم دولة إسلامية في غرب إفريقية ، ولذا فإننا نحاول حسب المعلومات المتوفرة لنا الآن التعرف على بعض أسباب الهزيمة ، آملين أن يقوم أحد الزملاء بدراسة تفصيلية لهذه الأسباب ، أو أن نمكن من ذلك في المستقبل ، إذا شاء الكريم :

١ـ الهزيمة النفسية : لقد حلت الهزيمة الداخلية بالمسلمين ، ومن ثم كانت أكبر عوامل انتصار العدو عليهم ، بدليل أنهم استعدوا للهجرة وترك البلاد قبل وصول الانجليز ، وكان عليهم أن يبادروا إلى المقاومة ، لأن العدو لن يتركهم ، ولو أخلوا له البلاد ، وهو ما حدث بالفعل.

٢ـ عدم الأخذ بزمام المبادرة : لقد كان من أهم أسباب انتصار ابن فودي على الطاغية ينف الأخذ بزمام المبادرة ، وسرعة الحركة ، ولذا بويع الشيخ بالليل ، وفي الصباح التالي مباشرة ـ دون إبطاء أو تأخير ـ بدأ في حفر الخندق ، وسارت

الجيوش إلى أرض غوبر نفسها لتباغت جيوش الطاغية في عقر دارها ، أما في معركة الخلافة الأخيرة فقد أهمل هذا المبدأ المهم - ويبدو هذا بسبب الهزيمة الداخلية ، وعدم الثقة في المقدرة العسكرية أمام جحافل الإنجليز الزاحفة من كل حدب وصوب ، لتحاصر دولة سكتو ، فلقد احتل الإنجليز لاغوس عام ١٨٩٩م ، وكان ينبغي أن يكون هذا تحذيرا للمسئولين في حاضرة الخلافة ، والأمر بالطبع لم يقتصر على هذه المدينة ، بل كانت الجيوش الصليبية تتقدم في كل اتجاه نحو قلب المسلمين ، نحو الخلافة.

وهكذا وجدنا رجال الدولة في سكتو يتناقشون حول ما يجب فعله، بينما العدو يتقدم نحوهم ، ثم ينتظرون في مكانهم حتى تدهم الجيوش المعادية ، وكان يجب على المسلمين أن يتقدموا نحو الإنجليز قبل أن يتحركوا إليهم ، كما فعل أسلافهم مع عدوهم ينف ، ولكننا نرى أن اليأس والهزيمة النفسية قد سيطرا على القوم ، وهما أكبر عوامل الهزيمة.

٣- التجسس والخديعة : لقد استطاع الإنجليز التسلل إلى الشعوب الإسلامية للتجسس عليهم ومعرفة أسرارهم ، تحت عناوين ولافتات مختلفة ، مثل التجارة ، الرحلات الاستكشافية ... الخ وقد سبق الإشارة إلى أمثلة من هذه الألاعيب ، ولقد خدع كثير من الطيبين بهؤلاء الجواسيس ، فقد رأينا كيف خدع الكانمي في الوفد الإنجليزي ، ثم أرسله إلى السلطان محمد بللو في سكتو موصيا إياه بهذا الوفد الصديق!!

ولقد وصل الانخداع بالكانمي إلى حد أنه أرسل كتابا وديا إلى ملك بريطانيا !!
أما الشيخ أحمد بن سعيد فتراه يؤكد على أن الانجليز لم يصدوا أحدا عن دين الله من

أراض (فوته) حتى سكتو !! وهكذا استطاع العدو اللدود للمسلمين أن يتزيى بزي الصديق الوفي ، وأن يخدع الأفارقة ، كما خدع العرب ، وجرهم إلى الوقوف معه ضد الخلافة الإسلامية في استانبول ، ثم كان جزاء سنمار ، زرع القومية والتفرقة والكيان الصهيوني ، كل هذا في قلب الأمة العربية.

على أية حال فإن العدو نجح في عمليتي الرصد والاستطلاع ، مما مكنه في النهاية من الانتصار ، وتحطيم القوة العسكرية لخلافة سكتو.

٤- الإدارة العسكرية الحقيقية : لاشك أن بريطانيا العظمى كانت تمتلك - آنذاك - أقوى آلة عسكرية في العالم ، أو على الأقل كانت هذه الآلة أقوى بكثير مما يمتلكه جيش سكتو ، من السلاح والعتاد المتطورين ، والخطط العسكرية المتقدمة ، مما كان يوجب الحرب مع الإنجليز بطريقة غير تقليدية وتتفق مع الأوضاع المستجدة والإمكانيات العسكرية المتاحة.

وهكذا يجب على الدولة الإسلامية أن تحافظ دائما على تفوقها العسكري ، وإذا أعوزها السلاح المتفوق في يد عدوها كان عليها أن تبتكر أساليب جديدة للحرب تبطل به مفعول الأسلحة المتطورة الحديثة.

وفي هذا السياق يجب دراسة الحرب التي خاضتها الثورة الإسلامية في إيران ، فبرغم إمداد العراق بكل ما تحتاج من خبراء عسكريين ، وسلاح متطور من الشرق والغرب وبرغم الحصار الاقتصادي والعسكري والإعلامي ، ومحاولة حرمان دولة الإسلام من قطع الغيار فقد استطاع جند الإسلام الأبطال تلقين الاستكبار العالمي وذيوله دروسا بليغة.

وكان من أسباب النصر استحداث أساليب قتالية جديدة تتفق مع المتاح من العتاد والسلاح ، ومحاولة تصنيع قطع الغيار ، والسلاح - ما أمكن ذلك - بأيدٍ إسلامية ، واللجوء إلى السوق العالمية لشراء أدوات الجهاد ، بدلا من الشرق أو الغرب ، ضمانا لحيدة القرار الإسلامي الذي يمكن أن يصبح رهينة في يد الدول المصدرة للأسلحة والأعتدة ، كما أن هذه الدول كثيرا ما تنكث بعهودها - برغم الاتفاقات المسبقة - وبخاصة حين تشتد الحاجة إلى ما نطلبه منها ، كما أخذ أبطال الإسلام على عاتقهم استخدام السلاح وصيانته بطريقة جيدة لتقليص الحاجة إلى قطع الغيار ما أمكن.

وهناك أيضا تجربة المسلمين في لبنان الذين يتصدون للصليبية والصهيونية برغم قلة العدد والعُدَد ، وفي غيرها من بلاد المسلمين ، وحتى غير المسلمين ، كلها تجارب مفيدة نافعة يجب دراستها واستخلاص العبر والعظات منها.

فإذا اهتدى الموحدون إلى أساليب عسكرية مناسبة فإن الله سوف ينصرهم ، لأنهم يضيفون إلى التفوق العسكري حب الشهادة والاتكال على الله ، وعلى وعده لهم بالنصر.

نتائج إسقاط الخلافة

١- تنحية الإسلام عن الحكم : إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار ، كما ذكر لورانس بروان ، وأقصر الطريق لضرب هذا الدين ، أو على الأقل تحجيمه ، وإبعاده إلى زاوية مهجورة من حياة الشعوب ، نقول أقصر الطريق لهذا الهدف هو تنحية الإسلام عن الحكم ، وهو ما يترتب ـ منطقيا على أرض الواقع ـ عن سقوط الخلافة ، فقد عين الإنجليز أمراء جددا في بعض الولايات ، كما اعترفت بطائفة أخرى ، وصالحت بعضهم قهرا ، وأجبرتهم على الاستسلام ، كما عينوا سلطانا جديدا ، وجعلوه أميرا على سكتو وحدها ، وحلوا محل الخلافة والإدارة التي كانت في يد السلاطين.

وضموا محمية نيجيريا الجنوبية إلى محمية نيجيريا الشمالية ـ التي كانت تشمل ممالك الهوسا وبرنو ـ لتصبح نيجيريا إحدى مستعمرات بريطانيا العظمى ، وعاصمتها لاغوس ، وهكذا انقسمت أراضي الخلافة ما بين الكاميرون ونيجريا والنيجير والداهومي ، وتتحول العاصمة من سكتو ـ حيث الأكثرية المسلمة ـ إلى أقصى الجنوب ، بعيدا عن الثقل الإسلامي ، وعن حاضرة الخلافة.

وبعد أن سقط الحصن الأول للإسلام ، وهو الحكم بدأ العدو في توجيه الضربات نحو باقي الحصون ، كما سنرى.

٢- تنحية العربية : لم تفتح الحكومة في سكتو مدارس رسمية نظامية ، ولكنها شجعت التعليم تشجيعا بالغا ، فالقادة الجدد كلهم علماء ومدرسون جعلوا

بيوتـهم مدارس للعلم ، ونصبوا أنفسهم للتدريس ، فكثرت المدارس والمجـالس العلمية ، لا في العاصمة وحدها ، بل في غيرها من المدن والقرى ، ومن ثم أصبحت مساحة العربية أوسع وأكبر ، وذلك بسبب انتشار التعليم الديني ورواجه وهو أمر طبيعي في ظل الخلافة الإسلامية.

لقد كانت الحكومة ـ آنذاك ـ تشجع التعليم العربي ، وتقوم بنشره ، وكان من يفهم العربية هم الطبقة الحاكمة ، من الأمراء والحكام والقضاة ، وكبار الموظفين والعاملين في الدواوين ، كل هؤلاء كانوا يستعملون لغة القرآن بوصفها لغة العلم والإدارة ، يكتبون بها اللوائح والقرارات الحكومية ، وكذا السجلات الرسمية وغير الرسمية ، ويلقون بها الخطب الدينية ، ويتكلمون بها في المناسبات الدينية ، كما كان يعرف العربية ـ بشكل ما ـ من يتصل بالطبقات السابقة.

وكان العلماء في مقدمة من يعرفون العربية ويدرسونها ، ويؤلفون فيها، ويتكلمونها فيما بينهم ، ونتيجة لما سبق كله ارتقت مكانة لغة القرآن ، وكثر التأليف فيها ، وراجت الكتب العربية ، حتى أصبح عصر الخلافة عصر نهضة كبيرة أشاعت نور العلم والدين ، وهو أمر طبيعي.

وبعد أن سقطت دولة الخلافة وجد الإنجليز في شمال نيجيريا فقط ما يقرب من عشرين ألفا من الكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة والقرآن ومبادئ الإسلام ، في هذه الكتاتيب مائتان وخمسين ألف تلميذ ، ومن ثم عمل المستعمرون بكل قوتهم على ضرب الحصن الثاني من حصون الإسلام ، وهو لغته وشعاره ، وكذا التعليم العربي فاتخذت الخطوات التالية :

(أ) كتابة اللغات المحلية بالحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية التي كانت تكتب بها ، مثل الهوسا واليوربا ، لقطع الصلة بين تلك اللغات وبين العربية ، أو قل بين تلك الشعوب وبين غيرها من الشعوب الإسلامية ، وبخاصة العربية ، وما حدث هنا هو نفس ما حدث بعد إسقاط الخلافة العثمانية ، فقد أجبر أتاتورك الشعب التركي المسلم على استبدال الحروف اللاتينية ، إنها مدرسة واحدة ، وطريق واحدة ، ضد الإسلام ولغته.

(ب) إحلال الإنجليزية محل العربية ، لتصبح الأولى لغة رسمية في الدواوين والمكاتب ، فيما عدا المحاكم الشرعية التي لحقت بغيرها بعد سنوات من الاحتلال ، وأصبحت العربية لغة الدين فقط ، وقد كانت لغة الدين والعلم والحكم.

(ج) محاربة التعليم العربي والديني ، وإحلال التعليم التنصيري مكانه ، وجاءت حملات التنصير المستعمرة لتحول المسلمين عن دينهم ، ولتحارب العربية شعار الإسلام ، وتضع الصليب ولغة المستعمر مكانهما ، وإذا كانت هذه الحملات لم تجد مجالا خصبا في شمال نيجيريا حيث الثقل الإسلامي فإنها وجدت في الجنوب أرضا خصيبة ومجالا متسعا لعملها.

٣- <u>جو نفسي كئيب</u> : كان الجو كئيبا عقب إسقاط الخلافة ، وبعد نجاح الإنجليز في تمزيق وحدة المسلمين ، وإضعاف شوكتهم ، وتهديم قيادتهم المركزية في سكتو ، فكانوا حيارى ، يفتقدون الرياسة والقيادة المركزية ، التي كانت قبل ذلك تجمع شملهم وتقود خطاهم ، وانحطت الروح المعنوية ، فكان من الطبيعي أن يمقت الناس تلك الحالة السياسية المظلمة ، ويترقبوا الفرص لاسترداد

حريتهم ونظام حكمهم الإسلامي ، لكن أين القائد الذي يأخذ بيدهم ؟ ومن ثم لجأ المؤمنون إلى ربهم ضارعين أن يزيل تلك المصائب التي نزلت عليهم ، ومن القصائد التي صورت هذا الجو النفسي الكئيب بعد سقوط حاضرة الخلافة قصيدة الوزير الجنيد التي يقول فيها :

صارت مراتع للوحوش بُعَيْد أن ... كانت مقاصد حاضر أو باد

أقوت فلست ترى بها أحدا ... سوى الحرباء لائذة على الأعواد

قامت تخاطبني فعز كلامها ... فلكم سكوت معلن بمراد

وتدير عينيها تشير بذاك دو ... ر الدهر غير ما ترى في النادي

وتلونت ففهمت منه تلون الأحوال ... في الدنيا فعزَّ رقادي

لم لا أنادي في الطلول هذه ... الأطيار فوق غصونهن شوادي

ألوانها ما بين أبيض ناصع ... أو أحمر أو مشرب بسواد

تشدو وترقص في حلى أرياشها ... رقص القيان بحلة الأعياد

أسفي على طلل يمازحني متى ... ناديت خالفني على المعتاد

ناديته يا أي هذا النادي ... فأجابني يا أي هذا النادي

لما سكت دنت إلي حمامة ... مغبرة تبدو كلون رمادي

فسألتها أين الذين عهدتهم ... قالت لقد بلغوا على الميعاد

قلت أخبريني من تخلف بعدهم ... قالت تخلف دولة الأكراد

مالي أرى دول الكرام وضيعة ... قالت علتها دولة الأوغاد

فسألت ما خُلق الذين تخلفوا ... قالت ذوو فحش وذوو أحقاد

لا تكذبني يا حمامة واكشفي ... قالت ذوو حسد وذوو إفساد

هل يحسد الرجل الكبير صغيره ... قالت فذاك عادة الأكراد

فسألتها مالي أراك هزيلة ... قالت لكثرة لوعتي وسهادي

مـا بــال لونـك مغبـرا متغيـرا	قـالـت لبست علـيّ ثـوب حـداد
مـاذا وقـوفـك هاهنـا في وحشة	قـالـت لأنـدبـهـم علـى الأوتـــاد
هــلا قـفـوت إليهـم آثـارهـم	قـالـت قـعـــدت لقـلـة الأزواد

بين سكتو واستانبول :

حين كان الأمير طاهر (ﷺ) يخوض المعارك ضد الانجليز حتى سقط شهيدا مضرجا بدمائه الزكية سنة ١٩٠٦م ، كانت هناك معركة أخرى ضارية ، تدور هناك في حاضرة الدولة العلية بين السلطان عبد الحميد وبين أعدائه اليهود والصليبيين ، الذين تمكنوا في النهاية من الإطاحة بآخر السلاطين العظام سنة ١٩٠٨م ، صحيح أنهم لم يقدموا على قتله ، لكنهم تمكنوا من عزله بذلك الانقلاب الذي دبروه ، ترى هل من المصادفة البحتة أن يسقط الخليفتان في وقتين متقاربين ، لا يفصل بينهما إلا أقل من عامين ؟ إن هذا أمر مشكوك فيه ، وبخاصة إذا عرفنا أن أعداء الرجلين لا يختلفان ، الانجليز واليهود ، وبخاصة الأولون الذين لعبوا أكبر أدوار التاريخ لحرب الموحدين ، والكيد لهم.

ولكن هل أحس العالم الإسلامي بتلك الفاجعة التي حلت بالمسلمين في السودان الغربي ؟ الواقع أننا لا نرى نبضا لما حدث ، بل إن المسلمين لم يحسوا بما قام به الشيخ عثمان (ﷺ) من جهاد طويل وحرب مع ينف حتى قامت الخلافة إلا ما كان من مراسلة سلطان المغرب للشيخ ، وهو ما نتج عن إخبار سلطان أهير لأمير المغرب.

وإذا كان رد الفعل الإسلامي على إسقاط السلطان عبد الحميد ، وعلى إسقاط الخلافة العثمانية بشكل نهائي سنة ١٩٢٤م ، نقول إذا كان رد الفعل هنا كان ضعيفا ،

أو لم يكن على مستوى الحدث وخطورته فإنه لم يحدث رد فعل على إسقاط الخلافة في سكتو واستشهاد الأمير طاهر ، إلا في مشاركة أنصار المهدي والسنوسيين في المعركة ، أما باقي البلاد الإسلامية فإنها يبدو أن شيئا من الأخبار لم يصلها عن سكتو وما جرى لرجالها.

وأين حديث نبينا الكريم (ﷺ) : (المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) فهل أحس الجسد بما كان من أمر الخلافة ؟ هل أحس المسلمون بما وقع لإخوانهم في إفريقية الغربية ؟ لم يحدث شيء من ذلك على الإطلاق ، بل الأكثرية الساحقة من المسلمين ـ إلا القليل النادر ـ لا تعرف شيئا عن السودان الغربي ألبتة ، وربما لا تعرف شيئا من قريب أو بعيد عن خلافة سكتو أو مؤسسيها ، أو أي من رجالها ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والآن لقد سقط السلطان عبد الحميد والسلطان طاهر ، وسقط مع الثاني عشرات الآلاف من المسلمين الأخيار ، فماذا فعلت الأجيال الإسلامية التي جاءت بعدهم ؟ إن دماء المسلمين المجاهدين ليست رخيصة إلى هذا الحد الذي يجعل الناس تنسى ما فعله الأعداء بأسلافهم وأجدادهم.

إن علينا أن نذرف الدموع الغزار إحياء لذكرى شهداء الإسلام الأبرار ، لا نترك فرصة دون استحضارهم ، نتذكرهم دائما ، ونذكر أبناءنا بهم ، بالواجب علينا جميعا باتخاذ أعدائهم أعداء لنا ، لا نصادقهم ، ولا نركن إليهم ، أما الأعداء المقيمون على عداء المسلمين وحربهم فهم اليهود والنصارى ، وأذنابهم ومن يتولهم ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ [1] الظَّالِمِينَ) صدقت يا رب فيما قلت.

وإذا كان النصارى قد ملأوا الدنيا صراخا ، وزرعوا الأرض صلبانا ؛ فلا تذهب في أي مكان حتى ترى صليبهم كل هذا بسبب ما زعموا من قتل المسيح - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - فإن المسلمين مقصرون غاية التقصير في حق شهدائهم في كل مكان ، الذين يبلغون عشرات الملايين ، وربما يزيدون ، وبخاصة في القرنيين الأخريين حيث هاجت عليهم الكفار من كل مكان ، بعد تصدع حصونهم التي انهارت تماما في القرن الماضي ، ونقصد الدول الإسلامية التي صمدت في وجه أعدائها حتى سقطت مضرجة بدماء الموحدين.

فعلينا ألا ننسى شهداءنا ، وأن نسير على دربهم ، ولا ننسى أن نثأر لهم من قاتليهم ، ومهما طال الوقت وبعد الزمان فإن الدماء الإسلامية تبقى ساخنة تؤجج نار الثأر والقصاص من أعدائهم ، الذين يواصلون مسيرة أجدادهم في الكيد لأبناء محمد (ﷺ) والتنكيل بهم في أي مكان.

(١) ٥١ ، المائدة.

٤ ميـــراث الخلافـــة

لقد استطاع الإنجليز إسقاط الخلافة الإسلامية في السودان الغربي فهل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ إن الإمبراطوريات والدول تقوم وتعيش وتموت أو يقضى عليها ، ثم لا تخلف شيئا نافعا للبشر ، قد تترك مباني فخمة وقصورا ضخمة ، أو أصناما هنا وهناك تسمى بالتماثيل ، أو غير ذلك ولكن دول الإسلام تختلف كثيرا عن غيرها ، إنها إذا قامت فإنها تبغي للناس خيرا ، وتقيم العدل ، وتنشر الأمن والسلام ، باذلة الدماء الغالية والعرق الغزير من أجل إحقاق الحق ، وتحطيم الباطل ومطارد الفساد.

وإذا تكالب الأعداء على دولة إسلامية فأسقطوها فإنها تترك لبني البشر زادا فكريا ، وسلوكا أخلاقيا نظيفا ، يَشْرُف به الإنسان في كل مكان ، لا تلطخ تاريخها بالعار بالأخلاق الحيوانية والمجازر الدموية ، كما فعلت غيرها في القديم والحديث ، والتاريخ خير شاهد ، والقارئ في غنى عن الأمثلة ، فماذا تركت خلافة سكتو ، وما هو ميراثها ؟ لقد تركت تجربة إسلامية ، وإشعاعا جهاديا ، وتراثا عربيا ، وهاك التفصيل :

١ـ التجربة الإسلامية : تقوم حركة إسلامية ـ يف مكان ما ـ ثم تشق طريقها نحو إقامة شرع الله ، تصادف العقبات والمشكلات ، وتجابه أعداء الله ، وقد تنجح ـ بإرادة ربها ونصره ـ وربما لا توفق ، وإذا وفقها الله ـ لجدارتها بالقيادة والخلافة ـ وأقامت دولة العدل الإلهي ، فإنها في جميع الأحوال تجربة حية للمسلمين جميعا ، إذا استطاعت أن تقيم الدولة كان علينا أن نفيد من عوامل نجاحها ، نأخذ منها ما يتفق وظروف الزمان الذي نعيشه ، وإذا كانت الأخرى

كان علينا أن ندرس مواطن التقصير حتى نتلافاها في عملنا ، إذا تمكن الأعداء من القضاء على دولـة إسلامية فـي أي مكـان فـلا منـاص مـن معرفـة الأسباب ، حتى لا نلدغ من جحر مرتين.

والحركة الإسلامية التي قادها الشيخ عثمـان بن فـودي حتـى تمكّن مـن إقامـة إمبراطوريـة إسـلامية ، هـي تجربـة فـذة ، هـي الآن ملـك المـسلمين ، لا فـي إفريقيـة فحسب ، بل في العالم أجمـع ، هذه التجربـة فيهـا دروس نافعـة فـي الـدعوة والـهجـرة والجهـاد ، فـي معاملـة الجمـاهير والـسلاطين ، فـي التعامـل مـع القـوى الإسـلامية ، وهكذا الحركات الإسلامية والثورات والدول في كل زمـان ومكـان ، سـواء أنجحت أم فشلت ، وهي تجارب مفيدة ونافعة للمسلمين.

٢- الإشعاع الجهـادي : خاضت الجماعة ومؤسسها ابن فـودي جهـادا متواصلا ضد السلاطين ، وبخاصة الطاغية ينف كما سبق ، وقد كان لهذا الجهـاد العظيـم أثر كبير على إفريقية عموما ، وعلـى وسطها وشرقها وغربهـا بوجـه خـاص ، وذلـك عن طريـق آرائـه وتعاليمـه التـي نـشرها فـي حياتـه ، وسـار علـى هداها أبنـاؤه وخلفـاؤه ، فأعجب بهـا بعـض العلمـاء العـاملين فمنـهم مـن وفـد بنفسه ، وشارك في الجهاد مثل الشيخ عمر الفوتي ، ومنهم من استفاد من تعاليمـه عن طريق أتباعه وكتبه مثل محمد أحمد المهدي ، وما يزال جهادهم مستمرا ، وإن كان أقل فاعلية وتأثيرا مما كان عليه أثناء حياة المجاهدين أنفسهم.

الشيخ عمر الفوتي (١٧٩٦م - ١٨٦٤م) : وليفـي لـوار - التـي تقـع الآن فـي السنغال - وهو من قبائل الفلاني ، حفظ القرآن الكريم وهو فـي الثانيـة عشرة مـن عمره ، ثم رحل فيطلب العلم.

وفـي أثنـاء رحلاتـه وتجوالـه تأكد مـن استمرارية الحـروب الـصليبية ، التـي تـدعمها قـوى الاسـتكبار العـالمي ، ويظهـر ذلـك مـن الحمـلات الـسكرية التـي تـشنها زعيمة الصليبية فرنسا ، تساندها بريطانيا ، ولقد تأمل الشيخ عمر ما حوله فوجد :

أ ـ بُعْد الناس عن الإسلام.

ب ـ سيطرة الحكام غير المسلمين ، أو المنـافقين على كل السلطات في العالم الإسلامي.

جـ ـ سيطرة العصبية القبلية على المسلمين ، بدلا من العقيدة الإسلامية.

د ـ قصر أهداف المسلمين اسميا ، والتـي تـدور حـول مـلء البطن وإشباع الفرج كفايـة فـي حـد ذاتهـا ، وأثـر ذلـك فـي معظـم أعمـالهم ، بمـا فـي ذلـك تعـاليمهم وتعليمهم.

هـ ـ تعاون الحكام الكفار والمنافقين مع الاستعمار.

و ـ الغفلـة التامـة مـن غالبيـة العلمـاء الـذين أحبـوا الحيـاة الـدنيا ، وكرهـوا الجهـاد وبغضوه للنـاس.

وحينئذ قـرر الـشيخ الإصلاح ، لكن كيف ؟ لقد بـدأ نـشاطه بالـسفر إلـى الحـج سـنة ١٨٢٠م ، وفـي طريقـه عـرج علـى سـكتو ، ثـم فـزان وجغبـوب حيـث كـان السنوسيون في أوج جهادهم ، ثـم السودان الـذي كـان يخـوض كفاحـا جـادا للخـلاص مـن نفـس الأمـراض والمـشكلات الـسياسية التـي يعيـشها سـكان غـرب إفريقيـة ، المشكلات التي تولدت عن القيادات العملية والعلمـاء المنـافقين ، واسـتمر الـشيخ فـي تنقله حتى وصل إلى مكة سنة ١٨٢٨م.

وفي البلد الحرام التقى بالشيخ محمد الغالي خليفة الطريقة التجانية بالحجاز ، ومكث معه ثلاث سنوات بعد أن تم تعيينه خليفة للتيجانيـة فـي غـرب إفريقيـة ، وقبـل ذلك إيمانـا منه بـأن قبولـه بهذا الخط الـصوفي يمكنـه مـن تجميـع النـاس حـول منـهج

إسلامي ، وخاصة أن التيجانية كانت منتشرة بين سكان فوتـاتورو وجـالون ، وبـاقي دول إفريقية الغربية عموما.

وفي طريق عودته من الحجاز زار أرض الكنانـة ، ومكث فيهـا زمنـا قصيرا ، ثم سـافر إلـى السودان ، مـارا بهـا إلـى أرض برنـو حتـى وصـل إلـى سكتو مـرة أخـرى سنة ١٨٣٣م ، ومكث فترة تزيد عن الخمس سنوات ، حيث شارك فـي الجهـاد ، بقصد إعداد نفسه للأمانـة التي قرر حملها ، وفي سكتو درس الشيخ أسلوب الحروب وتمرن عليهـا ، وكذلك درس تقسم البلاد إلى دار حرب ودار إسلام دراسة عملية أيضا.

وبدأ الرجل عودته إلى بلده سنة ١٨٣٨م ، وفي طريقه كان يدعو إلى :

أ - التمسك بكتاب الله وسنـة رسولـه (ﷺ).

ب- الرجوع إلى الشريعة المطهرة كمنـهج وسياسة حكم.

جـ- ترك العادات التي تتنافى مع ما جاء به الرسول (ﷺ).

د - ضرورة دراسة القرآن والسنة على علماء عاملين.

هـ- ضرورة العمل الجاد على الأمر بالمعروف والنـهي عن المنكر.

و- ضرورة وضع العلماء علمهم في خدمة المسلمين.

وقد بدأ الجهاد في بلاده سنة ١٢٦٨هـ بتأسيس مركزه الإسلامي في جكنكو ، وقسم المركز إلى شعبين :

أ - شعبة الدعوة والفكر.

ب- شـعبة التدريس العسكري والـصناعات والحاجيـات الأخـرى ، تحت تـصور : (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ...) الآية [1].

---

(١) ٦٠ / الأنفال.

يبدو أن الرجل تأثر في هذا بالسنوسين عندما زارهم في الجغبوب ، ولتدعيم فكرته اعتمد كثيرا على مؤلفات عثمان بن فودي وأخيه عبد الله ومحمد بللو ، إضافة إلى مؤلفاته الخاصة :

أ - رماح حزب الرحيم وشرحه.

ب- سيوف السعيد.

جـ- سفينة السعادة.

د - القصائد العشرينية وتخميسها.

واستمر في الجهاد إلى أن استشهد سنة ١٢٨٠هـ ، ثم خلفه أحمد تال التيجاني الذي استشهد هو الآخر على يد الفرنسيين ومساعديهم من منافقي المسلمين ، وذلك سنة ١٨٩٠م ، ثم أكمل المسيرة الجهادية الشيخ الشريف الأخضر (١٨٨٣م - ١٩٤٣م) الذي أعلن معارضته للجيش الفرنسي والسلطة الفرنسية التي طردته ، فأخذ يتجول حتى استقر به المطاف في نورو - التي تقع الآن في الحدود السنغالية المالية الموريتانية - سنة ١٩٠٠م ، وأخذ يبشر بالتيجانية وكثر أتباعه ، فخافه الفرنسيون ، ونتج عن ذلك أن نفوه إلى داكار ، وعلى يده تربى الشيخ أحمد حماه الله ، مؤسس الحماية الذي واصل عداءه للفرنسيين والمتعاونين معهم ، فشنت عليه السلطات الفرنسية حملة شعواء عنيفة للأسباب التالية :

١- تهديده للقيادات التيجانية التي توالي الفرنسيين.

٢- كراهيته ومناهضته للفرنسيين.

٣- محاولته بث روح الجهاد التي نشرها الشهيد عمر الفوتي.

٤- تأييد المسلمين لحركته في كل مكان من السنغال وموريتانيا ومالي.

ولكن القوات الفرنسية تمكنت ـ بالتعاون مع المنافقين ـ من القضاء على حركته ، إلا أن أتباعه واصلوا المسيرة الجهادية ، وإن كان بأسلوب يختلف كثيرا عما كان عيه زعيمهم ، لما أدخلوه من توجيهات غير إسلامية في كثير من الأحيان.

الحركة المهدية : ظهر الشيخ عثمان في السودان الغربي ، وأبرز جوانب عديدة ، ليس من السهل أن تظهر في إنسان عادي ، مما جعل بعض الناس يعتقدون بأنه المهدي المنتظر ، فكتب كتابا سماه : (تحذير الإخوان من ادعاء المهدية آخر الزمان) نفي فيه بأنه المهدي قائلا : (إن المهدي سيظهر في الشرق ، وبالتحديد في نيل النصارى [1] ، وإذا كنت حيا تبعته ، وإذا لم أكن حيا فأرجوا من المسلمين تأييده والهجرة إليه).

وقد كتب كثيرا من العلماء عن المهدي ، وعلى رأسهم محمد بللو الذي ذكر أن من علامات ما يلي :

١- تنشب حروب ومعارك في نهر غفار.
٢- ويظهر مرض معين في مصر يموت فيه كثير من الناس.
٣- ويغزو السودانيون أرض الحجاز.
٤- ويظهر بعض الناس عداء لمصر ، وهم من الغرب.
٥- ويثور البربر ضد سوريا (الشام).
٦- ويثمر العرب ضد الأردن (الشام).
٧- تظهر عواصف سوداء وعنف في بغداد.
٨- وتنشب حرب في بغداد يموت فيها كثير من الناس.

---

(١) نهر النيل.

٩- يسمع صوت في جوف الليل في رمضان ، وكذلك في شهر ذي الحجة ، منذرا بوقوع حرب عظيمة ، حتى أنهم لا يستطيعون أداء فريضة الحج في ذلك العام.

١٠- يظهر رجل من كندة في أرض اليمن ، وهو أعرج وكذلك يظهر آخر بالمغرب ، وله عرجه أيضا.

١١- وتقع حرب يموت فيها ثلاث العالم ، ويقتل فيها كثير من الأبرياء.

١٢- وعندها يظهر المهدي لإنقاذ المسلمين مما هم فيه.

ولم يكتف ابن فودي بدعوة المسلمين إلى الهجرة للمهدي متى ظهر ، بل رسم لهم خط سيرهم ، الذي بدأه بسكتو وختمه بنيل النصارى ، ثم قال : إذا جاء هذا الوقت لا يخفي على أحد ، بل هو كنار على علم ، ومن علامات ذلك :

١- إمساك المطر حتى أن الشخص ليحفر في بحرنا هذا - أي نهر سكتو - بئرا ولا يدرك الماء.

٢- هيجان الفتن في أرض المغرب حتى أنهم يهاجرون إلى المشرق فيجدونا قد سبقناهم إلى الرحيل.

ويواصل أحمد الرفاعي بن عثمان الكتابة على علامات المهدي قائلا :

١- يخرج الله الحياء من عيون النساء وعيون الرجال.

٢- ويسلب الله الحكم من القضاة.

٣- ويجور الأمراء.

٤- ويجعل الله العداوة بين الناس من غير دليل.

٥- ويؤمر الظلمة والفسدة على رقاب المسلمين ، فيغلبونهم ويملكونهم ، ويوجهونهم نحو طريقهم الذي يريدون ، ويظل هذا العذاب إلى أن ينقسم

النـاس ثلاثـة أقسام ، فاثنـان منهم يتبعون طريـق الحكـام الظلمـة ، والآخـر يـرفض طاعـة الحكـام الظلمـة ، فيقـع هذا القسم في فتنـة ، ويـصبر عليهـا ، ويكثر بكاء المسلمين حتى يرسل الله عبدا من عباده من الشرق ، حيث يعلن الجهاد ، الذي يشمل المشرق والمغرب ، ويخافه الكفار ، والعبد الصالح هو الإمام المهدي.

٦- وترى القبب على مقابر المساكين والأغنياء منتشرة في أنحاء دنيا المسلمين.

٧- وتظهر النساء في الأسواق ، بدون حاجة شرعية وسبب شرعي.

٨- وترى العلماء قد أضاعوا العلم ، وسكتوا عن الباطل حتى أنك لن ترى فرقا بين العالم والجاهل.

كل هذه الكتابـات والآراء أدت إلـى هجـرات جماعيـة إلـى المشرق بحثـا عـن المهدي ، وعلـى رأس المهـاجرين الشيخ حيـاة بـن سـعيد بـن محمـد بللـو ، ويبـدو أن الشيخ والمهدي كان على صلة مع بعضهما قبل إعلان الثـورة المهديـة فـي السـودان سنة ١٨٤٤م ، واستمرت ثلاث عشرة سنة هزت فيها أركان الاستكبار العالمي.

على أية حال فقد عين المهدي الشيخ حياة خليفة له وللأنصار [١] في الغروب ، فكان خير عون لهم ، واستمر الشيخ في تعاونـه حتى بعد وفـاة المهدي سنة ١٨٨٥م ، مواصلا إمداد عبد الله محمد آدم خليفـة المهدي بـالجيش والعتـاد ،كمـا واصل جهـاده في غرب إفريقيـة إلى أن استشهد مع أبنائه سنة ١٨٩٨م.

وبقي من أبنائه فقط الشيخ سعيد الذي واصل جهاده في غرب إفريقيـة ضد الإنجليز والفرنسيين والألمان ، إلى أن اعتقلته السلطات الاستعمارية سنة ١٩٢٣م

(١) أنصار المهدي.

بغية القضاء على حركة المهدي في ذلك الجزء من القارة ، واستمر في الاعتقال ما بين كنو في شمال نيجيريا ، وبويا في الكاميرون ، ولوكوجا في نيجيريا أيضا ، ثم أخيرا كنو حيث أفرج عنه سنة ١٩٥٩م ، وكان اعتقاله خيرا لجماعته ، فقد حافظوا على تماسكوا بسبب ابتلائهم ، بالإعدامات والاعتقالات ، وما يزالون أقوياء ، ويقدر عددهم في وسط إفريقية وشرقها وغربها بنحو تسعة ملايين ، إلا أنهم شبه سلبيين.

ولقد نظم الشيخ حياة قصيدة بالفلانية وصف فيه كل ما يتعلق بالمهدي والمهدية ملاكزا على أهداف المهدي الإصلاحية ، وهي :

١- إخراج المستعمر من العالم الإسلامي عامة ، والسودان خاصة لسهل الإصلاح بين المجتمعات.

٢- ضرورة إعادة مفهوم الشهادتين إلى دورهما العملي والحركي ، كما فهمهما الرسول (ﷺ).

٣- ضرورة وحدة السودان تحت نظام منطلق من الإسلام كوسيلة لوحدة المسلمين.

٤- توحيد المذاهب والفرق في منهج واحد ، ولو أدى ذلك إلى إلغائها.

٥- تنفيذ الجوانب العملية في باقي الأركان الإسلامية بهدف :

(أ) بناء الفرد المسلم القوى.

(ب) لكي يساهم هذا الفرد في بناء الجماعة المؤمنة القوية.

(ج) لتساهم هذه الجماعة في امتداد الدعوة الإسلامية إلى الأمام ، حتى يعم الإسلام العالم كله.

(د) للفوز بسعادة الدارين.

٦- الجهاد فريضة من الفرائض الإسلامية المهمة ، لابد من أدائها كفرض عين على كل مسلم ، في حالة الخطر الخارجي ، أو الداخلي المتمثل في الشرك.

صفوة القول أن الحركة الإسلامية التي قادها ابن فودي كان لها أثر كبير في بعث روح الجهاد لدى المسلمين في السودان غربه وشرقه كما رأينا في حركة الشيخ عمر الفوتي في الغرب ، والثورة المهدية في الشرق ، وهما مثالان فقط لما أطلقنا عليه الإشعاع الجهادي.

٣- <u>التراث [1] العربي</u> : لقد تركت خلافة سكتو للمسلمين مؤلفات عربية قيمة في شتى العوم والمعارف ، مثل النحو والصرف والتفسير والفقه والتصوف والسياسة الشرعية ... إلخ وهي زاد إسلامي مفيد للموحدين في العالم أجمع ، لم يطبع منه إلا القليل النادر ، والباقي ما يزال مخطوطا ، يشكو إلى الله عدم النشر والتحقيق ، ويدعو علماء العربية المخلصين ودارسيها إلى إحيائه وبعثه ، فهو جزء من التراث العربي الإسلامي ، لا يجوز إهماله.

وأبرز كتاب الخلافة ومفكريها ، هم المؤسسون عثمان بن فودي ، وأخوه عبد الله ، وابنه محمد بللو ، وهاك نبذة عن كل منهم وعن مؤلفاته :

(أ) <u>أمير المؤمنين عثمان بن فودي</u> : صنف ما يزيد عن مائة كتاب في شتى العلوم والمعارف منها :

١- أسانيد الفقير ، موضوعه علم السند وضرورته للمسلمين في الماضي والحاضر.

٢- أصول العدل لولاة الأمر وأهل الفضل ، موضوعه سياسة الولاة في ولايتهم.

٣- إعداد الراعي إلى دين الله ، وموضوعه الدعوة وأسلوب الدعوة.

---

(١) أي المكتوب باللغة العربية.

٤- اقتباس العلم ، وموضوعه التعليم وضرورة إصلاح النية فيه.
٥- الأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن موالاة الكافرين ، وموضوعه سياسة المسلمين ومعاملاتهم العقائدية والسياسية والإدارية مع غير المسلمين.
٦- بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في الملة المحمدية.
٧- بيان وجوب الهجرة على العباد.
٨- تعليم الإخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان ، وموضوعه سياسة الإسلام تجاه الملوك والحكام الذين يرفضون تطبيق الكتاب والسنة ، ومفهوم التكفير والكفر وعدمه.
٩- تمييز المسلمين من الكافرين ، وموضوعه تحديد مفهوم أهل السنة فيما يلي :

(أ) السير على نهج الرسول (ﷺ) في عبادته وجهاده وتوجيهه ، وغير ذلك من شئون الحياة والممات.
(ب) عدم النفاق حبا في رحمة المنافقين.
(ج) عدم مناصرة الكافر على المسلم.
(د) حب الاستشهاد في سبيل الله ، وتفضيل الموت على الحياة في سبيل الشيطان.
(هـ) الحب لله ، والكراهية لله.
(و) هجر أهل البدع وأعمالهم.
(ز) لا يموتون إلا وفي عنقهم بيعة لإمام.

فهؤلاء هم أهل السنة ، وكل من كان على خلاف ذلك فهو من أهل البدع الشيطانية ، وليس من أهل السنة.

١٠ـ تنبيه الحكام ، موضوعه سياسة تنظيم الدولة.

١١ـ توقيف المسلمين على مذاهب المجتهدين الذين كانوا من أهل السنة الموفقين ، موضوعه إيضاح المذاهب ودور العلماء فيها تقليدا أو اجتهادا.

١٢ـ الجمع وموضوعه تحذير المسلمين الذين ينظرون في كتب المتكلمين من إساءة الظن بعقائد عوام المسلمين.

١٣ـ الجهاد.

١٤ـ حكم جهال بلاد الهوسا.

١٥ـ سراج الإخوان في أهم ما يختلج إليه أهل الزمان ، وموضوعه علماء السوء وعلماء الرحمن ، وجهاد قوم شبه مسلمين.

١٦ـ سوق الأمة إلى إتباع السنة ، موضوعه إعادة المسلمين إلى منهج الكتاب والسنة.

١٧ـ طريق الجنة ، وموضوعه العلوم التي تقوم المسلم إلى الجنة وطرق تحصيلها.

١٨ـ الفرق بين ولاية أهل الإسلام وبين ولاية أهل الكفر ، وموضوعه :
الإدارة وبيان سياسة الحكم بين المسلمين وغير المسلمين ،
مع شرح الخطة الاقتصادية للدولة الإسلامية

١٩ـ كف الإخوان عن التعرض لأهل الإيمان ، موضوعه النهي عن التعرض لأهل الإيمان بالقذف أو الطعن.

٢٠ـ مسائل مهمة ، موضوعه مسائل فقهية يعيشها المسلم في الماضي والحاضر وحلولها ، على ضوء الكتاب والسنة ، كأكل الميتة ، وتحليل الزوجة المطلقة ثلاثا ، والقسمة في البيت ، والإنفاق المنزلي ، والتفاضل بين الزوجات ، وإخراج الزكاة والحج والصوم ... إلخ.

٢١- وثيقة الجواب على سؤال دليل منع خروج النساء ، موضوعه الحجاب وما يدور حوله من القرآن والسنة.

٢٢- وثيقة أهل السودان ومن شاء الله من الإخوان ، وموضوعه كيفية تأسيس دار الإسلام ، ودور الإمام في الخلافة الإسلامية.

(ب) **السلطان محمد بللو بن عثمان** : اتسمت كتاباته بالطابع التاريخي والسياسي والتربوي ، إضافة إلى الرد على النزاعات الفكرية والعقائدية التي واجهها هو أو حكام ولاياته ، وساهم كذلك في الطب مثل الموارد النبوية والمسائل الطبية ، والقول السنا في الطب ، وعجالة لراكب ، وإفادة الإخوان على أدوية الديدان ، والقول المنثور في أدوية الباسور ، ونبذة في علاج النفس ، ولم ينسى علم الفلك والأسرار والشعوذة ، بل شجع على تعليم الطب حفاظا على صحة المسلمين ، بهدف إبعاد مجتمعه عن المعتقدات الخرافية.

لقد كتب السلطان في معظم مشكلات عصره ، حتى أنه ليخيل إلى المرء أنه كان متفرغا للتأليف والاطلاع ، فهو القائل : (قرأت عشرين ألف كتاب وثلاثمائة ، غير ما قرأت على شيوخي) وللقارئ أن يعجب لهذا الرجل : كيف استطاع تأليف أكثر من مائة وخمسين كتابا ، في الوقت الذي كان فيه قائد العشرات من المعارك ، إضافة إلى منصب الخلافة ما بين (١٨١٧ - ١٨٣٧م) كيف تم كل هذا ؟ إنها بركات الإسلام العظيم.

ومن كتبه المهمة إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، وهو وثيقة تاريخية وجغرافية شديدة الأهمية ، وذلك في كل ما يختص بالسودان شرقه وغربه ،

وبخاصة الأحداث التي عاصرها واشترك فيها ، ومن كتبه الأخرى روضة الأفكار ومفتاح السداد ، والإنصاف في ذكر مسائل الخلاف .... الخ.

توفي (ﷺ) في برنو التي بناها على بعد ثلاثين ميلا شرق العاصمة سكتو ، التي أوصى ألا ينقل إليها بعد وفاته ، لأنه أراد أن يقيم في موضع رباطه ويموت ويدفن فيه ، لما علم من أن المرابط إذا توفي في رباطه ودُفِن فيه فإنه لا يطوى سجله ، ويكتب له ملكان يكتب له أثناء حياته من الأجر إلى يوم القيامة.

(جـ) **<u>الأستاذ عبد الله بن فودي</u>** : صنف أكثر من مائتي كتاب ، فهو من عباقرة العربية ، ويظهر ذلك في نظمه للنحو في أكثر من أربعة آلاف بيت في كتابه البحر المحيط ، ونظمه للصرف في ألف وأربعمائة بيت ، في كتابه الحصن الرصين ، كما أن الرجل يعتبر أيضا من عباقرة القانون الإسلامي والسياسة الشرعية ، وهو ما يظهر في كتبه الضياءات ، كضياء السياسة ، وضياء الحكام ، وضياء الخلفاء ، وغيرها ، هذا بالإضافة إلى أنه عالم بارع في التفسير والأدب ، وبالاختصار فقد كتب في معظم شئون المسلمين ولجيوشه الإسلامية.

أما ابن أخيه محمد بللو فقال عنه : (وزيره ـ يقصد وزير أبيه عثمان ـ الأكبر ، وركنه الأبهر ، شقيقة الأستاذ أبو محمد ـ عبد الله بن فودي ، والعالم العلامة ، والنظار الفهامة ، شيخنا البركة ، والمصنف المفسر المحدث ، الراوية الحافظ ، والمقرئ السجود ، النحوي ، اللغوي ، البياني المتفنن ، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب ، الراتع من كل علم بأوفر نصيب ، الشهير الرحالة ، آخر السادات الأعلام ، وخاتمة النظار ، ذو التحقيقات البديعة ، والأبحاث الأنيقة الغريبة ، المتفق على

علمه وهديه ، ممن قل ، سماع الزمان بمثله ، له القدم الراسخة والرحب الواسع في كل مشكل ، سيف الله على ذي البدعة ، معدن الصدق والعلم ، وزناد الفهم ، كان آية في تحقيق العلوم ، مفرط الاطلاع على المنقول في الفنون ، جامع شتات العلوم ، فاضل وقته ، وأجوبة أوانه).

ومن مؤلفاته :

١- نيل السول [1] من تفاسير الرسول ، وهو تلخيص لما ختم به السيوطي كتابه الإتقان في علوم القرآن ، ويتضمن أقوال النبي (ﷺ) في تفسير بعض الآيات ، وتناول عبد الله في نهاية كتابه تطور التفسير وأشهر المفسرين.

٢- ضياء التأويل في معاني التنزيل ، وهو من أكبر كتبه وأروعها ، وهو تفسير للقرآن كله ألفه معتمدا على مصادر قيمة في التفسير.

٣- كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن ، وهو تلخيص لضياء التأويل.

٤- المفتاح للتفسير : وهو نظم لمباحث الإتقان للسيوطي.

٥- سلالة المفتاح : وهو تلخيص منظوم أيضا للمفتاح.

٦- الفرائد الجليلة وسائط الفوائد الجميلة : في علوم القرآن ، وهو منظوم.

٧- منن المنان : في التصوف ، منظوم أيضا ، وله عليه شرح يسمى شكر الإحسان على منن المنان.

٨- العقيدة السنوسية الوسطى : منظوم في التوحيد.

٩- سراج جامع البخاري : منظوم في الحديث.

١٠- مصباح الراوي : منظوم في الحديث أيضا.

١١- ألفية الأصول : منظوم في أصول الفقه.

---

(١) السؤل ، أي ما يسأله المرء ويتمناه.

١٢ـ ضوء المصلي : منظوم في الفقه.
١٣ـ تزيين الورقات.

ولم يقتصر أمر التأليف على الثلاثة المؤسسين السابق ذكر بعض تصانيفهم ، بل شاركهم الوزراء والولاة الذين كتبوا كثيرا في التاريخ والعلوم الأخرى ، وبخاصة في السياسة الشرعية ، وكتب معاصروهم من العلماء في شتى المواضيع ، بما في ذلك الحساب والجغرافيا والطب.

وهكذا تركت لنا الخلافة الإسلامية تراثا عظيما ، يبقى خالدا ، يذكر المسلمين في أرجاء العالم بتلك الإمبراطورية العظيمة ، وبمن كانوا سببا في إسقاطها ، وترسم لهم الطريق مرة أخرى لعودة الخلافة الإسلامية العالمية ، التي يناضل من أجلها الشرفاء المجاهدون في كل ركن من أركان المعمورة ، فإن مليار مسلم لا يصح أن يكون هَمَلا بغير دولة تحميهم من الكلاب المسعورة التي تحاول أن تنهش لحم الأمة في كل مكان ، في الشرق والغرب ، في العالم الأول والثاني ، والثالث أيضا ، فيا أمة الإسلام ، الجهادَ الجهادَ ، الخلافة الخلافة ، نبكي الخلافة في كل مكان ، من أجلها نبذل كل شيء ، الغالي منه والنفيس.

الخاتمــــة

(أ) نيجيريــا بعــد الاســتقلال

نظـرة عابــرة

إن الحاضر هو امتداد طبيعي للماضي ، وهذا الحاضر لا يمكن فهمـه ، أو فهـم كثير من ظواهره دون الرجوع إلى ذلك الماضي الذي يترك بصمات واضحة على حاضرنا الذي نعيشه اليوم.

ولقد تركت خلافة سكتو آثارها العميقة على السودان - غربه وشرقه - بشكل عام ، وعلى تلك البلاد التي كانت تحت حكمها ، ولقد كان لنيجيريا القدح المُعَلَّى من أرض الخلافة ، بما في ذلك العاصمة سكتو ، ولذا رأينا كتابة هذه الخاتمة ، نتلمس فيها بصمات الخلافة في أرض نيجيريا الحرة ، كما ينبغي وصل حاضر هذا البلد بماضيه الإسلامي الجهادي ، ليكون طريقا نحو غد مشرق نحو الإسلام العظيم.

ولا يرحل المستعمرون قبل اطمئنانهم تماما إلى نزع الفتيل الإسلامي من الشعوب ، كما سبق أن ذكرنا ، أو بمعنى آخر التأكد من عدم عودة الحكم الإسلامي ، وإنهاء وجود العناصر الإسلامية ، أو على الأقل القضاء على قوتها وخطورتها.

وبعد أن يتم للمستعمر ما يريد فإنه يخرج معطيا دفة الحكم إلى عملائه وأعوانه ومُخْلصيه ، الذين يشترط فيهم إلى جانب الولاء والإخلاص أن يكونوا على درجة من القوة والبطش تمكنهم مع قمع الحركة الإسلامية الصحيحة التي يخشى منها ، ومن عملها لإعادة الإسلام إلى الحكم ، وإقامة شرع الله.

وفي نيجيريا لم تكتف بريطانيا العظمي بإسقاط الخلافة ، وقتل الخلافة محمد الطاهر ، والمجازر التي راع ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين الأبرياء ، ومن العجيب يا سادة يا كرام أن السلطان محمد بللو - عليه من الله سحائب الرحمة والرضوان - كان قد استقبل الوفد الإنجليزي القادم من البرنو بقيادة الرائد كْلابَتُن ، وقام له ولوفده بواجب الضيافة والإكرام ، وعقد معه معاهدة تجارية باسم ملك بريطانيا ، كما تبادل معه الهدايا (1) ، ولكن ترى أخي المسلم :

هل يرقب الكفار فينا إلا ولا ذمة ؟ إن هذا الأمر لم يَجُد به التاريخ على الإطلاق ، فالقوم دائما ، عهودهم غير منكوثة مع المسلمين ، متمسكون دائما بالمواثيق التي أخذوها على أنفسهم بقتل الموحدين أينما وجدوا ، فهم على المسلمين حرب دائما وأبدا.

نقول : لم تكتف بريطانيا بكل ما سبق ، وإنما أضافت جرائم أخرى منها :

١- زرع العملاء المحليين : حاول المستعمرون القضاء على كل ما يتصل بالإسلام في نيجيريا - وفي غيرها - فضربوا الثقافة العربية بثقافتهم الإنجليزية ، وهدموا بنيان علماء الإسلام بمعاول قساوسة الصليب ، وبدلوا الشريعة بالقوانين الجاهلية ، وطاردوا الفقهاء من الدواوين ، وأحلوا محلهم المحامين ، وأغروا طلاب العربية بطلاب اللغة الإنجليزية ، حيث تغلغلوا في القرى والأرياف ، واقتنصوا أبناء الفلاحين الفقراء وأغروهم بالأموال والأعراض ، وأرسلوا من آمن منهم بالصليب إلى أوربا ، ليكملوا تعليمهم ، ويرجعوا إلى بلادهم زعماء معتبرين لدى العامة والخاصة ، فاغترت طائفة من أبناء المسلمين بتلك المظاهر

(1) كان ذلك عام ١٨٣٦م.

فتنصروا ، ثم جعلهم الاستعمار طليعة ومقدمة ، واعتبرهم أهل الحل والعقد.

أما القابضون على دينهم فقد بقوا خارج الحلبة ، ضعفاء مساكين ، متروكين في زوايا الإهمال ، يعيشون على هامش الحياة ، فلا عجب إذا حارب الاستعمار التعليم العربي بالتعليم الغربي بغية تحويل المسلمين عن دينهم ، أو تسميم مناهج التعليم نفسه ، حتى غدا بعض ممن يحسبون على الإسلام حربا على الإسلام وعلى ثقافته ، لترسخ أقدام المستعمرين الصليبيين على أنقاض دين الله.

وهكذا لا يترك المستعمر بلدا حتى يزرع فيه عملاءه من النصارى أو من المنافقين ـ الذين يحسبون على الإسلام ـ فإذا ما مكن لهؤلاء القوم واطمأن لهم ، وحان رحيله فإن الذي يتغير في الأمر كله هو الأسماء والألوان والأشكال والقشور فقط ، والجوهر ثابت لا يتغير ، بل إن المؤسف حقا أن كثيرا من الأمم المستقلة ذاقت من أبنائها أكثر مما أذاقها الاستعمار نفسه ، مما جعلها تلعن الاستقلال ، واليوم الذي استقلت فيه.

ومن أسف أن الشواهد على هذا كثيرة ، ولا تحصى ، روديسيا العنصرية التي كانت تحكمها الأقلية البيضاء تحولت إلى زيمبابوي يحكمها أبناؤها الأفارقة ، فماذا كانت النتيجة ؟ تحارب أبناء الوطن الواحد ، رفقاء السلاح ، وبدأ القمع والاضطهاد ، وكان من حق البعض أن يترحم على عهد الأقلية البيضاء.

وما أمر مصر من الناس ببعيد ، فقد كان الحاكمون من أبناء الوطن ـ أحيانا ـ أشد على إخوانهم من الانجليز الاستعماريين.

ولا يعنـي هذا أننـا نريـد لعهـود الاستعمار القديم أن تعود ، معاذ الله ، ولكننـا نضرع إلى الله أن تـدخل الرحمـة قلـوب الحـاكمين فـي عالمنـا العربـي والإسلامي فـي تعاملهم مع أبناء وطنهم ، أو أن يدكدك الله على المتجبرين منهم الأرض.

٢- إيجاد الحزبية المفرقة : علم الاستعمار مـا للأحزاب السياسية من أثر كبير فـي تشتيت شمل الأمة ، وما لها من معاول في تمزيق وحدتها ، وغرس الضغائن والأحقـاد فـي نفـوس أبنائهـا ، وأدرك مـا تثيـره المعـارك الانتخابيـة مـن التنـافس والتعصب والوعود الخلابة وانتشار الرشوة لشراء الضمائر والأصوات ، ولـذا لم يتردد الاستعمار في تقدم الاستقلال إلى الأفارقة ، ولكن ليس قبل زرع العملاء والحزبية التي تفرق الأمم والشعوب.

ومـن ثـم نـص دستور البلاد علـى تقسيم نيجيريـا إلـى ثلاثـة أقـاليم ، الـشرقي والغربـي والـشمالي ، لكـل إقـليم حكومـة ورئـيس لهـا ، ووزراء ، والكـل تحـت إمـرة الحكومة المركزية في لاغوس. ومن أجل الوصول إلى كراسي هذه الحكومـات تألفت الأحزاب السياسية الآتية :

أ - <u>حـزب المـؤتمر القـومي النيجيـري</u> : تأسـس عـام ١٩٤٥م ، ثـم تحـالف مـع الحزب الديمقراطي بزعامـة هابـارت مـاكولي الـذي أسـس عـام ١٩٣١م ، أمـا رئيس حزب المؤتمر فقد كان المستر ازيكـوي مـن قبـائل الإيبـو ، أكمـل تعليمـه وإعداده فـي أمريكـا ، ثـم عـاد إلـى نيجيريـا عـام ١٩٣٧م ، وبـدأ يـنفخ روح القومية في نفوس بني الإيبو ، حتى صار زعيمـا بارزا في غرب إفريقية.

تفضيل أمريكـا علـى سـائر المستعمرين ، وعلـى التسامح الـديني ، والإشـادة بأمجاد السلف المسلم في غرب إفريقية عموما ، وفـي نيجيريـا خصوصـا ، لـذا انـدفع

إليه أكثر الشباب المسلم في شمال نيجيريا ، فضلا عن أبناء القبائل الأخرى في الشرق الغرب.

أما أن هذا الحزب كان يقوم على الإنحياز لأمريكا فإن هذا ليس غريبا على زعيمه الذي تربى في هذا البلد وأعد فيه ، وكانت سمعته لا تزال طيبة بين الشعوب التي أكتوت بنار الاستعمار الأوربي ، لم تكن أمريكا قد ظهرت بوجهها القبيح الكريه ، كما هي الآن ، ولذا فإنه من السهل الانخداع بها في سالف العصر والأوان حيث ظهرت كزعيمة للعالم الحر ، مستغلة سوء سمعة الاستعمار التقليدي لتحل محله وعلى أنقاضه ، ولكن بأساليب أكثر خبثا ودهاء وبشاعة.

ولكن الذي يثير التساؤل والعجب هو أن يدعو الحزب إلى التسامح الديني والإشادة بأمجاد المسلمين ، وفي نفس الوقت نرى الزعيم ينفخ في نفوس بني قومه روح القومية ، ويبدو أنه كان مخلصا مع قومه الإيبو ، ولكنه أراد اجتذاب أصوات المسلمين بالتعاطف مع سلفهم ، وهذه لعبة الأحزاب والساسة دائما ، استمالة المسلمين ، وإظهار الود لهم ، فإذا تمكنوا من السلطة فإن هؤلاء المسلمين أول من يكتوي بنارهم.

على أي حال فإن هذا الحزب استطاع أن يصل إلى كرسي الحكم في الإقليم الشرقي برئاسة الزعيم القومي اغدي ازيكوي.

ب- حزب الشعب الشمالي : تأسس عام ١٩٤٩م بقيادة أحمد بللو ، وتنحصر عضويته في أبناء الشمال بأغلبيته المسلمة وأقليته النصرانية ، ويقوم الحزب على المحافظة على العقائد الإسلامية والعادات والتقاليد ، واحترام الأمراء والعلماء ، والاتجاه نحو العرب والمسلمين.

وقد تمكن هذا الحزب من الوصول إلى الحكم في الإقليم الشمالي برئاسة زعيمه أحمد بللو ، الحفيد الرابع للشيخ عثمان بن فودي ، فالتف الأمراء من ذرية رجال ابنفودي حول حفيد أميرهم ، كما كان أجدادهم يلتفون حول جده من قبل ، وخيل إليهم كأن مجدهم الذي ضيعه الاستعمار يعود إليهم بواسطة الانتخاب ليصبحوا حكام البلاد ، من الشمال حتى الجنوب الذي كان يصبوا إليه أجدادهم.

جـ- حزب جماعة العمل : تأسس عام ١٩٥١م بزعامة أوبافيمي أولو ، وهو نصراني من قبائل اليوربا ، تمكنت فيه النزعة القبلية والعصبية الدينية والفكرة النفعية ، ويقوم حزبه على المذهب الرأسمالي ، والمبادئ الماسونية اليهودية ، ويتكون الأعضاء من قبائل اليوربا النصارى ، والمسلمين المخدوعين بالدعايات المغرضة ، أو المصابين بالنعرة القبلية.

واستطاع هذا الحزب - برغم هذا كله - أن يفوز بحكومة الإقليم الغربي ، وعلى رأسه هذا الأولو الماسوني النفعي ، الذي يرى أن الغاية تبرر الوسيلة.

وهكذا زرعت الحزبية في قلب الأمة ، لتنشر الفساد والفرقة بين الناس ، وفي نفس الوقت دفع العملاء الذين زرعهم الاستعمار إلى السلطة وكرسي الحكم ، فإذا تم الاستقلال سارت البلاد في نفس الطريق المرسوم لها ف عواصم الاستكبار العالمي.

قال تعالى : (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ [1] الْمَاكِرِينَ) فهذه الأحزاب ربما تكون طريق المسلمين نحو استعادة حكم البلاد ، وهذا ما حدث في الانتخاب الأول عام ١٩٥٩م في نيجيريا ، فبرغم فوز كل حزب بحكومته المحلة إلا أن حزب الشمال

---

(١) ٣٠ / الأنفال.

بزعامته الإسلامية استطاع وحده الفوز بالحكومة المركزيـة فـي العاصـمة لاغوس ، وهنا فضل أحمد بللو البقاء في إقليمه ورشح الحاج أبو بكر تفاوي بليوا لينـوب عنـه في رئاسة الحكومة الفيدرالية.

وكـان الحـاج أبـو بكـر رجـلا متـسامحا بمعنـى الكلمـة ، فـسعى فـي تـأليف قلوب أهل الجنوب - وأكثرهم من غير المسلمين - بأن دعاهم إلى المشاركة في حكومة ائتلافية فرفض حزب جماعة العمل مفضلا المعارضـة ، أمـا الـدكتور أزيكـوي فقد قبل الائتلاف ، ومن ثم أصبح حاكمـا عامـا ، ثـم رئيسا للجمهوريـة ، ونـال حزبـه عددا هاما من الحقائب الوزارية في الحكومة المركزية ، برئاسة الحاج أبي بكر.

وهكذا استقر الأمر - في الحكومة المركزية - لحزب الشمال بقيادتـه الإسـلامية ، وبـدا كأنـه قريبـا مـن ستين عامـا مـن الاحـتلال لـم تغير هـذا الـشعب كثيـرا ، فبـرغم الاستعمار وعملائـه ومؤامراتـه فـإن الإسلام يعود إلـى الحكـم مرة أخـرى ، وبـنفس الطريـق الـذي اختـاره المـستعمرون ليكـون حربـا علـى هـذا الـدين ، وهـو الحزبيـة الديمقراطية.

وممـا زاد مـن حنـق القـوى الكـافرة - الداخليـة والخـارجيـة - حقـدها أن حركـة الخلافة لم تمت ، وأن الرجال الذين أسسوها ليسوا صنـابير [1] لا عقـب لهـم ، بـل إن الأحفاد واصلوا نفس مسيرة الأجداد ، فقام أحمد بللـو حفيـد الـسلطان محمـد بللـو بـن عثمان بن فودي يواصل مـسيرة جده الـشيخ عثمـان [2] ، وكـان نجـاح حـزب الـشعب

(١) مفردها صنبور ، أي أبتر ، لا عقب له من ولد أو أخ.
(٢) وصدق الشاعر إذ يقول : للثائر آلاف الأحفاد ... ... والخائن في الدنيا أبتر

الشمالي بهذه الزعامة الإسلامية التي تنتمي إلى بيت الخلافة أثر كبير في تحريك الاستكبار العالمي لعملائه في الداخل لارتكاب :

المؤامرة الدامية :

برغم ما ذكرنا من مآسي الحزبية ، وما تجره على الشعوب من ويلات فإن القوى الإسلامية إذا دخلت حلبة الانتخابات الحزبية فإنها تكسبها برغم مؤامرات الاستكبار وأذنابه ، ولا يقتصر الأمر على هذا ، بل إن الجماهير المسلمة تتعامل مع الأحزاب قربا وبعدا منها بقدر قربها أو بعدها عن الإسلام ، مما يدفع كثيرا من الحزبين إلى التظاهر بالولاء للإسلام وخداع الجماهير إلى أن يتم لهم ما يريدون فتظهر الوجوه على قبحها ، والمواقف على حقيقتها ، ومن ثم يجب ألا يخدع الناس بتلك الأحزاب العلمانية التي تظهرا قدرا من الاحترام والتعاطف مع الإسلام فإذا كسبت المعركة قلبت لدين الله ظهر المجن.

ولكن ماذا يفعل الاستكبار إذا وجد المسلمون كونوا لهم حزبا - من باب الدوران مع الزمان - وقوى هذا الحزب حتى وصل كرسي الحكم أو كاد ؟ ما العمل في هذه الحالة ؟ العمل هو تحطيم الحزبية الديمقراطية بيد من أوجدوها أنفسهم ، ليبدأ مسلسل الانقلابات العسكرية ، وأول شيء في برنامج الانقلاب الناجح ، أو قل ألف باؤه إلغاء الأحزاب ، ولكن قد تتغير لأوضاع ويعود النظام الحزبي مرة أخرى ، وفي هذه الحالة لا يسمح للحزب الممثل للمسلمين بالعودة ، ويحظر إقامة أي حزب جديد على أساس ديني إسلامي ، أو أية هيئة أو تجمع من هذا القبيل ، ولدينا بعض النماذج التي يمكن عرضها قبل تناول المؤامرة الدامية التي تعتبر هي الأخرى نموذجا لكيفية التعامل مع الأحزاب الإسلامية وقادتها :

١ ـ في مصر قام انقلاب الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢م بإلغاء الأحزاب وحل جماعة الإخوان المسلمين ـ وهو بيت القصيد ـ وجاء على السادات فترة رأى فيها التحول من نظام الحزب الواحد إلى تعدد الأحزاب ، وفي هذه الحالة سمح بتكوين أحزاب جديدة ، ولكن بشرط ألا تعتد على أساس الإسلام ، فقام حزب العمل وحزب التجمع ، وحزب الأحرار ... إلخ ، كما سمح بعودة حزب الوفد القديم ـ الذي ألغى مع غيره من الأحزاب عقب الانقلاب ـ أما حزب إسلامي فلا وألف لا ، ومات السادات ، وبقي الحَظْر ، كما كان ، لا أحزاب إسلامية أو حتى ما يشبه الأحزاب.

٢ ـ كان في تركيا حزب إسلامي يسمى حزب السلامة يتزعمه البروفيسور نجم الدين أربكان ، وجاء انقلاب ١٩٨٠م بقيادة الجنرال كنعان إفرين ، الذي ألغى الأحزاب جميعا ، وحاكم زعماءها بتهمة الفساد السياسي والاقتصادي ، أما نجم الدين وحزبه فإن التهمة كانت صريحة واضحة ، كما رددتها وسائل الإعلام ، إنها (محاولة إقامة حكومة إسلامية في تركيا) ثم عادت الأحزاب مرة أخرى ، ولكن بدون هذا الذي يدعو إلى إقامة حكومة إسلامية ، أما السبب الذي ذكرته مجلة أكتوبر القاهرية لانقلاب إفرين فهو :

(حتى لا يكون هناك خوميني آخر في تركيا) أي حتى لا يتحول نجم الدين رئيس حزب السلامة إلى قائد للمسلمين يلم شعثهم ، ويأخذ بيدهم نحو إقامة حكومة العدل الإلهي ، ولقد قيل أيضا إن السبب المباشر لقيام الانقلاب هو تلك المظاهرة الضخمة التي قادها زعيم الحزب ـ في قونية مسقط رأسه ـ ضد قرار إسرائيل بإعلان القدس المسلمة عاصمة لها ، ومطالبة الحكومة التركية ـ آنذاك ـ بقطع

كل علاقة لها مع إسرائيل ، كل هذا أدى إلى قيام الانقلاب الميمـون للقضاء علـى الخطر الإسلامي المتمثل في حزب السلامة.

وفي نيجيريا أيضا كان على الاستكبار ـ وأذنابه في الداخل ـ تحطيم كل شيء والتضحية بكل من يقف في طريق تنفيذ المؤامرة ، التي بدأت بعد ست سنوات فقط من الاستقلال ، هي في رأينا فترة استطلاع الأحداث واستقراء المستقبل والتخطيط مـن أجل تحطيم تلـك الحزبيـة التـي أدت بحـزب الـشعب الـشمالي وقيادتـه إلـى قمـة السلطة.

تصعيد الأحداث :

لعل ممـا جعل عمليـة التغيير هنـا عنيفـة وداميـة ـ كمـا سنرى ـ أن القيـادة الحزبية مرتبطة بالخلافة ، وبخاصة أحمد بللو والملتفين حوله ، أمـا الحـاج أبـو بكـر رئيس الوزراء فكان يعلن في كل مكان أنه يعمل من أجل الإسلام.

ولكن قبل أن يبدأ المسلسل الدامي كان لابد من تصعيد الأحداث ، ودفعهـا نحـو الانفجار ، وهو ما قام به أزيكوي وأولو وحزباهما خير قيام ، مما يتضح فيمـا يلـي :

كان الجنوبيون من قبائل الإيبو واليوربا أصحاب الثقافة الغربية يتعالون علـى المـسلمين الـشماليين ذوي التعلـيم الإسـلامي العربـي ، الـذي لا يـؤهلهم للمناصـب والوظائف الحكومية فانفسخ المجال أمام قبائل الإيبو واليوربا فاحتلوا تلك المناصب والوظائف في الجنوب ، وفي الشمال أيضا.

ولقد فطن أحمد بللـو سعي الجنـوبيين للـسيطرة علـى أهـل الـشمال ، ومحاولـة تذويبـه فـي بوتقتـهم ، والحـصول علـى نـصيب الأسد فـي كـل شـيء ، لـذا ظـل الرجـل

ينادي منذ الوهلة الأولى بالانفصال عن موكب الغرب إلى موكب الشرق العربي ، غير أن بعض أنصاره رأوا أن في هذا النهج توريطا للشمال في أزمات اقتصادية لانعزاله عن شواطئ المحيط وموانيه التي يشرف عليه الجنوب الشرقي والغربي.

وهكذا تتضح معركة شبيهة بالصراع في لبنان ، الكفار - أهل الجنوب من الإيبو واليوربا - يتجهون نحو الغرب وثقافته ، يريدون أن تكون بلدهم أوربية ، والمسلمون - أهل الشمال موطن الخلافة - يريدون وجهة عربية إسلامية وفي لبنان يدور الصراع بين قومين ، قوم يريدون لبنان عربيا إسلاميا ، وقوم يريدون أوربيا صليبيا.

أما أحمد بللو - وكان رئيس وزراء الحكومة الشمالية - فقد ظل محتفظا بوجهته ، مكرسا كل جهود ، لقوية إقليمه ثقافيا واقتصاديا ، وإعداد نهر النيجر للملاحة ، وإنشاء محطة كبرى لتوليد الكهرباء ، تحسبا لتطورات المستقبل ، كما ظل يلزم حدود إقليمه مكتفيا بأصواته ، لا يطلب شيئا من الإقليمين الآخرين.

ولكن الساسة الجنوبيين لم يتركوا الشمال لأهله ، كما فعل رئيس وزراء الشمال ، إلا أن الرجل ظل هادئا متحليا بضبط النفس ، لا يغير سياسته ، في حين اشتد التوتر بين الإقيلم الشرقي بزعامة أزيكوي ، وبين الإقليم الغربي بزعامة أولو الذي طرد أول مرة من المعركة الانتخابية في الإقليم الغربي ليعود على الفور إلى إقليمه الشرقي ، كما دأب على مهاجمة أزيكوي في مختلف المناسبات ، مما زاد من حدة التوتير - والرغبة في الانتقام - من زعماء الإقليمين ، الشرقي والغربي.

أما العلاقة بين الشرق والشمال فكانت تعتمد على الثقة المتبادلة ، مما مكن لقبائل الإيبو في الشمال ، كما أنضوى عدد من أهل الشمال في صفوف حزب

التعصب الديني والقبلي معا ، وإيقاظ الفتن والثارات بين اليوربا [1] والفلاتين الذين قتلوا أفنجا في إلورن ، وطردوا الملك ألافن من أويولي ، وضربوا كثيرا من مدن اليوربا ، وأقاموا على أنقاضها مدنهم وحكومتهم باسم الإسلام [2] ، وقد حمله - أي أولو - هذا التعصب على بعض العرب والمسلمين جميعا ، فكان أول من جلب اليهود إلى إقليمه ، وأشركهم في مؤسساته ، ليوازن بذلك كفة أحمد بللو الذي كان يستميل العرب والمسلمين ويواليهم ويحضر مؤتمراتهم.

وعبثا حاول الزعيم اليورباوي الوصول إلى رئاسة الحكومة المركزية ، وعندها بدأ يحيك المؤامرات لقلب حكومة الحاج أبي بكر ، إلا أن الأمر انكشف ، وحوكم المتآمرون وأدينوا بالجريمة ، وعوقب الزعيم بالسجن عشر سنوات ، وهنا انقسم حزبه - حزب العمل - إلى قسمين ، الأول يتحمس لهذا الزعيم السجين ، والثاني لنائبه صمويل أكنتولا ، الذي انحاز مع القسم الأكبر من قبائل اليوربا إلى الإقليم الشمالي ، فاعتبره القبليون خائنا لقبيلته ، لأنه خضع لقبائل الهَوْسا ، كما اعتبره الصليبيون خائنا لدينه ، لأنه خضع للمسلمين ، فصاروا يبيتون السوء لهذا الزعيم الجديد.

أما في الإقليم الشرقي فقد تغيرت السياسة فجأة إذ جعل الشرقيون يتظاهرون بالتعاطف مع الزعيم اليورباوي السجين لكسب أتباعه من اليوربا ، حتى يستطيعوا تشكيل جَبْهة واحدة تستطع تحقيق رغبة الزعيم السجين في قلب حكومة الحاج أبي بكر ، مع أن الدكتور أزيكوي - زعيم حزب الشرق - لا يزال رئيسا للجمهورية ، ولا

(١) إن هذا الأسلوب يذكرنا بما كان يقوم به يهود يثرب من إيقاظ الثارات بين الأوس وبين الخزرج حتى بعد الإسلام ، ولا غرو فهذا الأولو من تلاميذ الماسونية اليهودية.
(٢) يقصد حكومة الخلافة ، وامتدادها إلى مناطق اليوربا حيث قتل قائدهم أفنجا.

يزال عدد من قبيلته يشغلون قريبا من نصف الوزارات.

وفي هذه الأثناء جاء دور الانتخاب الإقليمي في الغرب ، واكتسح الحزب الموالي للشعب المسلم في الشمال تحت زعامة أكنتولا أغلب الكراسي ففاز برئاسة الحكومة ، فأوعزت قبائل الإيبو إلى أنصارها في الإقليم أن يعلنوا اعتراضهم على نتيجة الانتخابات بأعمال العنف وإثارة الفوضى والاضطراب ، مثل نسف المباني والسيارات الخاصة ، والتمثيل بخصومهم على مرأى ومسمع من الشرطة - التي تتشكل أغلبيتها من الإيبو - لتسقط هيبة الحكومة ، وتوهن قوتها ، تمهيدا لتنفيذ الانقلاب ، وتوسلا لكسب تأييد الشعب ، وتبريرا لإقامة الحكم العسكري بعد إسقاط (الحكومة الإسلامية) كما كانوا يسمونها.

وهكذا استطاع الكفار تصعيد الأحداث ، ودفع الموقف في البلاد نحو الانفجار مستترين بالعصبية القبلية ، والأمر بل الحقيقة أنه تعصب ضد الإسلام وحقد عليه ، وعلى الحكومة التي أسموها حكومة إسلامية.

اغتيال الزعماء المسلمين :

بدأ تنفيذ المؤامرة التي دبرها الكفار من الإيبو وأتباع الزعيم المسجون من اليوربا الذين أشعلوا نار الفتن ثم هربوا ، فأوعزوا إلى جنود الإقليم الشرقي بالقيام بحركة تمرد عسكرية ، فقتلوا أحمد بللو رئيس الوزراء في الشمال ، وأكبر زعماء المسلمين ، ولم يكتفوا بهذا بل منعوا المسلمين من الحداد عليه وأصر المقدم تشكوما نزيغو - رأس التمرد في الشمال - على عدم السماح بنقل جثمان الشهيد إلى مسقط رأسه في سوكوتو ، واندفع الكفار من الإيبو إلى مكان الجريمة راجلين وراكبين ينظرون إلى هذا المنظر المؤلم ضاحكين ساخرين وشامتين ، وهكذا أصبح

أحمد بللو صريعا ملقى جثمانه الطاهر في العراء ، وبيته يحترق ، وتنتهك حرمته بنهب ممتلكاته.

أما الزعيم المسلم الآخر الذي قتله الكفار المتمردون فهو رئيس الحكومة المركزية أبو بكر تفاوا بليوا هذا الزعيم المسلم الذي كان يؤمن أن سياسة المصالحة والتراضي هي السبيل نحو المحافظة على وحدة البلاد ، ومن ثم استطاع أن يحظى بالإكبار والاحترام في الداخل والخارج ، لما عرف من نزاهته ، وإنصافه ، كما قتل الكفرة أيضا من العسكريين الشماليين اللواء زكريا ملاري والعقيد محمد قرو والنقيب يعقوب فام ، ولا تسأل عن الضحايا المجهولين ، ولم يكتف المجرمون بكل ما سبق على بشاعته وفظاعته ، بل اغتالوا أيضا رئيس وزراء الإقليم الغربي صمويل أكنتولا واللواء أديموليفون ، وسائر من يوالي الشماليين المسلمين في مختلف الأقاليم ، كل هذا في يوم واحد ، هو الخامس عشر من يناير سنة ١٩٦٦م ، وفي شهر رمضان.

أما رئيس الجمهورية ـ حليف الشماليين ـ فقد تستر في إجازة مصطنعة في لندن ، ومن هناك أرسل لنائبه أن يسلم مقاليد السلطة للجيش ، وكان القائد الأعلى للقوات المسلحة يسمى أرونسي ، ومن الأفكار التي دبرت المؤامرة الدموية ، فاستلم الحكم وأصبح رئيسا للحكومة العسكرية في نيجيريا.

ولكن ماذا كان رد الفعل عند المسلمين تجاه هذه الأحداث الجسام ؟

لقد أخذت منهم المفاجأة كل مأخذ ، فتعطلت حواسهم جميعا في نيجيريا وما حولها لمدة ثلاثة أشهر ، وغاب عنهم فكرهم ، ولما عاد إليهم صوابهم دعا أمراء

المسلمين في الشمال إلى عقد جمعية نصر الإسلام ، فاجتمعوا في مدينة كادونا - حيث استشهد أحمد بللو - وهناك قرروا إعلان أسبوع الصيام والاعتكاف في المساجد لختم القرن عدة مرات ، في كل مدينة وقرية من الإقليم الشمالي للتوسل إلى رب العباد أن يكشف عن المسلمين ما حل بهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ففعلوا ذلك ، ثم كان الانقلاب الثاني الذي قضى على حكم أرونسي الغادر.

استمرار المؤامرة :

بعد استلام أرونسي ظن أبناء قبيلته الإيبو أن الجو قد خلا لهم ليتحكموا في نيجيريا حسب أهوائهم ، ولا يشاركهم غيرهم ، حتى الغربيين الذين تعاونوا معهم في تنفيذ خططهم وتآمرهم ، ورمَوا بقضية الزعيم اليورباوي - أولو - السجين ، الذي كانوا يتعاطفون معه في سلة المهملات ، ورغبوا عن اتخاذ أي إجراء ضد المجرمين الذين قتلوا الزعماء المسلمين.

وأصبح أرونسي حاكما مستبدا ، يصدر بيانا إثر بيان دون تشاور مع غير أبناء قبيلته ، وألغى النظام الإقليمي ، ووحد الخدمات تمهيدا لتعيين أبناء قبيلته ولاة في مختلف الأقاليم وأصبح الإيبو يقيمون حفلات الانتصار في كل مكان ، ويرددون الأغاني التي تشيد ببطولة إنزيغو قاتل أحمد بللو ، ويسجلون شتائم الشهيد وسباب اكنتولا على أسطوانات يذيعونها في الطرقات تحديا للمسلمين.

واستمر هؤلاء الكفار من الإيبو في استفزاز المسلمين وحلفائهم وتحدي مشاعرهم ، وبلغ السيل الزبى بمحاولة تجريد الجنود المسلمين من أسلحتهم في كل مكان ، من أبيكوتا وإبادن ولاغوس فأثاروا حمية الضباط المسلمين - ومنهم مرتضى الملة محمد - الذين أطاحوا بحكم أورنسي وقبيلته والمشتركين معه في

الإقليم الغربي ولاغوس ، ما عدا النقيب أوجكو الحاكم العسكري بالإقليم الشرقي ، الذي أفلت من أيدي المنتقمين لأن برنامج الانقلاب الجديد لم يشمل إقليمه.

وكان يعقوب غوان النصراني يتقدم على الضباط المسلمين الذين قاموا بالانقلاب الناجح ، فرأوا من الحكمة تعيينه قائدا للجيش ، ورئيسا للحكومة العسكرية حسما للانشقاق السياسي أو القبلي.

وأسرع الرئيس الجديد إلى الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين ـ بما فيهم أبا فيمي أولو ـ ثم أشركه في الحكم ، أما أجوكو فقد وجه نداءه الحماسي إلى جميع أبناء قبيلته في سائل الأقاليم أن يهجروا أماكنهم إلى إقليميهم الأصلي في الشرق ، فاستجابوا له على الفور ، وهناك قرروا عدم التعاون مع حكومة غوان ، وإعداد مخططات الانتقام ، وأخذ الثأر من قتله أرونسي ، وعبثا حاول الرئيس يعقوب دعوة أوجوكو للمفاوضة لإنقاذ البلاد من الأزمات والمشكلات السياسية وعدم الاستقرار ، ولكن أوجو أصم أذنيه ، وركب رأسه ، وأدار ظهره لكل محاولات الوساطة بينه وبين الحكومة المركزية.

<u>**بيافـــرا :**</u>

استغل الإيبو مناصبهم في السلك الدبلوماسي كأبواق دعاية لاستدرار عطف الدول الغربية على قضيتهم ، واستغلوا كنائسهم في الاستعانة بالكنائس العالمية ، عن طريق البابا وجمعية الصليب الأحمر ، التي ظلت تبعث الأسلحة والعتاد الحربي والمرتزقة ، في صورة مواد إغاثة ، من غذاء وأدوية إلى منكوبي الحرب فيما يسمونه حكومة بيافرا ، وبينما كان يعقوب غوان يدعو إلى التفاوض والتعايش

السلمي والتفاهم كان أوجوكو يدعو قبيلته إلى التعبئة الكبرى للسيطرة على نيجيريا كلها ، أو الدفع بها إلى الدمار.

ولما تم الأمر للخائن بالأسلحة الحديثة المدمرة ، وجمع المرتزقة ، وحصل على تأييد أكثر الدول المستكبرة سرا ، وأكمل الإجراءات التي يتم بها الانفصال عن نيجيريا ، والاستقلال تحت اسم بيافرا ، اختار شهر مايو ١٩٦٧م موعدا لإعلان انفصاله ، وهنا أسرع يعقوب غوان إلى تقسيم الإقليم الغربي إلى ثلاث ولايات ، والشمال إلى ست ولايات ، وعين على كل ولاية حاكما عسكريا.

أما قبائل الإيبو فقد ردت بسلسلة من الغارات والاعتداءات الجوية والبرية على العواصم الشمالية ، والعاصمة الفيدرالية فقام جيش نيجيريا - وفي طليعته المسلمون - برد المعتدين ، واستمرت المعارك الطاحنة بين الفريقين ثلاث سنوات كاملة ، تلك المعارك التي كانت مؤامرة استكبارية صليبية وصهيونية.

ولد كان من أهم أسباب انتصار المسلمين في تلك الحرب لجوءهم إلى ربهم ، كما فعلوا حين قتل زعماؤهم ، وعلى رأسهم الشهيد أحمد بللو والشهيد أبو بكر تفاوا ، ولذا وجدنا قادة الجيش يدعون الأمراء المسلمين أن يعاونوهم بالدعاء مرة أخرى لينصرهم الله على عدوهم أوجوكو فاجتمع الأمراء وأعلنوا أسبوعا آخر للصيام والاعتكاف ليدعوا الله بالنصر على بيافرا التي اغترت بالأسلحة الحديثة والمرتزقة ، ولكنها لا تملك هذا السلاح الإيماني ، بل لا تفهم ولا تفطن إليه ، كما كان من أسباب انتصار المسلمين وقوف بعض الدول العربية والإسلامية ، وفي طليعتها مصر والسعودية والجزائر ثم الكاميرون والنيجر.

بواعـث حـرب بيافـرا :

تكمن بواعث هذه الحرب في ثلاثة أشياء ، التعصب الديني ، والنزعة القبلية ، والأصابع اليهودية.

فقد قامت حرب طاحنة حامية الوطيس بين قبائل اليوربا الكفار ، وبين المسلمين في إلورن ، ولم تهدأ هذه المعارك إلا بعد القضاء على الخلافة بمقدم المستعمرين الإنجليز ، ولقد كان للزعيم اليورباوي أولو دور كبير في تهييج القبلية والتعصب الديني ضد المسلمين ، ولا غرو فهو تلميذ لليهود نجيب ، وهو الذي وضع خطة قلب الحكومة المركزية على أهل الشمال المسلمين أولا قبل أن تنفذها قبائل الإيبو.

غير أن الصلات الدينية والثقافية والتجارية التي كانت تربط قبائل الهوسا في الشمال مع قبائل اليوربا في الغرب قد ساعد على تخفيف التوتر ، وأدخل الانشقاق على حزب العمل ، الذي دبر المؤامرة أولا ففشلت في مهدها ، على حين أن فقد مثل تلك الصلات بين قبائل الإيبو والهوسا أبعد شقة الخلاف ، وضاعف الخصومات ، وأيقظ الفتن ، إذ لم يذكر أحد من المؤرخين تاريخا لقبائل الإيبو في الكتب العربية قبل الاستعمار ، ولا في الكتب الإنجليزية بعد الاستعمار.

وقد جاء التنصير إلى نيجيريا فوجد في بلاد الإيبو أرضا خصبة ، إذ لم يلق فيها مقاومة إسلامية ، كما وجد في بلاد الهوسا ، ومعظم بلاد اليوربا ، ولم تتردد قبائل الإيبو في قبول النصرانية الصليبية فرحبت بالكاثوليك الأمريكان واليهود ، فتم لهم الفتح المبين في بلاد الإيبو ، وفتحت أمريكا أبواب بلادها لأبناء الإيبو الذين بهرتهم الثقافة الأمريكية وحضارتها ، فانكبوا عليها ينهلون بنَهَم ، حتى ضربوا فيها

بنصيب أوفر ، وكادوا يفوقون القبائل الأخرى ، وضربوا معها بسهم من تعاليم اليهود ، وارتووا من معينها ، فتبلورت في أذهانهم فكرة الماسونية اليهودية ، فطفقوا يمارسونها بين قبائلهم الخاصة ، لا سبيل لغيرهم على فهم أسرارها.

وفي سنة ١٩٤٤م قامت منظمة شبه سرية باسم اتحاد ولايات الإيبو يرسمون فيها بروتوكولات سيطرتهم على القبائل الأخرى في نيجيريا ، ثم في إفريقية ، وورثوا من الكاثوليك بغضهم وكراهيتهم للإسلام خصوصا ، وللعقائد الأخرى عموما ، فلم يتركوا مجالا في بلادهم لأية كنيسة غير كاثوليكية ، فضلا عن المساجد الإسلامية ، ولم يسمحوا فيها لأية مدرسة غير تنصيرية ، فضلا عن المدارس العربية والقرآنية.

وتعلموا من سياسة الاستكبار الأمريكي مبدأ الأثرة في سياسة شغل الوظائف والمناصب ، فانتهزوا فرصة سابقتهم في التعليم الغربي فاحتلوا جميع المناصب العليا في الشمال المسلم ، وفي جزء كبير من بلاد اليوربا ، على حين لا سبيل لغيرهم في بلادهم.

وتعلموا من الانجليز سياسة إيقاع الشقاق بين القبائل الأخرى ، ليتمتعوا هم بالوحدة والوئام ، فتتم لهم السيادة على مبدأ (فرق·تسد) فحرشوا بين قبائل اليوربا ، وأغروا بعضهم ببعض عقب انتخابات عام ١٩٦٥م.

ومن أجل السيطرة على الاقتصاد والتجارة أنشأوا سوقا للاحتكار في موقع استراتيجي ، وكانوا يستغلون نفوذهم في الحصول على القروض الضخمة من البنوك لاستيراد البضائع الرائجة من الخارج ، أو لشرائها من السوق المحلية في

نيجيريا ، ثم بيعها كما يريدون.

ولكي تتم لهم السيطرة السياسية توزعوا في مختلف المدن والأرياف وكانوا يترنمون بكلمة نيجيريا المتحدة كي يتمكنوا من ترشيح أبناء قبيلتهم ، ومن يواليهم في كل إقليم ، حيين أنهم أغلقوا أبواب بلادهم دون أية قبيلة أخرى ، وهكذا يطالب أبناء الإيبو لأنفسهم فقط بنصيب الأسد من كل شيء.

وقد أردوا أن يقارنوا أنفسهم بالفلانيين المسلمين ، أنصار الشيخ عثمان ، فالتفوا حول ازيكوي ، ثم خلعوا طاعته ، وتبعوا ميكائيل أوبارا لأنه كان أكثر من الأول تحمسا ، ورأوا فيه قائدا يتجمعون حوله ، كما فعل المسلمون الفلانيون مع مؤسس الخلافة ، ولكن شتان بين الدعوة القائمة على أساس توحيد رب العباد وعبادته ، والإيمان برسل الله جميعا ، والعمل على إقامة العدل والمساواة وبين الدعوة القائمة على التثليث ، والتفرقة بين رسل الله ، والدعوة القائمة على الفساد ، واستعباد العباد ، واستغلال البلاد ، وشتان بين القيادة التي يصحبها التوفيق الإلهي ، وترعاها العناية الربانية ، وبين القيادة التي تعتمد على الدعاية المغرضة ، والمؤامرات والعمالة للمستكبرين.

وأبى الله إلا أن تعود مساعي الإيبو ، ذيول الاستكبار والصليبية والماسونية اليهودية ، تعود كلها بالفشل الذريع ، وأبى الله إلا أن تصطلي الإيبو بلظى النار التي أشعلتها ، وأن يقعوا فيما حفروا : (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ [1] رَبِّ الْعَالَمِينَ).

(١) ٤٥ / الأنعام.

فعسى أن يأخذ الأذناب والمنافقون ـ داخل نيجيريا أو غيرها ـ عبرة وعظة من هذه الحرب المريرة ، وأن يعلموا أن تلك الواقعة التي أكلت الأخضر القوي ـ مثل الإيبو ـ يجب أن يجتنبها اليابس الضعيف ، وعليهم أن يتوبوا من الشقاق والنفاق ، وإيقاظ الفتن.

أنا المنصرون الصليبيون والمستكبرون اليهود فعسى أن يعتبروا بنتائج تلك الحرب التي انتهت على عكس ما كانوا يتوقعون ، وأن يعلموا أن للإسلام ربا يحميه ، ويعصمه من كيد أعدائه المعتدين ، مهما بلغوا من قوة وعدة.

وقفة مع الأحداث :

بعد هذه الأحداث الدامية التي بدأت باستشهاد قادة المسلمين وزعمائهم ، وانتهت بمحاولة تصفية الوجود الإسلامي أو تحجيمه من خلال حرب بيافرا ، بعد هذا كله يطيب لنا أن نقف مليا نتأمل ما حدث ، آملين أن يستعين المسلمون من كل ما وقع لإخوانهم في نيجيريا وفي غيرها .

إن بعض الإيبو حكوا لي وأنا في نيجيريا أن الطيران المصري أباد قرى بأكملها ، وقرى أخرى فقدت كل رجالها ، لم يبق فيها إلا النساء والأطفال.

لقد كان عبد الناصر يرى أن إسرائيل والغرب وراء إيبو بيافرا ، فكان عليه إثباتا لوجوده ولزعامته ـ في إفريقية ـ أن يقف ضد التغرب وإسرائيل عسكريا وسياسيا كما كان عبد الناصر صديقا للزعيم الشهيد أحمد بللو.

إن رد الفعل على استشهاد الزعماء المسلمين في نيجيريا ـ فضلا عن غيرها ـ لم يكن على مستوى الأحداث ، كما أنه لم يكن سريعا بالقدر الكافي ، إذ بقي المسلمون ثلاثة أشهر قبل بدء أسبوع الاعتكاف والصيام في كادونا ، ولا اعتراض على ذلك ، فقد كان نبينا الأكرم يجمع الضعفاء والأطفال والعجزة ويقول لهم : (ادعوا الله لنا بالنصر ، فإنا مقبلون على جهاد) كما كان يقول : (إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم) ولكن الذي ننكره أن يتأخر هذا العمل ثلاثة أشهر ، وأن تأخذ المسلمين المفاجأة بهذه الطريقة التي تفقدهم القدرة على الرد المباشر الفوري.

أما الانقلاب المضاد الذي قام به الضباط المسلمون فهو رد فعل منطقي لما حدث ، لكنه كان بحاجة إلى فترة إعداد وتخطيط ، ومن ثم لا نرى أنه تأخر عن موعده المناسب.

على أية حال فإن على المسلمين في كل مكان من هذه الدنيا أن يدركوا أن قادتهم بشكل خاص هم دائما هدف للتصفية الجسدية ، فإن الأعداء موقنون تماما بأن العالم الإسلامي لا ينقصه سوي القيادة الناجحة ، ولذا ترى القوى الكافرة تتربص بالقادة المخلصين ، وبكل من يُتَوسَم فيه مستقبل قيادي ، وهذا ما يوجب على الموحدين الحذر الشديد ، والتعامل مع هذه الظروف بما يناسبها ، وعلى القادة بشكل خاص أن يُعَدوا أنفسهم للشهادة ـ مع الأخذ بالحيطة والحذر قدر الطاقة ـ فإذا لقي القائد ربه تقدم من يليه في الصف ، وهكذا دون أن تأخذنا المفاجأة أو ينتهي العمل بانتهاء قيادته.

إن الناس كثيرا ما تخدع بدوافع الأحداث ، ويكون للإعلام المضلل دور كبير في هذا الخداع ، ففي نيجيريا مثلا يُبالغ كثيرا في الدوافع القبلية ، وكأنها الوحيدة

المحركـة لكـل شـيء ، فـالفلانيون وقفـوا مـع الـشيخ عثمـان لأنــه فلانــي !! والإيبـو حـاربوا الهوسـا والفلانيـين بـدوافع العصبية والقبليـة !! ولا أرى إلا أن الإيبـو كـان يحدوهم التعصب الديني ضد المسلمين ، ولا يهم بعد ذلك إن كانوا من هذه القبائل أو تلك ، كما أن الفلانيين ـ وغيرهم ـ وقفوا مع ابن فودي لأنـه قائد إسلامي ، وأرى أنـه لو كان من غير الفلانيين لاتبعوه أيضا.

الحزبية والانقلابية :

رأينا أن الاستعمار قد زرع الحزبيـة المفرقـة قبل رحيلـه ، علـى أمـل أن يـدفع إلى الحكم أذياله وعملاءه الذين حاول أن يرفعهم ـ بين الجماهير ـ مكانا عليا ، ولكن سعيه قد خاب ، وتبخرت أحلامه.

فإذا سمح بأحزاب فإن المسلمين يدخلون حلبة السباق على الحكم ، ويكسبون الجولة ، وهنا تلجأ قوى الاستكبار إلى تحطيم هذه الحزبيـة التـي أنـشأتها بنفسها ، لتقيم على أنقاضها الانقلابية ، التي أذاقت الشعوب المر ألوانا والقهر أنواعا.

ولكن إذا كنت تستخدم سلاحا فإن عدوك يمكن أن يستخدم السلاح نفسه ، أي إذا قام الاستكبار وأذنابه بانقلاب عسكري فإن المسلمين أيضا يمكنهم عمل الشيء نفسه ، وهذا ما حدث.

لقد استطاع الضباط المسلمون في جيش نيجيريا القيام بانقلاب عسكري ضد أرونسي ـ رأس المؤامرة ـ وجاءوا بيعقوب غوان على رأس الجمهوريـة التـي بقـي حتى أطيح به في الانقلاب العسكري الذي قاده مرتضى الله محمد الذي لم يلبث في الحكم غير أشهر معدودة.

وهنـا نـرى أعـداء المسلمين لا يقومـون بـانقلاب مـضاد فقـط ، بـل يأخـذون بالأحوط ، فيدفعهم التعصب الحقد إلى القتل وسفك الدماء ، ولا ينسى الأعداء عدم تمكين الموحدين من قيادة تجمعهم وتوحدهم ، ولهذا أطيح بـالرئيس مرتـضى الله محمد ، وقبل الإطاحة به قتله الكفار ، استئصالا للخطر الإسلامي من جذوره ، وهكذا استشهد الرجـل سنة ١٩٧٦م ، وسـارت الـبلاد تحـت الحكـم العـسكري ، واسـتفتى الشعب على أسلوب الحكم الذي يريده ففضل الحكم المدني ، وانتخب الحاج شغاري رئيسا لجمهورية نيجيريا ١٩٧٩م.

وقد يتساءل القـارئ ألـيس مرتـضى واحـدا مـن العسكر الـذين أذاقـوا شـعوبهم الذل والهوان أشكالا وأنواعا ؟ الحق أن الشهيد مرتضى الله لم يكن من هـذا الـصنف ، ولهذا قتله الكفار ، وهاك طرفا من سيرته : لقد سئل عن أهم هواياته فقـال : (قـراءة الكتب العربية) فما لهذا الرجل الأعجمي واللغة العربية ؟ أليس هذا شأن العرب فقط ؟ لا يا أخي إن الإمـام ابن تيميـة يقـول : (العربيـة شعار الإسـلام وأهلـه) لـم يقل شـعار العرب ، وإنما قال : (شعار الإسلام) وابـن الخطـاب شـهيد المحـراب يقـول : (تعلمـوا العربية فإنها من دينكم) قال : (من دينكم) ولم يقل (من عروبتكم) هكذا المسلم في كل مكان يتعلم العربية لأنها شعار دينه وأهل هذا الدين ، يتعلم لعربية لأنها من دينه.

وكم من مسلم تسأله : هل تعرف العربية ؟ فإن كان يعرفها أجابك بكل اعتزاز : نعم ، أنا مسلم ، وإذا لم يكن يعرف لغة القرآن رأيت جوابا مليئا بالندم والحسرة ، وكم رأينا من مسلمين يحسدون بني العرب على لسانهم ، الذي به نزل القرآن.

ومن ثم فإن معرفة مرتضى الله لغة القرآن وهوايته قراءة الكتب العربية ليس له من معنى غير رجل قوى الإيمان ، شديد الإخلاص للإسلام وأهله ، فالمسلم لا

يرى في العربية غير طريق لفهم دينه ، ترى أليس هذا سببا كافيا ومقنعا لأن يقدم عملاء الاستكبار العالمي الكفار على قتل هذا الرجل الراكض إلى الإسلام ؟

لقد تولى الحكم لمدة مائتي يوم تقريبا استطاع أن ينجز في تلك الأيام ما لم تستطع الحكومات الأخرى أن تنجزه في سنوات ، ومما يحكيه الناس عن فترة حكمه أنه كان يخرج ليلا يعسُّ أحوال الرعية ، كما كان يفعل عمر بن الخطاب ، يخرج بنفسه ، ودون أن يحس به أحد حتى يقف بنفسه على حقيقة الأمور.

وكان حين ينتقل من مكان إلى مكان آخر لا تقوم له الدنيا كلها ، في موكب ضخم فخم ، ذي حراس مدججين بالسلاح ، بل كان يتنقل بسيارته ، ليس بها غير سائقه وهو ما مكن المجرمين من قتله وهو ذاهب إلى صلاة الجمعة ، نفذ هذه الجريمة في لاغوس أحد الكفار ، ويدعى دمكا.

وبعد ما ذكرنا عن مرتضى الله نحسب أن القارئ عرف الآن أنه جدير بمقام الشهادة ، ليلحق بالشهيد أحمد بللو وأبي بكر تفاوا ، وغيرهما من شهداء الإسلام.

الديمقراطية والفقر :

ذكرنا أن الشعب في نيجيريا اختار الديمقراطية على الحكم العسكري ، ولابد أنه كان يحنّ إلى فترة الحكم الذي سبق المؤامرة عام ١٩٦٦م ، وقد اختير الحاج الشيخ شغاري الذي بقي حتى انتهاء الفترة الرئاسية ثم أعيد انتخابه سنة ١٩٨٣م لفترة أخرى إلى أن جاء الانقلاب العسكري في مفتتح سنة ١٩٨٤م ، حيث أطاح

الجنـرال محمـد [1] البخـاري بـالرئيس المنتخب ، وأصبح هـو علـى رأس السلطة العسكرية.

وفي عهد الرئيس شغاري حدثت الأزمة الاقتصادية التي جعلت الناس يتمنـون عودة الحكم العسكري حيث كانت البلاد في بحبوحة من العيش ، ترفل في النعيم الذي بدأ يتراجع منذ بزوغ فجر الديمقراطية في البلاد ، وهنا قامت الجماهير تتهم هذه الديمقراطية بأنها ما جرت على البلاد إلا الفقر والأزمات.

والحق أننا لا نحاول هنا الدفاع عن رئيس أو نظام ، فالديمقراطية الحزبية نظام عفن مخالف للإسلام ، فالشارع المُشرّع ليس الشعب أو نوابه ، بل هو رب العزة ، كما أن ويلات الحزبية ومآسيها سبق الحديث عنها ، وبرغم هذا كله فإن النظم العسكرية ، وبخاصة في العالم الإسلامي أشد شراسة وأكثر عفنا ، وإذا خيرت الشعوب فلاشك أنها تختار الديمقراطية دون تردد ، وإن كنا نرى أن الحكم العسكري في نيجيريا يختلف عن غيره من بلدان العالم كما سيأتي.

وإذا لم تكن الديمقراطية مسئولة عن الأزمة الاقتصادية ، فما هي الأسباب الحقيقية لما حل بالبلاد ؟ يجيب الجنرال محمد البخاري : (نقص عائدات البترول - الفساد السياسي - إهمال الزراعة) ونزيد السبب الأول وضوحا فنقول :

لقد كانت نيجيريا تلعب دور السعودية الآن ، بمعنى أنها كانت البقرة الحلوب لكل ما يريده الغرب من بترول ، حيث كان العرب يلوحون باستخدام سلاح النفط ضد من يقف مع إسرائيل ، وبخاصة في حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، ومن ثم استطاعت

(١) أطاح الجنرال إبراهيم بابا نغيدا بالرئيس محمد البخاري في أغسطس ١٩٨٥م متهما إياه بالتقصير وسوء استخدام السلطة.

نيجيريا أن تبيع كميات هائلة جدا من بترولها حتى وصل الدخل من النفط فقط خمسة وثلاثين مليارا من الدولارات في بعض التقديرات ، هذا المبلغ انخفض سنة ١٩٧٩م إلى خمسة وعشرين مليارا فقط ، أي في بداية حكم شغاري ، وفي سنة ١٩٨٢م انخفض إلى عشرة مليارات فقط ، وهنا بدأت الأزمة الاقتصادية تستحكم ، وبدأ الناس يحسون بالفارق بين الحكم العسكري الذي عم فيه الرخاء ، والحكم الديمقراطي الذي جاء بالغلاء والأزمات.

ولكن ما السبب في تحول الغرب عن نيجيريا ؟ إن الحلب اتجه إلى السعودية بشكل خاص ، التي أصبحت المضخة البترولية ، تنتج كميات هائلة من النفط.

لقد أرادت قوى الاستكبار العالمي أن تحارب السعودية إيران ونيجيريا وغيرهما من البلاد التي لا تلتزم ـ حسب زعمهم ـ بقرارات الأوبك ، ولكن السبب الحقيقي هو محاولة خنق إيران اقتصاديا لأنها أصبحت بعد سقوط الشاه غصّة في حلق المستكبرين وأذيالهم ، ولا يبعد أنهم أرادوا أيضا إفهام الشعب النيجيري ـ من طرف خفي ـ أن الديمقراطية لا تجلب إلا الجوع والفقر والأزمات.

ولكننا نلاحظ أن الأزمة بدأت تستحكم منذ سنة ١٩٨٢م ، والسبب واضح ، إن حرب الخليج طالت واستقرت وتأججت نارها ، فاحتاجت إلى وقود أكبر ومال أوفر ، وكان على العرب أن يدفعوا الثمن نيابة عن الغرب وإسرائيل ، وهكذا يأخذون النفط ودولاراته أيضا لقاء السلاح والعتاد الذي نقتل به إخوتنا في الإسلام خدمة لليهود والنصارى ، ومن أجل هذا يقبلون على البترول السعودي ـ والخليجي أيضا ـ يعبون منه وينهلون ، يملأون خزائنهم ، يشغلون مصانعهم ، والعرب في النهاية خاسرون ، في الدنيا ، بنفاد نفطهم وضياع أموالهم التي تلتهمها الحرب القذرة ،

وقتل أنفسهم وأرواحهم ، وخراب مدنهم وبلادهم ، وفي الآخرة أشد خسرانا وهلاكا ، بموالاة الكافريـن ضد المسلمين ، أملا في القضاء على الثورة الإسلامية ، وطمعا في تثبت العروش المتهاوية.

أما اليهودية والصليبية فهما في أسعد حال ، لا يدفعون شيئا ، ولا تراق منهم قطرة دم واحدة ، ولا يخرب من بيوتهم جدار واحد ، فالعرب كما حاربوا الخلافة العثمانية ، ووقفوا مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ضد المسلمين الأتراك هاهم الآن بنفس البلاهة والعمالة يقفون ضد إيران ، ولكن الحرب في الخليج كانت سببا في تهاوي العروش المتحكمة المتسلطة على أمتنا ، وستكون نقمة ووبالا على من خططوا لها وعلى من بدأها أو شارك فيها.

والآن نعود إلى القصة البترولية فنقول إن السعودية أغرقت الآن السوق العالمي بالبترول ، حتى قيل إنها كانت تسّير السفن في البحر لمن يريد أن شتري ، وكانت أيضا تنتج لحساب العراق الذي يتعاقد ويقبض وتقوم المملكة بالتصدير من نفطها ، ورغم هذا كله سجل الميزان التجاري في السعودية عجزا ماليا واضحا ـ بلغ أحيانا ـ كما في عام ١٩٨٤ ثلاثة عشر مليار دولار أخذ من الاحتياطي النقدي الذي بدأ في التدني عاما بعد عام.

وحدث نفس الشيء في دول الخليج ـ بما فيها الكويت نفسها ـ التي دفعت هي الأخرى جزءا من فواتير الحرب القذرة ، كما تعبت الدول البترولية الأخرى اقتصاديا بدرجة مخيفة ـ بسبب موقف السعودية ـ ومنها ليبيا ، الجزائر ، نيجيريا وغيرهما.

أما إيران الإسلام فقد استطاعت برغم الحرب أن تحافظ على صادراتها

النفطيـة [1] لأنهـا لجـأت إلـى التعاقـد علـى كميـات صـغيرة مـع دول كثيـرة ، بعيـدا عن الـدول الكبـرى التـي تـستورد كميـات كبـرى ، فـإذا أرادت ضـرب الـدول المـصدرة لهـا استطاعت بـسهولـة ، ومـا هـو إلا أن تتحـول إلـى الاستيراد مـن دولـة أخـرى ، وهـذه التجربة يمكن الاستفادة بها في نيجيريا أو غيرها.

وهكـذا يجـب أن يعـرف الـشعب النيجيـري الـسبب فـي انخفـاض عائداتـه مـن البتـرول ، إنـه الـسعودية ، وقـد فعلـت ذلـك خدمـة [2] للمـستكبرين فـي استيراد الـنفط بأرخص الأسعار ، وتمويل الحرب القذرة ضد المسلمين في إيران.

ولكـن هـل يعفـى نظـام شـغارى مـن المـسئولية ؟ إنـه يتحمـل جـزءا كبيـرا مـن المسئوليـة ، وكان عليه أن يواجه التحديات دون أن يتركهـا تعصف بـه فـي النهايـة ، وهو مسئول أيضا عن الفساد السياسي والاقتصادي الذي استشرى في عهده.

ويـرى الـبعض أن شـغارى لا غبـار عليـه ، ولكنـه ضـعيف ، فلـم يـستطع كـبح جماع الفاسدين حوله الذين استغلوا ضعفه في نـهب اقتصاد البلاد ، وتـهريـب الأمـوال الطائلـة إلـى الخـارج ، فهـذا عمـر ديكـو الـذي وصـف بأنـه الرجـل الثـاني فـي حكومـة شغارى - هرب وحده مليارين من الدولارات ، وهذا نذر من بحر ، ومثال ليس إلا.

ويرى آخرون أن شغارى كان منافقا ، ينادي ببعض الشعارات غير الإسلامية ،

---

(1) كانت الصادرات النفطية قد تدنت بعد الثورة حتى وصلت سنة ١٩٨١م ثمانين ألف برميل فقط في اليوم ، ثـم ارتفعت إلـى ثلاثـة ملايين ومـائتي ألـف برميـل يوميـا سنة ١٩٨٣م ، ولتموتـوا أيهـا المـستكبرون بغيظكم ، فالله غالب على أمره.

(2) ولكن السعودية لـم تـسلم هـي الأخرى مـن مؤامرات الغرب الـذي يـسيل لعابـه علـى الاحتيـاطي النقـدي الـسعودي ، فتـدني الإنتـاج البترولـي مـن حـوالي ٩ مليـون برميـل يوميـا إلـى قريـب مـن مليـونين عـام ١٩٨٥م ، فمن أعان ظالما ابتلى به.

مثل فصل الدين عن السياسة ، كما أن البلاد شهدت في عهده تسيبا أمنيا ، وبخاصة في نهاية حكمه ، حيث كثرت حوادث السرقة والقتل إلى آخره.

على أية حال فإننا نستطيع أن نضيف هنا شيئين هما :

١ ـ تخفيض سعر البترول من أربعة وثلاثين دولارا للبرميل الواحد إلى تسعة وعشرين فقط ، وكان هذا خدمة كبيرة قدمها حكم شغارى للمستكبرين وجريمة كبرى في حق المستضعفين الذين رزقهم الله بالنفط ليكون عونا لهم وسلاحا ضد الدول الكبرى الناهية لثروات [1] الأمم.

وكان الذي بدأ بهذه الخطوة بريطانيا ثم النرويج ـ وهما ليستا من الأوبك ـ ثم تبعتهما نيجيريا ، وبرغم هذا فإن البلاد لم تستفد شيئا من هذا التخفيض ، لأن دول الأوبك المصدرة للبترول خفضت هي الأخرى ، فأصبحت خطوة نيجيريا لا قيمة لها ، ولم تستفد شيئا غير مزيد من الأزمات الاقتصادية ، وانخفاض حاد في العائدات البترولية.

٢ ـ والجريمة الثانية هي طرد مليونين ونصف إفريقي ، معظمهم من غانا ، وفيهم كثير من المسلمين ، وذلك بطريقة مهينة ، غير إنسانية ، وإذا كانت إقامة هؤلاء غير شرعية فلماذا تغاضت عنهم الحكومة ، وتركتهم حتى هذا القرار المفاجئ ؟. لقد كان على الحكومة أن تنذرهم أولا ، ثم ترحلهم تدريجيا ، وبطريقة إنسانية كرمة ، أما أن يعطي أكثر من مليوني إنسان إنذارا بمغادرة البلاد قبل أسبوعين فهو ظلم كبير وتعنت بالغ.

---

(١) فعلت الحكومة العسكرية الشيء نفسه في أكتوبر ١٩٨٤م ، اقتداء ببريطانيا والنرويج ، وهكذا وقع الخلف في نفس خطأ السلف ، فأين العقول يا سادة ؟!.

وبرغم هذه الخطوة الجائرة فإن الأزمات الاقتصادية تفاقمت وازدادت وجاءت النتائج على غير ما أمل المخططون لهذه الجريمة ، لأنها لم تمس جوهر المشكلة الاقتصادية وأساسها.

ولقد كان شغارى يستطيع أن يكتفي بفترة رئاسية واحدة ويترك الحكم ، ولكن الله لم يرد به الخير ، وهنا نتساءل : لماذا اختار الشعب شغارى للمرة الثانية برغم الأزمة الاقتصادية والفساد السياسي ؟ يرى البعض أن الحكومة استخدمت التزوير في الانتخابات الأخيرة ، والحق أنك لا يمكن أن تجد انتخابات نظيفة مائة في المائة ، والسبب الحقيقي وراء انتخاب شغارى هو أن منافسه أوبافيمي أولو أصر على إعادة العلاقات مع إسرائيل ، زاعما أن أصحاب الشأن - أي العرب - قد تصالحوا مع أعدائهم ، ولهذا رفض الشعب النيجيري أولو الماسوني الصهيوني ، صاحب التاريخ الأسود الذي ذكرنا طرفا منه.

ولكن هل كان لهذا الأولو دور في الانقلاب الأخير ، وبخاصة بعد هزيمته أمام منافسه ؟ استبعد ذلك ، ولا بأس بمحاولة البحث والاستقصاء لمعرفة جلية الأمر.

الانقلاب الأخير :

بعد استلام حكومة شغارى لمقاليد السلطة مرة ثانية عام ١٩٨٣م بدأت الأمور تستقر بعض الشيء ، فالأحوال الاقتصادية مرضية ، وبخاصة إذا ما قورنت بما وصلت إليه إبان الانقلاب ، ولكن حالة من عدم الأمن والاستقرار بدأت تسيطر على الناس ، ولو أننا نرى أنه بولغ كثيرا في هذا الشأن ، ولذا فليس من المستبعد أن القوى التي كانت تدفع البلاد نحو الانقلاب قد تولت إشاعة الحكايات والقصص حول حوادث وهمية تماما ، أو على الأقل مبالغ فيها ، أو لعل هذه القوى هي التي

دبرن بنفسها بعض الحوادث ، أو أوحت لبعض رجالها في الشرطة بغض النظر عن بعض المجرمين حتى تظهر حكومة شغارى وكأنها ضعيفة ، لا حول لها ولا قوة.

وهنا يجب أن يفطن المسلمون إلى أن العدو قد يدفعنا إلى أن نقوم نحن بعمل هو يريده ، موجدا من الأسباب والمبررات التي تدفعنا دفعا إلى ما يرضيه ، وفي هذه الحالة علينا أن نفتش عن أصابع اليهود وأذنابهم.

وعلى أية حال فسواء أكان الانقلاب بدافع ذاتي من العسكريين ، أو دفعت إليه قوى داخلية أو خارجية فإنه يعتبر دليل صحوة ويقظة ، ففي كثير من بلدان العالم المغلوبة على أمرها يعم الخراب والدمار والانهيار ، والجيش صامت في مكانه لا يتحرك ، أو لا يستطيع الحركة.

ومن ناحية أخرى فقد كان النيجيريون يترقبون هذا الانقلاب منذ منتصف سنة ١٩٨٣م ، وبعد موجة ارتفاع الأسعار وعدم الثقة في حالة الأمن ، ولذا لم يكن انقلاب فجر الأول من يناير سنة ١٩٨٤م مفاجأة لأحد في البلاد على الإطلاق ، وكان الناس يتوقعون فيه خلاصا من الأزمة الاقتصادية واستقرار الأمن ، وإن تحفظ قليل جدا من الناس ، ورأوا أن تحطيم الديمقراطية فيه خطورة كبيرة ، على الأقل على المستوى البعيد.

على أية حال وقع الانقلاب المرتقب وفرح الناس ، وتذكروا الحكومات العسكرية قبل شغارى وكيف كان الرخاء يعم والخبرات وفيرة ، ورأوا أن عهد الأزمات الاقتصادية والفساد السياسي سيولي إلى غير رجعة ، وأن الأسعار ستعود كما كانت أيام زمان ، أيام العز والرخاء.

وبدت الحكومة العسكرية الجديدة نشيطة فتية فأشعرت الناس باستقرار الأمن واستتبابه ، وبدأت حملة من الانضباط والنظافة للمدن الكبرى والشوارع ، وحاولت محاربة الغلاء بفرض التسعير الجبري وبوسائل أخرى.

أما من الناحية الأمنية فقد أحس الناس حقيقة بما قامت به الحكومة الجديدة من القبض على المجرمين وقطع الطرق ، وأعدمت بعضهم ، أمام الجماهير ، على شاشة التليفزيون.

أما الأسعار فقد ارتفعت ارتفاعا حادا جعلت الناس تترحم على أيام شغارى ، ويتساءل أحد أساتذة الجامعة : (كيف كان شغارى يسيّر الأمور) وزاد الطين بلة أن كثيرا من السلع الأساسية بدأت تختفي تماما من الأسواق.

وحاولت الحكومة فرض التسعير الجبري ففشلت تماما ، وأدت هذه العملية إلى ارتفاع أكثر للأسعار ، بل أدى ـ هذا في بعض الأحيان ـ إلى اختفاء السلع تماما ، ولكن أساليب أخرى ناجحة اتبعت ، منها توزيع السلع المختفية والشحيحة في مكان العمل بأثمان معقولة ، وبيعها للجمهور في مختلف الأماكن بواسطة سيارات متنقلة متجولة ، وبهذا انخفضت أسعار بعض السلع ، وإن كانت سلع أخرى ارتفع سعرها ارتفاعا فاحشا ، أو ظلت مختفية تماما.

وصفوة القول أن الحكومة الجديدة فشلت تماما في علاج الأزمة الاقتصادية والسيطرة على الأسعار ، وكان من مظاهر هذا الفشل :

١ـ انخفاض سعر النيرة ـ عملة البلاد ـ في السوق الحرة إلى أدنى حد ، فقد بلغ سعر الدولار الأمريكي ما يزيد عن ثلاثة نيرات ، ما أدى إلى ارتفاع أسعار

الذهب والسلع المستوردة ارتفاعا فاحشا.

٢- ارتباك البنوك ارتباكا مخجلا ، برغم اعتماد الناس عليها اعتمادا كبيرا ، وإن ينس أحد فلن ينسى يوم أمرت الحكومة بتغيير العملات الورقية ، فئة خمس نيرات وعشر وعشرين ، وبدأت البنوك تأخذ النقود القديمة لاستبدالها بالأوراق الجديدة ، وإذا بهذه الجديدة غير كافية ، فأخذت نقود الناس القديمة ، دون بديل لها ، وأحس الجميع بالضيق والعنت الشديد ، ناهيك عن معاملة موظفي البنوك التي فاقت حدود التصور والخيال.

وهنا راجت شائعات كثيرة ، منها أن الحكومة تجمع الأموال لمصادرتها ، أو لمنع المغتربين العاملين في نيجيريا من الاستفادة من أرصدتهم التي لم يتمكنوا من تحويلها بالطرق القانونية إلى بلادهم.

وكانت البنوك قد ارتبكت أيضا في تحويل أموال المغتربين ، بسبب نقص العملات الصعبة ، بل إنها اتبعت معهم أساليب غوغائية حقيرة ، مرغت سيرة البلاد في الطين والوحل ، وبدت نيجيريا في أعين الأجانب العاملين فيها وكأنها أسوأ بلاد الدنيا.

وبما أن البنوك لا تقوم بواجبها - سواء بإيعاز من الحكومة أو رضا منها - فإن كثيرا من المغتربين بدأ يسحب رصيده من العملة المحلية لشراء ما يريدون من السوق الكاسدة ، وذلك على كره منه ومضض فوجد البنوك لا تعطيه إلا مبلغا قليلا جدا ، كان يصل أحيانا إلى خمس نيرات فقط.

بينما رصيده يبلغ الآلاف .. وهكذا الشأن مع النيجيريين أنفسهم ، وكم عانت أسر كثيرة عديدة من نقص النقود في أيديهم لعدم تمكنهم من صرف شيء من

أرصدتهم في البنوك أو صرف مبالغ تافهة لا تكفي ليوم واحد ، ولشراء القوت الضروري أحيانا كثيرة.

واستطاعت البنوك في النهاية حل مشكلة السيولة النقدية فأعطت عملاءها ما يريدون تقريبا ، وانتهت هذه المشكلة التي أرقت الناس وأذلتهم ، وجعلتهم يترحمون على أيام زمان ، وإن بقيت مشكلة تحويل أجور المغتربين ومستحقاتهم بلا حل ، بل إن الحكومة عمدت إلى تخفيض النسبة المسموح بتحويلها ، وبدا كأنها مؤامرة خبيثة لتطفيش المغتربين وأكل حقوقهم ، وإساءة سمعة البلاد ، وتمريغها في الأوحال.

الديمقراطية والانقلابية :

لقد كان هذا الانقلاب ضروريا حتى يفطن الشعب النيجيري إلى الأسباب الحقيقية وراء أزماته الاقتصادية ، وأن يتأكد بوجه خاص أن الديمقراطية لم تكن طريقا إلى تجويعه ، فقد أطيح بها ، ولكن الأزمات لم تنته ، بل تفاقمت.

وبرغم أننا نعتقد أن الديمقراطية نظام عفن وسيئ فإننا نفضله على عبله وسوآته على الحكم العسكري ، مهما بلغ إخلاص العسكر وتفانيهم ، مع الأخذ بالاعتبار أن الوضع في نيجيريا مختلف إلى حد كبير عن مثيله في بلدان العالم ، ومن ثم نضع أمام القارئ الكريم ما يلي :

١- الجنرال محمد البخاري قائد الانقلاب تلميذ للشهيد مرتضى الله محمد ، ويرى بعض الناس أنه يسير على دربه ، وإن كانت الظروف مختلفة الآن.

٢- أحد قادة الانقلاب كان رئيسا لاتحاد الطلاب المسلمين في نيجيريا ، ويقال بأنه لا يزال يصوم الاثنين والخميس كل أسبوع.

٣- يرى بعض رجال الحركة الإسلامية في نيجيريا أن قادة الانقلاب لديهم توجيهات إسلامية واضحة ، وأن الحكومة العسكرية الحالية أقرب إلى الإسلام من حكومة شغاري السابقة.

٤- عدم إعادة العلاقات المقطوعة مع إسرائيل منذ سنة ١٩٧٣م برغم ضغوط أصدقاء الصهاينة الذين يحتجون بأن العرب أعداء الأمس قد رضوا عن الدولة اليهودية ، وساروا في طريق السلام ودفعت الحكومة العسكرية بأن إسرائيل على علاقة قوية بجنوب إفريقية ذات التفرقة العنصرية ، والتي تضطهد الأفارقة وتتحكم فيهم.

بل حولت الحكومة مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في لاغوس إلى سفارة فلسطين ، كما فعلت إيران ، وحين قامت الأخيرة بحملتها لطرد إسرائيل من الأمم المتحدة سنة ١٩٨٤م أبدت نيجيريا حماسا شديدا ، وأعلنت على لسان أحد مسئوليها : (إن إسرائيل ليس لها مكان بيننا).

وبرغم هذا كله فإن الناس تود عودة حكومة مدنية قوي ونظيفة ، نأمل أن تكون إسلامية إن شاء الله ، ولا يعني ما سبق من تفضيل الديمقراطية على الانقلابية أننا نركن إلى الأولى بدلا عن الإسلامية ، بل نوجه الأنظار إلى أن الحكومات العسكرية الانقلابية أذاقت المسلمين الذل والهوان وبكل الصنوف والأشكال ، وأن الديمقراطية الحزبية أخف وطأة وأقل ضررا ، ولكننا نضرع إلى الله أن يمن على المسلمين - في إفريقية وغيرها - بخلافة عالمية تلم شعثهم ، وتنقذهم من الفرقة ، والضياع على موائد اللئام.

نعود إلى أسباب الأزمة الاقتصادية الثلاثة (انخفاض العائدات البترولية -

الفساد السياسي - إهمال الزراعة) فنقول : إن الحكومة العسكرية تحاول الحصول من الدول المصدرة للبترول (أوبك) على السماح بإنتاج كميات أكبر من بترولها لعلاج الأزمة الاقتصادية ، وقد سمح لها فيما يبدو بزيادة طفيفة بلغت مائة ألف برميل يوميا ، وهي غير كافية ، ولا تستطيع الأوبك أن تأذن لنيجيريا بأكثر من ذلك بسبب موقف السعودية المغرق للسوق العالمي ، ولأن هذه الزيادة المطلوبة ستقطع من حصتها ، وهي أيضا في موقف صعب حيث العجز في الميزانية وانخفاض احتياطيها من النقد الأجنبي إلى حد مخيف.

وتقول إحدى المجلات الاقتصادية : (إن نيجيريا تزيد من إنتاج بترولها من أجل توفير المال اللازم للإنفاق على مشروعاتها ، وقد هددت بالانسحاب من عضوية الأوبك إذا لم يسمح لها بزيادة حصتها ، ووافقت المنظمة في يوليو الماضي ١٩٨٤م على زيادة الإنتاج من ١,٣ مليون برميل يوميا إلى ١,٤ في أغسطس ، وإلى ١,٤٥ في سبتمبر ، وتشير التقارير أن نيجيريا قد تجد بصعوبة في تسويق هذه الحصة المرتفعة بسبب الفانض في سوق البترول).

ومن ناحية أخرى حاولت الحكومة الحصول على قرض من صندوق النقد الدولي دون جدوى لأنه يشترط عليها : (تخفيض قيمة النيرة [١] - إلغاء الدعم على مشتقات البترول في الداخل - انتهاج سياسة متحررة فيما يتعلق بالتجارة الخارجية - وعلي العمل في العاصمة الجديدة أبوجا) وحتى لو حصلت نيجيريا على القرض المطلوب فإنه لن يحل أزماتها الاقتصادية لأنه سيزيد من ديونها التي كانت تربو على العشرين مليار من الدولارات ، وكأني بالبلاد حين تطلب مزيدا من القروض

(١) قيمة النيرة رسميا دولار وخمس تقريبا.

كأني بها تقول : وداوني بالتي كانت هي الداء [1].

وفي مجال محاربة الفساد السياسي والاقتصادي اعتقلت الحكومة العسكرية مئات من المسئولين ـ في رأيها ـ عن هذا الفساد وبدأت في محاكمتهم ، وبخاصة رموز النظام السابق وأركانه.

أما عن الزراعة فإن أحد العلماء النيجيريين يرى أن الحكومات السابقة حاولت الاهتمام بها ، ولكنها لم تلق من الشعب استجابة ، وهو أمر خطير تنزلق إليه وتعاني منه كثير من البلدان النامية.

وبقي ـ بعد الحديث عن الديمقراطية والانقلابية ـ أن نشير سريعا إلى شيئين :

١ ـ إن وضع العاصمة لاغوس في أقصى الجنوب من البلاد ليس مناسبا من نواح عدة ، ولذا فكرت الحكومة في بناء عاصمة جديدة أسمتها أبوجا تقع في وسط البلاد تقريبا ، فلماذا يصر صندوق النقد الدولي على عدم إكمال بناء العاصمة ؟ وهل من المصلحة اقتصاديا البدء في مشاريع عمرانية أو مدنية ثم ترك ذلك كله ليظل خرابات أو أطلالا ؟ أم أن وراء هذا الرفض دوافع أخرى ، ومنها بقاء العاصمة في الجنوب ذي الأكثرية الكافرة ، وبعدها عن الشمال المسلم ؟ وما هذا ببعيد.

٢ ـ آن الحركة التي تزعمها الحاج [2] أحمد متاسيني ليست إلا حركة مشبوهة أراد بها الصليبيون واليهود شق صفوف المسلمين ، وإيقاد نار الفتن بينهم ، فقد كان هذا الرجل متاسيني من الشيوخ الذين نالوا حظا قليلا من التعليم الديني ،

(١) سرني كثيرا ما أعلنه الجنرال بخارى من أن نيجيريا لن تعتمد على القروض الأجنبية ، وذلك عند تقديمه لميزانيته العام الجديد ١٩٨٥م ، أفلح أن صدق.

(٢) بدأت هذه الحركة المشبوهة على يد مؤسسها أحمد ماتسيني في مدينة كنو سنة ١٩٨٢م.

وبدأ يعلم الأطفال بعضا من هذا التعليم ثم ركبته شياطين الإنس فأوعزوا إليه بالنبوة والكرامات والمعجزات.

وكانت هذه الشياطين تجمع له المال من طرق شتى ، شديدة المكر والدهاء ، منها أن يأتي له رجل طيب يشكو مرض ابنه الوحيد ثم يقول للشيخ ادع الله أن يشفي لي ابني ، ويغيب هذا الرجل ليعود إلى الشيخ مقبلا يده شاكرا له ، إن الله استجاب لدعائه أو لرقيته أو تميمته ، وهكذا جمعت له الأموال الطائلة ، دون أن يدري أنه يساق إلى حتفه ، وإلى مؤامرة ضد المسلمين.

وازدادت جماعته وتفاقم شره ، ثم ادعى النبوة ، قيل إن أتباعه كانوا يحرقون من ينكر نبوته ، فكانوا يسألون الناس عن ذلك في الشارع فمن أنكر نبوة هذا المتاسيني سكبوا عليه البنزين وأحرقوه.

وبدأت الشائعات تكثر حول المعجزات والخوارق المتاسينية ، فرصاص الشرطة إذا أطلق عليه أو على أحد أتباعه ارتدت الرصاصة في قلب الشرطي فقتلته إلى آخر تلك الشائعات التي جعلت منه ومن أتباعه أسطورة الزمان.

وجاء الجيش النيجيري الهمام فهدم الحي الذي يسكنه متاسيني ويتحصن فيه على رءوس أصحابه ، وأصبح هذا الحي من مدينة كنو ـ شمال نيجيريا ـ أصبح خرابا وأطلالا ، أو قل صعيدا زلقا ، ولا تزال آثار الخراب والدمار شاهدة على ما يستطيع أن يفعله الأعداء بنا ، وبأيدينا نحن ، فقد قتل كثير من الأبرياء في هجوم الجيش ، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك غير هذا الحل.

وبعد الانقلاب العسكري ، وفي فبراير ١٩٨٤م حاول إتباع ماتسيني الظهور مرة أخرى ، وقاموا ببعض أعمال الشغب وإثارة الاضطرابات في مدينة يولا في شرق البلاد ، ولكن الحكومة استطاعت السيطرة على الموقف ، وتقديم المسئولين عن هذه الحوادث للمحاكمة.

(ب) عبير الخلافة في نيجيريا

لقد أسقط الإنجليز الخلافة ، ولكن عبيرها والشذا لم يبرحا البلاد ، فها هي العاصمة سكتو باقية - أبد الدهر إن شاء الله - تذكر المسلمين في كل حين وآن بدولة الإسلام العظيمة ، ووجوب عودتها لتقيم عدل الله على أرض الجهاد والشهادة ، أرض إفريقية التي قدمت في معركة واحدة ، ودفاعا عن دولة الخلافة ستة وثلاثين ألف شهيد ، بل تذكر المسلمين في كل مكان بوجوب العمل على إقامة الخلافة العالمية.

كما تجد في نيجيريا أيضا الأمراء في كل ولاية ومدينة والقضاة الشرعيين الذين كان لهم الأمر قبل الاستعمار الذي حولهم - وبخاصة الأمراء - إلى رجال مراسم ومناسبات ، بعيدا عن الحكم والسلطة اللتين أصبحتا في يد الحاكم دون الأمير.

ولكن مظاهر أخرى بقيت في هذا البلد هي - في رأينا - بقية من عبق الخلافة ومسكها الذي قاوم رياح التغيير إلى العلمانية الكافرة حتى الآن ، برغم كل الدساس والمؤامرات ، ومن هذه البقية ما يلي :

١ـ حرية الرأي :

إن أول شيء يميز نيجيريا هو حرية الرأي لجميع الناس دون رقابة حمقاء على لسان أو قلم أو عمل ، والذي يعيش في هذه البلد يحس أن الحكم فيه ليس بوليسيا ، يعتمد على الشرط [١] في الصغير والكبير والتافه والحقير من الأمور ، ومن ثم فهذا الصراع الحاد بين الشعب والحكومة ـ وهو المألوف المعهود في كثير من دول العالم ـ ليس موجودا في نيجيريا فيما يبدو ، وفي هذا أمن واستقرار للحاكم قبل المحكومين ، على عكس ما يرى بعض المتحكمين في شعوبنا المسلمة ، أصحاب التفكير الرجعي المتخلف الذين يعيشون الآن بعقلية العصور الهمجية المظلمة ، حيث لا يقف أمام أهواء الحكام شيء على الإطلاق.

أما مظاهر حرية الرأي في نيجيريا فهي كثيرة ، منها دخول الكتب والمجلات والصحف من جميع أنحاء العالم ، لا يمنع منها شيء على الإطلاق ، ولا يُحْظر دخوله ، ولذا تجد المطبوعات الحكومية لكل بلد ، ومطبوعات المعارضة ، وبشتى اللغات ، ومنها العربية ، فتجد المطبوعات الحكومية التي تصدرها السعودية والعراق والسودان وليبيا وغيرها ، كما تجد صوت المعارضة لكل منها ، وبخاصة الرسالية منها ، فهناك مجلة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية ، والثورة الإسلامية في البحرين ... الخ.

كما تجد بسهولة شديدة جميع الكتابات الرسالية التي تصدر في جميع أنحاء العالم ، تلك الكتابات التي يحظر دخولها إلى كثير من البلاد المسلمة ، والعربية منها بشكل خاص ، فهناك من المجلات الرسالية مجلة أضواء التي تصدرها الثورة

(١) مفردها شرطي.

الإسلامية العراقية ، وكذلك تجد المجلات الرسالية التي تصدر من أوربا مثل الدعوة من النمسا ، والرائد من ألمانيا ، والطليعة من لندن وغيرها.

كما تجد أيضا مطبوعات الثورة الإسلامية في إيران بالعربية وغيرها من اللغات ، سواء أكانت كتبا ، صحفا ، مجلات أو نشرات ... الخ.

إضافة إلى صوت المعارضة غير الإسلامية ، وإن كان خافتا ، لا يكاد يحس به أحد.

وعلى هامش هذا الموضوع نشير إلى المعركة المستعرة التي تقودها بعض الدول العربية ومرتزقتها ضد الثورة الإسلامية في إيران وكرها الذي يجد رواجا واسعا في نيجيريا.

أما منطلق الدعاية السعودية فهو أن الشيعة كفار - والعياذ بالله - والفرس مجوس ، وما الثورة في إيران الإسلامية إلا صناعة المخابرات المركزية الأمريكية.

أما أسلحة العرب في هذه المعركة فهي الكتب التي توزع بالآلاف مجانا ، وباللغة العربية ، ومن أبرز هذه الكتب التي يظهر فيها المنطلق السابق ، كتاب وجاء دور المجوس ، تأليف الدكتور عبد الله الغريب ، وهو مطبوع في القاهرة ، ومن الأسلحة أيضا إقناع بعض الفئات المؤثرة في الرأي العام بالمنطلق السابق ، مثل أئمة الجمعة ، والخطباء والمتحدثين في الإذاعة والتليفزيون ، وكذلك علماء الدين ، ومفسري القرآن في رمضان والمحاضرين في الجامعة ... الخ.

ويستخدم في إقناع الناس المال الذي يعطى لهم تحت مبررات مقنعة ، وبطرق

ماكرة ، كما تُغْدق عليهم أنواع الكتب المعادية للثورة الإسلامية بأعداد ضخمة جدا ومجانا ، كما تستخدم الاتصالات الشخصية وكثير من المرتزقة الذين يأتون إلى نيجيريا تحت عناوين مختلفة.

فقوم يأتون لتدريس اللغة العربية أو للدعوة الإسلامية ، وهم في الحقيقة جاءوا للدعوة المعادية لإيران ، ومن الطريف أنهم يأتون بأعاجم لتدريس العربية ، سواء في المدارس أو المعاهد أو الجامعات ويختارونهم من الباكستان والهند بوجه خاص ، وقليل من السودان أو مصر.

أما أبناء الباكستان والهند فهم رجال مكافحون حقا ، وبعضهم عاش في السعودية أو غيرها مدة طويلة ، فأصبح ذا عربية مرضية ، ولكن بعضهم ـ وبخاصة في المدارس ـ لا يستطيعون النطق العربي بطريقة صحيحة.

ولكن ، فارق كبير بين رجال ورجال ، إن بعض العرب يكرسون أموال المسلمين لحرب الثورة الإسلامية في إيران ، فقد تجد بعض الرجال الذين يستخدمهم العرب ، مرتزقة ، بدءا من الكتاب والدارسين والمحاضرين والدعاة ، وحتى علماء الدين والوعاظ وغيرهم ، كل هؤلاء مأجورون مستأجرون ، أما رجال الثورة الإيرانية فهم الذين يكتبون بأنفسهم ، ويحاضرون ويدافعون وينافحون بوحي من دينهم العظيم ، وإيمانهم بطريق الإسلام ، ولذا فهم المنصورون الغالبون ، فالنائحة الثكلى ليست كالمستأجرة ، كما ذكر الحسن البصري (رضي الله عنه).

نعود إلى حرية الرأي في نيجيريا فنشير إلى أن الحكم العسكري الجديد الذي بدأ في يناير عام ١٩٨٤م لم يغير من الأمر شيئا ، ومن الأدلة على ذلك ما يلي :

أ ـ مع بداية الانقلاب في يناير ، وفي مسجد كبير هاجم خطيب الجمعة سياسة الحكومة العسكرية الجديدة التي تحاول فرض التسعير الجبري ، ودفع بأن هذا ظلم للبائع ، مبينا حكم الإسلام في هذه القضية ثم ذكر أن هذا الانقلاب لن يصلح البلاد ، ولا الانقلاب الذي سيأتي بعده ، فهذي البلاد لا يصلحها إلا الإسلام ، ترى لو قيل هذا الكلام عقب انقلاب عسكري في مصر أو سوريا أو السودان أو غيرهما فماذا يكون الجزاء ؟ هذا على فرض أن يتجرأ أحد على مثل هذا الكلام.

ب- زار الرئيس [1] شغاري إحدى الجامعات الشهيرة وألقى بها خطابا ، وكذلك بعض المسئولين في الحكومة والجامعة ، وذهب شغاري وجاء بخارى ، ولكن هذه الخطب طبعت في كتيب على صفحته الأولى صورة الرئيس السابق ، ثم وزع هذا الكتيب على محاضري الجامعة ، فهل كان أحد ـ مثلا ـ يستطيع أن يطبع كتابا عليه صورة ملك مصر بعد قيام ثورة ١٩٥٢م ، وهل يمكن أن يوزعه بهذه الطريقة ؟ أبناء الكنانة يفهمون هذا جيدا ، ويعرفون الإجابة المؤكدة.

وصفوة القول أن نيجيريا تتميز بحرية الرأي والفكر ، وهو فيما أرى أثر من آثار الخلافة العظيمة التي أقامها ابن فودي ، ويستوي في هذه الحرية أنت تكون تحت الحكم المدني والعسكري.

٢ـ التعليم الديني :

تنتشر في نيجيريا الكتاتيب لتعليم الأطفال القرآن الكريم ، ومبادئ الإسلام ، وكذلك المعاهد الدينية لتعليم الكبار ، وفيها كثير من العلماء الأجلاء الذين يساهمون في دفع عجلة التعليم الديني بوجه خاص.

---

(١) في ٣ سبتمبر ١٩٨٣م.

ومن التقاليد الطيبة في هذا البلد تفسير القرآن الكريم في شهر رمضان من كل عام ، في كل يوم جزء منه ، لينتهي التفسير بانتهاء الشهر ، يحدث هذا في الإذاعة والتليفزيون والمساجد ، والشوارع وبيوت العلماء أحيانا ، ويجلس بجانب الشيخ المفسر أحد القراء الذي يقرأ من المصحف آية آية ، أو جزء آية ، ليفسر الشيخ باللغة المحلية ، وحبذا لو اتبع هذا التقليد في البلدان الإسلامية الأخرى.

٣ـ وجه إسلامي :

تجد في نيجيريا وفي الشمال بوجه خاص العاطفة الإسلامية القوية ، والتي تظهر في معاملة إخوانهم المغتربين ، سواء في البيع أو الشراء ، والتعامل بشكل عام ، فكم يفرح المسلمون النيجيريون حين تلقي عليهم تحية الإسلام ، أو حين يعرفون أنك مسلم.

ولا أنسى أحد الزملاء الذين تنهمر الدموع من أعينهم إذا سمع شيئا من سيرة ديننا الكريم (ﷺ) ، كما لا أنسى أحد الحراس الذي كانت عيناه تدمعان عند وداع أحد الزملاء المسلمين ، ويقول آخر لهذا الزميل : (إذن لن أراك مرة أخرى؟) وكان يقول أيضا : (لقد أوصاني أبي قبل رحيله إلى ربه أن أحترم كل مسلم) وكان الرجل وفيا لوصية أبيه.

أما الالتزام بالعبادات فهو التزام كامل ، فأنت في رمضان لا ترى مجاهرا بالإفطار أو مفطرا على الإطلاق ، وإن حدث فاعلم أنه كافر ، وعند الأذان يهرع الجميع دون استثناء إلى الصلاة ، سواء في المساجد أو في الأسواق أو المصانع الحكومية ، فأنت إن ذهبت إلى السوق وقت الصلاة وجدت البائعين جميعا في مصلى قريبة ، وأحيانا تجد الناس يصلون كلٌ في مكانه خلف إمامهم ، ويشهد المسلم

منظرا بديعا لم يألفه ، حيث السوق كله يصلي جماعة منفضا عن البيع والشراء.

وفي كل مصلحة حكومية لا تجد أحدا في عمله وقت صلاة الظهر إلا أن يكون كافرا ، فالمسلمون جميعا يتركون مكاتبهم وأعمالهم إلى الدور الأرضي حيث يفرش جزء كبير منه ليستخدم كمصلى مؤقتة ، هذا مع وجود المساجد الضخمة وانتشارها ، وازدحامها بالمصلين ، وبخاصة في صلاتي العيد والجمعة فترى عندها مهرجانا كبيرا ، تندفع فيه الجماهير المسلمة إلى المساجد الكبرى لأداء الصلاة وشهود الخير ، مصطحبين معهم أطفالهم وإن كانوا كثيرا ، كما لا يترك المسلمون ختام الصلاة.

والسبب في وضوح الالتزام بالصيام والصلاة وغيرهما من العبادات [١] أن المسلمين في الشمال أغلبية ، وخصوصا الهوسا والفلاني ، إذا يندر أن تجد كافرا فلانيا أو من الهوسا إلا من تنصر بفعل مؤامرات الاستعمار في القرن العشرين.

وقد يتساءل مسلم عل يلتزم الناس بأداء الصلاة لوقتها وفي جماعة أيضا ، وكذلك عدم المجاهرة بالإفطار ، هل يمكن أن يحدث هذا كله دون محتسب أو قانون ؟ نعم تجد هذا كله بدافع ذاتي من المسلم دون أن يجبره أو يضطره إلى هذا الشيء على الإطلاق، ولكننا نعذر المتسائل ، فهو يجد في كثير من بلاد المسلمين - ومنها بلاد العرب - المساجد خاوية وبيوت الفسق عامرة ، ولقد حكى لي أحد القادمين من الجزيرة العربية أنه عاش في إحدى المدن أربع سنوات لم يحس في أية لحظة أنه في بلد عربي أو مسلم ، فلا أذان يسمع ، ولا يرى شيء من شعائر الإسلام ، بل المدينة كلها خواجات في خواجات ، نصارى ويهود ، وصهاينة أحيانا كثيرة.

(١) يصل عدد الحجاج النيجيريين إلى ثمانين ألفا ، ولا يفوقهم في العدد غير المصريين والإيرانيين.

ولنعد إلى التساؤل السابق لنقول : إن هذا الالتزام مرجعه شيئان :

١ـ دولة الخلافة التي استخدمت التعليم والوعظ إلى جانب الردع العسكري ، مما جعل الشمال ـ عرين الخلافة ـ ذا وجه إسلامي واضح ، على عكس الجنوب.

٢ـ جو الحرية التي يعطر جو البلاد ، فلا رقابة على المساجد [1] أو على الملتزمين بشعائر إسلامهم ، ولا ملاحقة للمصلين من الشباب بخاصة ، كما يدركه ويحفظه أبناء العرب والمسلمين.

وقد يقول قارئ : لقد أسرفنا في ذكر المحاسن والمزايا فأين العيوب والمثالب ؟ وأرى أن ذكر المزايا أكثر فائدة ، لأننا نريد من المسلمين أن يتأسوا بما ذكرنا ، ومع هذا فلا يمنع أن أهمس في أذن إخواننا أهل نيجيريا بعيب خطير وداء مزمن ، وهو الرشوة.

وبقي أن نذكر عن نيجيريا ثلاثة أشياء :

١ـ إنني أشعر أن هذه البلاد امتداد للمغرب العربي ، ولذا نجد في نيجيريا الخط المغربي ـ تكتب به العربية واللغات المحلية مثل الهوسا واليوريا ـ وقراءة نافع التي نقلها إلى مصر تلميذه المصري ورش (ت١٩٧هـ) ثم نقلها إلى المغرب يونس بن عبد الأعلى (ت٢٦٤هـ) ومن هناك امتدت إلى الأندلس وغرب إفريقية ، بما فيها نيجيريا.

ونعتقد أن رواية ورش عن نافع وكذلك مذهب مالك قد جيء بهما على عهد

---

(١) ولتعجب عزيزي ما شاء الله لك من العجب حين تقرأ في إحدى جرائد المعارضة المصرية أن أئمة المساجد وعمالها كانوا يستدعون إلى الشرطة لمعرفة المواظبين على الصلاة في المسجد ، وبخاصة الشباب.

المرابطين الذين وحدوا بين إفريقية ـ شمالها وغربها ـ وبين الأندلس.

٢ـ تنتشر في نيجيريا [1] ـ وفي الشمال بوجه خاص ـ الطريقتان التيجانية والقادرية ، وهاك كلمة قصيرة عن كل منهما :

(أ) الطريقة التيجانية : نشأت في الجزائر على يد الشيخ أحمد التيجاني (١٧٣٧ ـ ١٨١٥م) وأشهر من نشرها في السودان الغربي هو الحاج عمر الفوتي ـ الذي سبق الحديث عنه ـ وقد أخذ الطريقة من الشيخ علي حرازم صاحب جواهر المعاني ، والتلميذ الأكبر للشيخ أحمد التيجاني ، وقد زار نيجيريا عام ١٩٤٨م الحفيد الرابع للشيخ أحمد التيجاني فاستقبل بحفاوة بالغة لدى المسلمين عموما والتيجانيين خصوصا.

ولهم في مدينة كنو مسجد ضخم فخم به مقرأة يومية ، من المغرب إلى العشاء ، وقد بني هذا المسجد إسحق الرابع أشهر أغنياء نيجيريا.

(ب) الطريقة القادرية : نشأت على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٧٠ ـ ٥٦١هـ) في بغداد ، ولكنها انتشرت إلى مختلف أنحاء العالم.

وأول من نشرها في المغرب العربي هو انشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي الذي اجتمع بالشيخ عبد القادر ـ في موسم الحج ـ على جبل عرفة ، فخلع عليه الخلعة الصوفية ، ولما رجع الشيخ شعيب إلى المغرب تولى نشر الطريقة إلى أن توفي عام ٥٩٤هـ.

(١) وربما غيرها من بلاد إفريقية.

وأول من نشرها في السودان الغربي الشيخ المغيلي التلمساني ، ثم الشيخ أحمد البكاء الكنتي في القرن الخامس عشر الميلادي، ثم الشيخ محمد فاضل بن مامين ، وابنه ماء العين ، ثم انتشرت على يد الشيخ عبد القادر الكنتي (١٧٨٠ - ١٧٩٩م) ثم الشيخ عثمان بن فودي الفلاني ، وله في الطريقةِ أشعار ومؤلفات ، منها : السلاسل الذهبية ، والسلاسل القادرية وتبشير الأمة الأحمدية بفضائل الطريقة القادرية ، ولابنه السلطان محمد بللو كتاب مفتاح السداد.

وكان جميع مشايخ ابن فودي وإخوانه وتلاميذه من أتباع القادرية ، وشاع أن السلطان محمد بللو انتقل من القادرية إلى التيجانية ، على يد الحاج عمر الفوتي ، ولكن أصحابه نفوا ذلك.

وللطريقة القادرية مقرأة شهرية بمدينة كنو في الخميس الأخير من كل شهر عربي ، حيث يجلس القراء من العصر حتى فجر اليوم التالي ، ولا يقومون حتى يختموا القرآن الكريم ، يقرأ كل واحد منهم حزبا ثم الذي يليه ، وهكذا.

وإذا جلست تسمع لقراءاتهم وللمشقة التي يعانونها في محاولة للنطق الصحيح - قدر استطاعتهم - فإنك تعجب وتتساءل : ما الذي يدفع هؤلاء الناس إلى المشقة والسهر ، بل من نقل هذا الكتاب الكريم من فم النبي الأمين (ﷺ) في الحجاز إليهم في هذا المكان الذي يبعد عن أرض النبوة الطاهرة آلاف الكيلومترات ، وخمسة عشر قرنا من عمر الزمان ؟ .. إنها بركات الإسلام العظيم ، الذي يقف الآن شامخا يهز عروش الطواغيت والمستكبرين ، وإنه رب العزة القائل : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

الذِّكْرَ [1] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) لقد هيأ الله الرجال الذين حملوا الكتاب الكريم إلى أرجاء الأرض جميعا ، دون هيئات أو منظمات أو تمويل داخلي أو خارجي.

والحمد لله أولا وأخيرا

المؤلف

(١) ٩ ، الحجر.

الملاحـــق

أولا : المغيلي والسياسة الشرعية

كتب الإمام المغيلي إلى سلطان كنو :

أما بعد ، وفقك الله للتقوى ، وعصمك من نزغات الهوى ، فإن الإمـارة خلافـة من الله ، ونيابة عن رسول الله ، فما أعظم فضلها ، وما أثقل حملها إن عدل الأمير ذبحته التقوى بقطع أوداج الهوى ، وإن جار ذبحه الهوى بقطع أوداج التقوى فعليك بتقوى الله : (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَـةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ [1]).

الباب الأول : يجب على الأمير حسن النيـة في الإمـارة ، يجب علـى كـل ذي عقـل وديانـة أن يبتعد عنهـا إلا إذا لـم يكـن لـه بـد منهـا ، فيتوكـل علـى الله فيهـا ، ويستعين بها في كل أمره ، وينوي أن ينال بها رضي الله فـي إصلاح أمـور عبـاد الله الدينية والدنيوية ، ويعلم أن الله ما ولاه عليهم ليكون سيدهم ، بل ليصلح لـهم دينـهم ودنياهم ، ورأس كل بلية حجابه عن الرعية.

الباب الثـاني : فيما يجب على الأمير من تحسين الـهيئـة فـي مجلسـه بإظـهـار حب الخير وأهله ، وبغض الشر وأهلـه ، وفـي لباسـه أن يلبس المبـاح للرجـال غير متشبه بالنساء ، ولا مفسد لبيت المال ، ولا يتزين بذهب ولا فضة ولا حرير.

---

(١) ١٨٥ ، آل عمران.

الباب الثالث : فيما يجب عليه من ترتيب مملكته على ما يتمكن من صلاحها ، لأنه راع على جميعهم ، وهو المسئول عنهم ، ولا يتمكن على ذلك من نفسه ، بل بالنواب فمنهم وزراء ، أي الأعوان في سياسة جميع الرعية ، لا يخشون إلا الله.

- وأئمة : يوالون على البلاد البعيدة عنه ، يجمعون له الناس حين يحتاج إليهم.
- وقضاة : أي الذين هم ثقاة يفصلون في الخصومات.
- ومحتسبون : أي أهل الحسبة ، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، ويكشفون أمور القرية وغيرها من المجامع ، ويصلحون ما فسد.
- وشُرَط [1] : أي أعوانه في تنفيذ الأحكام.
- وخدام حضرة : يتصرفون في حوائجه لئلا يحتاج إلى غيرهم.
- وعقلاء : يشيرون له في الأمور قبل عامة الناس.
- وأمناء : يقبضون الأموال ، ويصرفونها إلى الرعية في مصارفها.
- وكتاب : حساب يحفظون جميع الأشياء.
- ورسل : يبعثون إلى بلاد الأعداء.
- وجساس : يكونون عيونا في بلاد الأعداء.
- وحفظة : يحفظون الأمير في بلده نهارا.
- وعساس : يحفظونه ليلا.
- وعلماء : ثقاة في العلم والتقوى ، يرشدونه في جميع أموره.
- وشفعاء : يشفعون فيما اقتضى الحال بشفاعته من ذوي المروءات إذا عثروا في التعزيرات ، إلا في الحدود والحقوق.
- ومنظمون : أي الصلحاء لوجه الله تعالى.

(١) مفردها شرطي.

- وعمال : يحفظون حق الله كالزكاة وحقوق بيت المال.
- وحصن : حرز حصين مكفي بالخزائن من طعامه وشرابه وسوقه.
- وخيل : أفراس جيدة تعد من بيت المال في كل قرية ، يحبسها للجهاد.
- وظهور : زاد يعدّ من بيت المال لحمل الفقراء إلى الجهاد ونحوه.
- ورجال : شجعان حاضرة في كل أوان عند الأمير لأمور تعرض.
- وعدد : من آلات الحرب ونحوها ، متينة وقوية.
- وأطباء : أمناء يطببون الناس لئلا يحتاجون إلى الخروج إلى غير بلاده.
- وأمراء الجيوش : الذين ينوبون عنه في سد الثغور ، وترتيب الجيوش ، وحفظ بيضة الإسلام ، واستعداد البلغاء الذين ينشطون القلوب ويقبحون الهروب.
- وعرفاء الحروب : الذين برأيهم تنكشف الكروب ، فإن الحروب خدعة ، ليس بكثرة ولا بسرعة ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الرابع : في التزام الحذر في الحضر والسفر ، بإظهار القوة والجلد عند تغير الأحوال بالخوف ، وإظهار الزهد في الصاحبة والولد ، لئلا يمنعه ذلك عن العدل ، قال تعالى : (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [1]) وإظهار الرغبة في الأبطال والعدد ، وحب الخروج إلى الجهاد ، وبغض المقام في الديار بلا نهوض إلى الأعداء ، ومقام السلطان في داره بعيدا عن رعيته هو رأس كل فتنة وضرر ، فالملك بالسيف لا بالتسويف ، أي لا يحصل بقولة : سوف نخرج إليهم ، سوف أفعل ، وهل يدفع الخوف إلا بالتخويف ؟ إن كل من خوفك لا تسلم منه إلا بتخويفك إياه ، لا بالهروب منه وطلب الصلح معه : (فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ [2]

(١) ١٤ ، التغابن.
(٢) ٣٥ ، محمد.

مَعَكُمْ) ويجب عليه الحذر في طعامه وشرابه وفراشه ، أن لا يولينها إلا أقرب أحبائه إليه ، وفي مجلسه ألا يفارق السلاح ، وأهل الأمانة والصلاح ، من الشجعان الرماة الفرسان ، وليس وقت الخوف كوقت الأمان ، وفي سره أن يكتم حتى يتمكن ، وفي النمامين بعدم قبول قولهم ، ولو كانوا أكثر من سبعين ، وفي المتهمين ألا يغتر بظواهر أقوالهم ، ومن رسل الهداية آمنهم عيونا ، وأصدقهم كيسا : (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ [1] الْمُرْسَلُونَ).

وفي الحصون القريبة من الأعداء أن يزيل كل حصن لم يتمكن من أن يسكن أمناء فيه ، لئلا يستفد أعداؤه إليه ، ليخف من الحبل لئلا تلسعه الحية ، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الخامس : فيما يجب كشفه من الأمور التي يجهل في رعيته بالعدول وللأمناء ، كأمور المحبوسين والأوصياء على الأيتام ، وحجر المهمل من يتيم وسفيه يأمر برفع أمره إليه ، وكأمور الغياب وإرث الأموات ، وأمور بيت المال وأرزاق العمال ، على الاستبصار والورع ، لا على الإضرار والطمع ، وكأعمال العمال ، وما يزيد لهم فيها من الأموال ، فمن ظهر منه تقصير زجره ، أو ظلم عزله ، أو شكوى منه بدله ، وإلا انتقد من الأمناء ، ومن زاد له مال على ما يعطى أخذه وجعله في مصالح المسلمين ، وإن شك فيه قاسمه ، وليكن عليهم كراع الماشية بين الأسود الضارية ، فمن عمال السوء جميع الفساد.

إذا كنت في أمر فكن ناصحا	وإن تستنب فاختر خيارا لأهله
ومن يأت بالكلب العقور ببابه	فعقر جميع الناس من سوء فعله

(1) ٣٥ ، النمل.

عمـل عاملـك عملـك ، إن أحـسن بـالثواب لكمـا ، وإن أسـاء فـالعقـاب عليكمـا ، وكأمور المتهمين بالفساد ، فإنـه قريب التهمـة بوجـود علاقتهـا ، فلابـد مـن كـشفه ، فإن ثبت عليه ، وإلا توعده وزجره بحسب قربه وبعده.

وكأمور الأعداء فلابد من كشفها بالجساس الأمناء فإن الجهل عمـي ، وبـصير واحـد يغلب ألـف أعمـى ، وأعظـم البليـة الغفلـة عن الرعيـة ، وكـذب الـذامين بمـدح المادحين ، فلابد من كشفه من الأمناء.

الباب الـسادس : فيما يجب عليه من العدل والإحسان ، فالعدل أن يـوفي كـل ذي حق حقه بنفسه وغيره ، سواء كان الحق عليه أو علـى غيره مـن رعيتـه ، فمـن لا يأخذ للرعية حقوقهم من بعض ليس بعدل.

وأما الإحسان فهو أن يتفضل من نفسه ، أي يزيد لكل من أراد أن يحـسن عليـه ، زيادة على حقه مما كان من نصيبه ، لا ما كـان مـن نـصيب غيـره ، فمـن كـان يحـسن إلى الناس بإعطائهم أكثر مما يستحقون ممـا لجميـع النـاس شركة فيـه بغيـر إذنهـم ، فليس بمحسن ، بل ظالم ، لأن مـا يحـسن بـه لـيس مـا اختص بـه شرعا ، فـافهم هـذا الأمر ولا تـهمله.

ومـن العـدل أن يـسوي بـين الخـصمين فـي جميـع أمورهمـا ، وألا يقبـل مـن الشهود إلا من كان عدلا رضيا فيمـا لا تهمـة لـه فيـه ، فإن تعذرت العدالـة فعليـه أن يراعـي أمـثلهم فـي الـصدق ، مـع كـشف واسـتكثار ، لا يكتفـي بـاثنين مـع الـسياسة والاستبصار ، ثم لابد أن يطلع المطلوب على أسباب الطالب ، ويعذر إليـه إذا أراد أن يحكم على المطلوب فلابد أن يطلعه على الأسباب التـي سببت الحكـم عليـه ، ثـم يعذر

إليه بقوله أبقيْت لك حجة ؟ فإن قال نعم تَلَوَّم [1] له ، وإن قال لا حكم عليه ، ثم بعد مشاورة العلماء ، ولا يجوز له الحكم في شيء إلا بمشهور مذهب إمامه ، فإن الحكم بغير المعتمد جور وضلال ، يجب نقضه على كل حال.

وتختص دعاوى الجنايات بأنواع السياسات ، فالجنايات كالسرقة وقتل النفس ، فمن ادعى عليه بالسرقة من غير بينة فلا يخلو من ثلاثة ، قسم بعيد عما نسب إليه ، فلا يلتفت إلى دعوى المدعي ، بل يؤدب لأجل المدعى عليه ، إن كان من أهل الصلاح ، وقسم قريب من الدعوى ، فلابد من حبسه وتهديده وجلده ، بحسب الجريمة ، وبعده من التقوى ، وربما يغرم بمجرد الدعوى واليمين ، حيث علم بمثل الدعوى ، واشتهر وتكرر منه الإذابة واشتهر حتى تظهر توبته أو يقبر ، وقسم مجهول الحال فلابد من اعتقاله ، أي حبسه ، وكشف الحاكم على حاله ، ثم يحكم له بحكمه ، وإلا أرسله بعد سياسة وتهديد ، وكشف ووعيد ، بحسب ما يقضيه النظر من التشديد ، كل ذلك بالتقوى ، لا بالهوى ، وليس كل الناس سواء.

ومن ادعى بنفس فلابد فيه أولا من حبس بالحديد وكشف وتهديد ، ثم إن ظهر الأمر عمل عليه ، وألا نظر في قربه وبعده مما بسب إليه ، فإن قرب طوّل في اعتقاله ، وإن بعد عجل بارساله.

ولابد للأمير الأعظم أن يجلس في كل مكان للناس ، بحيث يصل إليه جميع الناس ، ولا يكفيه القضاة والعمال ، لأن شكوى الرعية قد تكون منهم ويجب عليه أن يزجرهم ، وإلا فهو كمسلم الدار لأربابها ، وكماسك قرون البقرة لحلابها ، وقد

---

(١) انتظر وتَمكّث.

عزل الخلفاء العمال والصالحين بسبب الشكوى ، وهو أقرب إلى التقوى ، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب السابع : فيما يجب عليه من جبي الأموال من وجوه الحلال : (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ (١) نَفْسَهُ) وملاك السلطنة هو الكف عن أموال الناس ، بأن لا يطلب منهم شيئا لم يكلفهم الله به ، والطمع في أموالهم خراب المملكة ، فمن الأموال التي حلل الله للأمراء قبضها وصرفها :

زكاة العين والحرث والماشية والفطر والمعدن وخمس الغنيمة والركاز ، وأموال الجزية والصلح ، وما يؤخذ من تجار أهلها ، وتركة لا وراث لها ، وما أفاء الله من أموال أهل الحرب بلا حرب ، فإذا كان الأمير عادلا في صرف مال الله وجب على من بيده شيء من زكاة وغيرها أن يدفعه له ليصرفه ، وإن لم يكن عادلا فلا يعطيه ، فتأمله.

ومن الأموال التي حرم الله على الأمراء وغيرهم كل ظلم ومن الظلم ما يأخذه الأمير عند تولية القضاء أو غيره ، فهو حرام بإجماع المسلمين ، وذريعة لإفساد الدين ، وفتح أبواب الرشى وقهر المساكين ، لأن الولاة يرون حين أخذ منهم المال على الولاية أن يأخذوا المال من الرعية فيقهرون ، عصمك الله من ذلك.

ومن الظلم الرشى لسلطان وقاض وعامل ، وهو أن يأخذ من أحد الخصمين ، أو من كليهما شيئا قبل الحكم أو بعده ، وكذلك قبول الهدية من الرعية ، فإنه باب كل بلية ، وإذا دخلت الهدية على ذي سلطان خرج عنه العمل والأمان ، وصار بصاحبه

(١) ١ ، الطلاق.

إلى الخيانة ومن الظلم العقوبة بالمال ، كأخذ مال السارق والزاني ، وهي حرام على كل حال ، إلا إذا كانت جناية الجاني متعلقة بذلك ، وكلبن خلط بماء ، فالصدقة به حلال ، ومن الظلم المكس [1] ، وهو حرام إجماعا ، ومن الظلم أخذ العشر أو غيره ، كالنصف والثلث من أرباب الحقوق والتركات ، وهو حرام بإجماع المسلمين ونصوص الآيات.

الباب الثامن : في مصارف أموال الله (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [2] ـ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ [3]) فيجب على الأمير صرف أموال الله في مصارفها بالكرم ، لا بالبخل أو التبذير ، فالكرم هو بذل ما يحتاج له عند الحاجة المستحقة بقدر الطاقة ، فمن خرج عن هذا الحد فقد تعدى وظلم ، ولا حظ له من الكرم ، وهو إما بخيل أو مبذر في أرزاق بيت المال ، وفي كل منهما خراب المملكة على كل حال ، فيجب على من كانا جبلته أن يستنيب من عطايا مملكته ثقاة ، خاصة أهله.

فمال الله قسمان :

<u>القسم الأول</u> : زكاة مصادرها الأصناف الثمانية التي في القرآن ، ويجب صرفها في محل الوجوب ناجزا ، إن وجد به مستحقا ، وإلا نقلت لأقرب مكان ، وإن كان في محل وجوبا بعضها ، ونقل للأحوج بعضها بحسب الاجتهاد ، وأجرة نقلها من الفيء ، لا منها ، ولا يجب تعميم الأصناف كلها ، بل إن أخرجت لبعضهما أجزأت ، إلا أن تعطيَ للعامل فقط فلا تجزيء ، ويقدم الأهم فالأهم ، والأحوج فالأحوج ، ويفضل

(١) المكس : مال يؤخذ من البائع في الأسواق ظلما.
(٢) ٤٥ ، المائدة.
(٣) ٢٢٧ ، الشعراء.

بعضهم علـى بعض بقدر الحاجـة ، ومصرف زكـاة الفطر صنفان ، الأولان فقط ، أي الفقراء والمساكين ، ولا يعطي حارسها منها.

<u>القسم الثاني</u> : الفيء كخمس الركاز والمعادن والغنيمة ، وما يؤخذ من أهل الذمة وأهل الصلح ، وما يؤخذ من تجارتها وخراج الأرضين ، وتركة لا وراث لها، وما أفاء الله من أموال الحرب بلا حرب ، فصرف ذلك كله حكمه إلى الإمام ، يصرفه في المصالح بالتقوى لا بالهوى ، وأحق الناس بالتوسعة عليه من مال الفيء حماة الدين ، من قضاة المسلمين والعلماء الأتقياء المرشدين.

وأهل كل بلد أحق بفيئهم من غيرهم ، إلا أن تنزل بغيرهم حاجة ، فينقل إليهم شيء منه ، بعد إعطاء أهلها ما يعينهم ، على أرجح النظر ، فإن كان غير أهل بلد المال أحوج من أهل بلده نقل لهم الأكثر ، بحسب النظر ، وسيرة أئمة العدل في قسم الفيء أن يبدأ الإمام بسد ما لا غنى من سده من حصن وسلاح وغيره ، ثم بأرزاق العلماء والمقاتلين ، ثم بالفقراء الأحوج فالأحوج ، حتى يعمهم بأجمعهم من ذكر أو أنثى ، وصغير وكبير ، فإن اتسع المال أبقى منه في بيت المال شيء لما يحدث من النوائب ، وبناء المساجد وفك الأسارى وقضاء الديون ، ومؤنة وتزويج العزاب ، وإعانة الحجاج وغير ذلك من وجوه الاحتياج ، فهذه سنة صرف أموال الله للمسلمين.

ولكن الظالمين اليوم في ضلال مبين ، قطعوا العدل والإحسان ، ووصلوا الظلم والبهتان ، فقلت أرزاقهم ، وساءت أخلاقهم ، وجاءهم الموج من كل مكان.

وللمغيلي وصية أخرى هي :

من عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني إلى عبد الله محمد بن

يعقـوب ، سـلطان كنـو ، وفقـه الله لمـا يـراه ، وأعانــه علـى مـا أولاه مـن أمـور دينـه ودنياه ، بجاه سيدنا محمد ، وصلوات الله عليه وسلامه.

سلام عليكم ورحمـة الله وبركاتـه ، أمـا بعد ، فإنـك سـألتني أن أكتب لـك جملـة مختصرة فيمـا يجـوز للحكـام فـي ردع النـاس عن الحـرام ، فـاعلم ـ أعاننـا الله وإيـاك على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ـ أنه لابد من ردع المفاسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية ، على حسب الطاقة البشرية ، ولا يجوز أن يترك مفسد على فساده ، مع إمكان ردعه عنـه ، أو لعنه أو حبسه أو ضربه أو صلبه أو قتلـه أو نفيه أو نهب ماله أو حرق بيته ، أو غير ذلك من العقوبات الشرعية.

لكل داء دواء ، ولكل مقام مقال وفعال ، بحسب ما يظهر من الأحوال ، فصن مقامات الخلافة النبوية عن الإهانـة ، بردع العامة عن سوء الأدب بـالأقوال والأفعال وسائر الأحوال.

ولا تـصبر لمـن تعمـد ذلـك ولـم ينتـه ، لأن ردع ذلـك ومثلــه حـق الله تعـالى ورسوله ، وامنع جميع أهل بـلادك عن جميـع أنـواع الشرك وكشف العورة وشرب الخمـر وأكل الميتـة والـدم ، وغيـر ذلـك مـن المحرمـات ، وامنـع كفـار بـلادك مـن أن يظهـروا ذلـك بـين المـسلمين فـي الأسـواق والمنـازل وغيرهـا مـن المحـلات ، فلـو لـم يتركوا إظهار الشرك أو شرب خمر أو فطر فـي شـهر رمـضان أو زنـا ، أو غيـر ذلـك من المنكرات وأنواع ضلالهم لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفة العقـول مـن العامة والنـسوان والـصبيان ، لا سيما والغالـب علـى أهل تلك الـبلاد الجهـل والـهوى وأصلهم كان كذلك ، وقد قال العلماء الرجوع إلى الأصل يكون بأدنى سبب.

فانههم عن ذلك ، وأشهر إنكاره ، وتوعد بالعقوبة لمن يفعله ، ثم بعد ذلك عاقبة بأقرب شيء يردعه ويردع مثله ، وإن لم يكن ردعه ومنعه من ذلك إلا بقطع يده أو رجله أو صلبه أو قتله ، أو غير ذلك من الروادع الشرعية ، فافعله ، لأنه ظالم والظالم أحق بأن يحمل عليه.

ولكن لا تفعل بالمفسد ما هو أشد من ردعه ، إلا إذا رأيت أنه لا يرجع بغيره ، مثال ذلك من لم ينته من الناس من عمل الخمر إلا بنهب أموالهم أو حرق بيوتهم أو إجلائهم أو بيع الكفار منهم أو غيره فافعله ولا تبال ، ومن لم يستر أمته أو عبده ، ولم ينته إلا ببيعه عليه ، أو بأخذه منه فافعل ولا تبال ، وكذلك من يغشى بمسحات - مكاييل - ناقصات وأبى أن ينتهي عن المعاملة بها فخذها منه ، واجعلها في مصالح المسلمين ، وأما ما لم يغش بها ، ولا أبى أن ينتهي فمره بإصلاحها إن أراد المعاملة.

وكذلك من يتلقى ما يأتي للسوق من طعام وغيره فيشتريه قبل وصوله للسوق أو بعد وصوله ، ويبيعه على يده ، إن لم ينتهوا إلا بنفيهم أو نهب ذك منهم ، فافعل ، لأن مقصد الشارع في الروادع درء الفاسد وجلب المصالح ، بحسب الإمكان في كل زمان ومكان ، وليس الخبر كالعيان ، ولذا قال الإمام العادل عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور).

فلابد من إزالة الفساد على كل حال ، وإن تعارضت مفسدتان أحدهما أكبر من الأخرى فدرء المفسدة الكبرى أولى ، وهذا الذي بينا لك يكفيك - إن شاء الله تعالى - في تلك المناكر وغيرها.

وإن الناس في حكم الله ورسوله سواء ، فلا تخرج من ذلك عالما ولا عابدا

ولا شريفا ولا أميرا ، وأقم حق الله على جميع عباد الله بالتقوى ، لا بالهوى ، ومن عارضك في ذلك فعاقبه بما فيه ردع له ولمثله ، وإن لم يكن إلا بقطع يده أو رجله أو نفْيِهِ أو صلبه فافعله ، ولا تبال ، ولكن بعد ثبوت وتثبيت من ذلك كله ، ومقابلة كل واحد بما يليق له ، وبحسب حاله من الخير والشر والتواضع والطغيان ، وليس الخبر كالعيان ، فتصرف في ذلك بالزيادة والنقصان حتى يعتدل الميزان ، وليس الخبر كالعيان ، والله المستعان وعليه التكلان ، وفي هذا القدر كفاية لمن سبقت له العناية.

وكل ما نوصيك من أمر دينك ودنياك تعرف ذلك ، وإذا نسيت شيئا منه فلا تنس أن من غير حكم الله فقد كفر ، ومن تَغَيّرُ حكم الله ودينه أن يكون الظالم قاضيا ، لأنه يحكم بالظلم ، وهو يقول : (هذا هو الشرع) ومن فعل ذلك فهو كافر ، لأنه صيَّر الباطل حقا والحق باطلا ، فإن كان لابد أن تجعل بعض الظالمين حاكما فلا تجعله باسم القاضي ، فإن القضاء من صفات رسول الله (ﷺ) لا يوصف به إلا عالم تقي ، لا يأخذ الرشى ، ولا يحكم بالهوى.

اللهَ اللهَ اللهَ ، وهذه الوصية هي أوكد جميع الوصايا ، أما يكفيك أن تظلموا باسم السلطنة ، فتكونوا [1] مذبذبين ، ترجون رحمة الله ، ثم تظلمون باسم الشرع فتكونوا كفارا ، والكافر لا نصيب له من رحمة الله ، فطهّر مقام الشريعة من خبث ، لأنه مقام رسول الله (ﷺ) لعل الله أن يغفر لك ذنوبك جميعا ، والسلام على من اتبع الهدى.

---

(١) يشير المغيلي إلى قوله تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء ...) ١٤٢ ، ١٤٣ / النساء.

ثانيا : الكانمي والخلافة :

نذكر هنا المراسلات التي كانت بين هذا العالم وبين رجال الخلافة ، آملين أن يكون فيها للمسلمين نفعا ، إن شاء الله.

الحمد لله ، فاتح أبواب الهداية ، ومانح أسباب السعادة ، والصلاة والسلام على من بعث بالحنفية السمحة ، وعلى آله وأصحابه ، الذين هدوا وأوضحوا شرعه.

من المتعفر بتراب الذنوب ، والمتدثر بجلباب العيوب ، والعبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم :

السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فالباعث لرسم هذا المزبور أنه لما ساقتني المقادير لهذا الإقليم وجدت نار الفتن وبينكم بين أهل الوطن موقودة ، فسألت عن السبب فقيل بغى ، وقيل سنة ، وتحيرنا في الأمر ، فكتبت لإخوانكم المجاورين لنا وثيقة ، طلبت منهم بيان السبب والدليل على الجواز ، فأجابوني بجواب ركيك ، لا يصدر من عاقل ، فضلا عن عالم ، فضلا عن مجدد ، وعدوا فيه أسماء كتب لنا اطلاع على بعضها ، ولكن لم نفهم منها ما فهموه ، وبينما نحن في حيرة التردد هجم على دار الإمارة ، ونزل المهاجرون لنا قريبا منا ، فكاتبناهم ثانيا ، وناشدناهم الله والإسلام أن يكفوا عنا شرهم فامتنعوا.

ثم صالوا علينا فقمنا مدافعين عن أنفسنا ، متبرئين إلى الله من سوء صنيعهم حين ضاقت علينا الأرض ولن نجد مقاما ولا مجالا ، ووقع منا ما وقع ، وحين وجدنا راحة ، وفشا هذا ـ والله أعلم بالمستقبل ـ رأينا المكاتبة ، وإن لم تنجح فهي أحسن من السكوت.

فاعلموا أن العاقل يتلقى الكلام بقبول ليفهمه فيجيب جوابا مستقيما ، إن قلتم فعلنا ذلك بكم لكفركم فإنا براء من الكفر ، بعيدون عن ساحته ، فإذا كانت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومعرفة الله وصوم رمضان وعمارة المساجد كفرا ، فما الإسلام ؟ فهذه الأبنية التي أقمتم بها الجمعة كنائس أم بيع أم بيوت نيران ؟ وإن كانت من غير شعائر الإسلام فلم صليتم بها حين ملكتم ؟ هل ذلك إلا كلام متناقض ؟

ومن أعظم حججكم على تكفير عامة المؤمنين ركوب الأمراء لبعض المواطن ، قصدا للصدقة بها ، وكشف رأس الحرائر ، وأخذ الرشوة ، وأكل مال اليتيم ، والجور في الحكم ، وهذه الخمسة لا تبيح لكم هذا الفعل.

أما ركوب الأمراء فبدعة شنيعة مذمومة وجب النهي عنها ، والإنكار على فاعلها ، لكن لا يكفر فاعلها ، إذ ليس أحد منهم يدعى أن لها تأثيرا ، أو يقصد بذلك إشراكا ، بل قصارى دعواهم ـ لجهلهم ـ أن الصدقة في هذه المواضع أحسن من غيرها ، ومن مارس كتب الفقه ، ووقف على كل الأئمة في باب الحج ، حين تكلم على النهي عن الهدى للقبور والذبح عندها علم مصداق ما قلناه ، وهذه دمياط مدينة عظيمة من مدائن الإسلام ، وهي بين مصر والشام ، فذلك موضع العلم والإسلام ، وبأرضها شجرة [1] تفعل العامة عندها مثل فعل الأعاجم ، ولم يقم أحد من العلماء لقتالهم ، ولا قال أحد بكفرهم.

وأما كشف الرأس فحرام أيضا ، ورد القرآن بالنهي عنه ، ولكن لا تكفر فاعلته ، لأن التكذيب يؤدي إلى الكفر ، وأما عدم الفعل مع التصديق فمعصية ، تجب التوبة

---

(١) سألت بعض المعمّرين من القرن الماضي عن هذه الشجرة فأفادوا بأنهم رأوها ، وكانت العامة تتبرك بها ، وترى أنها وسيلة لقضاء حوائجهم ، كما ذكروا أنها كانت تقع في منطقة مسجد سيدي المظلوم القريب من إستاد دمياط.

على الفور منها ، ألا ترى أن الحرة إذا صلت مكشوفة الرأس وخرج الوقت لا إعادة عليها عند القائل به ، كما هو معلوم في كتب الفقه ، وكيف تصح الصلاة من كافرة ؟

وكذا أخذ الرشوة وأخذ مال اليتيم والجور في الحكم ، وكل ذلك من الكبائر التي نهى الله عنها ، ولكن لا يكفر أحد بعد استقرار إيمانه بذنب ، فلو أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر واعتزلتم الناس حين لم ينتهوا لكان أحسن من هذا القتل ، إذ الأمر والنهي يتوقف على شروط ، منها ألا يؤدي إلى ما هو أعظم منه ، وهذا نهيكم قد ورطكم ، وأدخل عليكم وعلى المسلمين ضررا دنيويا وأخرويا ، أليس الخروج على الملك بعد انعقاد البيعة حراما عند جميع أهل السنة ، وإن طرأ منه فسق ؟ وتلك المسألة أوضح من شمس الظهيرة ، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سلمنا تسليما جدليا أن تلك الأفعال مكفرة صاحبها ، فكيف يسري لغيره !! وقد قال تعالى : (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [1]) وقال : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا [2]) إلى غير ذلك من الآيات.

سلما تسليما جدليا أن الكفر يسري إلى الغير ، لكن لا يلزم من ذلك إبطال الشريعة ، وكفر جميع الأمة والعياذ بالله تعالى ، إذ ما من زمن إلا وفيه في جميع البلدان من الفسق والمعاصي ما لا ينحصر كثرة ، فهذه مصر مثل برنو وأعظم منها ، وكذلك الشام ، وجميع مدن الإسلام ، فيها الرشوة والجور وأكل مال اليتيم والظلم والبدع ، من زمن بني أمية إلى يومنا هذا ، ولا يخلو بلد ولا زمن من نصيب من البدع

---

(١) ١٦٤ / الأنعام.
(٢) ٤٦ / فصلت.

والمعاصي ، فلو كفر الجميع بطل تواليفهم ، فكيف تستدلون بأقوالهم وهم كفرة ، على ما يقتضيه قولكم !! والعياذ بالله من الخبط في الدين ، ومن إتباع النظر الفاسد.

نعم رأينا منكم ما ينكره كل موفق ، وذلك إهانتكم للكتب ، برميها في الطرق ، وفي المواضع المستقذرة ـ وفيها اسم الله تعالى ـ وتعلمون أن من ألقى آية من القرآن في موضع مستقذر كفر ـ والعياذ بالله ـ وكذلك رأينا من بعضكم من يعاهدون ويؤكدون الإيمان ، ثم ينقضونها بعد توكيدها ، بقتل الرجال واسترقاق النساء والأبناء ، فيا عجبا منكم !! بعد أن كانت لكم التقدمة في العلم والدين ، أحببتم الملك ، ورغبتم فيه ، وسولت لكم نفوسكم وتخيلتم ما تخيلتم ، واستدللتم بظواهر لا تنهض لكم دليلا ، لا سيما وقد سمعنا من سير الشيخ عثمان بن فودي ، ورأينا في تأليفه ما يخالف فعلكم.

فإن كان هذا الأمر صدر من فعله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لقد كان ظننا به جميلا ، والآن ـ كما قال القائل ـ إنا نحب الشيخ والحق ما اتفقا ، فإذا ما اختلفا كان الحق أولى ، أعاذنا الله من أن نكون ممن قال تعالى فيهم : (هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ [(١)] أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) وأن نكون ممن قال الله تعالى فيهم : (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [(٢)]).

وقد أجاب محمد بللو بما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ذي الحجة البالغة والكلم النافذة ،

---

(١) ١٠٣ ، ١٠٤ / الكهف.
(٢) ٥٢ / المؤمنون.

الصادعة بالحق الماحقة للباطل الدافعة ، وأشهد أنه لا إله إلا الله ، وحده لا شريك لـه ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر والبغي ، شهادة قاطعة ، شموسها بازغة ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وينصره على ذوي الأهواء الزائفة (ﷺ) ، وعلى آله وأصحابه ، ذوي العلوم البارعة النافعة.

من العبد الفقير لرحمة ربه القدير ، محمد بللو نجل أمير المؤمنين ، عثمان ابن فودي ، وفقه الله لرضاه ، وأذاقه حلاوة تقواه.

أما بعد ، فقد وصلت إلينا رسالة شيخ كانمي ـ لسِت خَلونَ من شعبان ـ أنه يسأل عن سبب قتال أهل الجماعة لأهل البلدان ، واسترقاق أحرارهم ، وذكر فيها أنه كاتب في ذلك بعض المجاورين من الفلانيين ، فأجابوا بجواب ركيك ، لا يصدر عن عاقل ، فضلا عن عالم ، فضلا عن مجدد ، وذكروا له في الجواب كتبا سموها ، له اطلاع على بعضها ، لكنه لم يفهم منها ما فهموه ، فبينما هو في حيرة التردد هجم بعض الفلانيين على دار الإمارة ، ونزل المجاهدون لهم قريبا منهم ، فكاتبوهم ثانيا ، وناشدوهم الله والإسلام أن يكفوا عنهم شرهم فامتنعوا ، ثم صالوا عليهم فحينئذ قاموا دافعين عن أنفسهم ، متبرئين إلى الله من سوء صنيع أولئك ، حين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فوقع منهم ما وقع ، ثم ذكر بعد ذلك مناقضاته لهم ، وأقام على ذلك حججه وبراهينه.

وفهمنا من مضمون فحوى خطابه ، بل من صريح كلامه ، أنه استند بما سمع من أولئك في تضليل سائر الجماعة وعلمائهم ، توصل بذلك إلى التشنيع عليهم ، مع أنه لم يدرك حقيقة الأمر ، ولم يقف على كنهه ، وإنما تبلغه أخبار ممن لا يحسن أداءها ، فعلمنا أنه إما جاهل أو معاند ، إذ لو كان من أهل المعرفة ما ساغ له أن

يحمل الكل على الضلال ، لما يسمع من جواب صدر من بعض الأتباع الذين لم يمارسوا العلوم ، بل يجتهد في طلب الحق ، وبكاتب جميع من يظن به العلم والدين منهم ، حتى إذا استقصى ما عندهم من الأجوبة والمقالات ، فحينئذ يضعها على ميزان لسان العلم الذي عنده ، فإن قبله وظهر له أنه حق اتبعه ، وإلا رجع إلى التأويل والتماس المخرج ما أمكن ، ووقف عن العمل به (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ [1] لَكَ بِهِ عِلْمٌ) ثم أنه إذا تعذر التأويل ، فحينئذ يقوم إلى إرشادهم بما يغلب على ظنه أنه يصلحهم بالقول والمناظرة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن تعسر بالقول فشأنه بهم.

وأما قولنا أو معاند ، فهو يعرف الحق وطرقه ، وإن جواب هؤلاء لا يسوغ تضليل الجماعة كلها ، حتى يسري في تعيينه إلى إمامه الذي انتشر في الآفاق محاسن سيره [2] ، وإنما حمله على ذلك التعصب والحمية الجاهلية - عياذا بالله - فنقول وبالله التوفيق ، لولا ما قاله المولى ، جل وعلا : (وَإِذَا حُيِّيْتُم [3] بِتَحِيَّةٍ) وما قاله رسوله المصطفى ، فيما رواه البيهقي وغيره أن رسول الله (ﷺ) قال : (إن للكتاب حق رد الجواب كرد السلام) لما جاوبناه ببنت شفه ، بل نخليه بينه وبين أمثاله يتطاولون ، كما قال القائل :

فذاك كالعير لا تسع تناظرة ... دع الحمير على أمثالها تصل

فاعلم أيها الكانمي :

أولا : إنا ما حاربنا الناس بما أجابوك أصلا ، وإنما حاربناهم دفعا عن أنفسنا

(١) ٣٦ / الإسراء.
(٢) يقصد أمير المؤمنين عثمان بن فودي.
(٣) ٨٦ / النساء.

ودينا وأهلينا ، لما آذونا واستفزونا ، وطلبوا منا أن نعود إلى ما لا يحل لنا ، وقد بين لنا الشيخ الحق ورأيناه واتبعناه ، فأغروا بنا سفاءهم يؤذوننا ، وينهبون أموالنا ، ويقطعون طرقنا ، ونحن نجتهد في إصلاح ديننا ، وننشر ما عندنا من العلم ، وإرشاد من وصل إلينا ، وهذا دأبنا ودأبهم ، فلما رأونا أنا لا ننتهي عما نحن فيه ، ولا نزداد إلا حسنا وابتهاجا ، ولا يزال عوام الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، غاظهم ذلك ، فأجمعوا كيدهم على نصب القتال بيننا وبينهم ، ولا يشكون أن الدولة لهم ، لما يرون من ضعفنا عن المقاتلة ، فلم يرعنا إلا إنذار من أمير غوبر نافاتا بثلاثة أمور :

إنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده ، ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه ، ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما عليه آباؤه وأجداده ، وألا يتعمم أحد بعد اليوم ، ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها ، وهذا إنذاره في الأسواق ، كل ذلك كان سعيا منه في مكيدتنا ، فكفانا الله شره وضره ، فأتاح الله له الموت بعد ذلك عن قريب.

ولما ولي ابنه ينف شمر عن ساق الجد والاجتهاد على ذلك ، حتى غزا قرية عظيمة من قرى الإسلام ، وعلى حين غفلة من أهلها ، فقتلوا ما شاء الله من فقهائها وقرائها ، في نهار رمضان وهم صائمون ، ونهبوا أموالهم ، وأسروا ذراريهم ، وجعلوا يفترشون الكتب والمصاحف ، ويحتطبون الألواح يوقدون بها ، ويستهزئون بأهل الإسلام ، ويقولون لهم : إيتونا بما تعدوننا إن كنتم صادقين ، ثم جعلوا يعرضون لقرية الشيخ ، حتى أرسل إلى الشيخ أن ينحاز بأهله وإخوانه وأبنائه ، فإنه يريد أن يهجم على القرية ، فأبى عليه ، إلا أن يهاجر بجماعته ، فهاجر بها إلى موضع يقال لها (غد) فلما وصلوا بها جعل الناس ممن آثروا الإسلام

يهاجرون إليه إرسالا ، والكفرة تتعرض لهم ، وتقطع عليهم سبيلهم بأمر أميرهم.

ثم جعل بعد ذلك يرسل بالسرايا والغارات ، والشيخ يكاتبهم ، فأبوا عليه ، مع أن الأمير يتأهب إلينا ، فلما وصل إلينا هزمه الله ، وشتت شمله ، فنجا بنفسه ، فلما رجع إلى داره أرسل إلى إخوانه أمير كشنو وأمير كنو وأمير دورا وأمير أهير ، ينذرهم بأنه أهمل نويره شبت في بلده ، حتى انتشرت فوق طاقته ، وغلبته أن يطفئها حتى أغرقته ، فليحذر كل أن يصاب في بلدته بمثل ما أصيب به هو.

فقام كل واحد منهم على كل من ينتسبون إلى الشيخ يقتل ويأسر ، ففروا في البلاد [1] عباديد يأوى بعضهم إلى بعض ، حتى صاروا جماعات ، فجعلوا يدافعون عن أنفسهم حتى صار الأمر إلى ما صار إليه في تلك البلاد ، وهذا ما نعرف عندنا في بلادنا حقيقة.

وأما في بلادكم فليس عندنا علم ما أوقد المحاربة فيها ، إلا أنه قدم علينا في بعض الأعوام رجل يقال به آدم الحاج ، وزعم أنه أرسله إمام برنو أحمد بن علي إلى الشيخ يسأله عن سبب هذا الأمر ، وأن يمنع الفلانيين من الهجرة عليه من بلده ، وأنه أمير المؤمنين ، فأمرني الشيخ بكتب الرسالة ، فكتبنا إليه ما هو السبب ، وبينت أحوال أمراء الهوسا ، وأنهم كفار ، وأن مظاهرتهم من مسلم ارتداد ، وكتبت إلى الفلانيين الذين في بلده ما يقتضي المواصلة بينهم وبين أمير بنو ، ويوجب الموافقة ويمنع المخالفة.

ثم نرجع الآن إلى الإجابة عنا في تشنيعك علينا بجوار أمثالك ، مع ما دسست

---

(١) متفرقين مطاردين.

في ذلك من مغالطتكم ، وقد سبق في قلبك ما سبق ، فأنقضها عروة عروة ، فلله الحمد في الأولى والآخرة ، فأما الإجابة عنا فيما شنعت علينا ، بجواب من قال لك : (إننا نجاهد أهل برنو وغيرهم بالكفر ، واستمسك في تكفيرهم بركوب الأمراء لبعض المواطن قصد للصدقة بها ، وانكشاف الحرائر وأكل مال اليتيم والجور في الحكم) فمعلوم أن المعتمد عدم تكفير فرق النحل ، من قدرية وجبرية وغيرهم ، ما خلا المجسمة ومنكري علم الله بالجزئيات ، وهذا في أهل الإيمان ، فكيف بما تقرر عند [(١)] كلٍ أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب.

يا عجبا منك ، كيف تقر لنا بالتقدمة في العلم والدين ، ثم تشنع علينا بجهل أشباه هذا ؟ فكلامك هذا متناقض ، ويا عجبا !! كيف يقال إننا نقاتل الناس لهذه الخمس ، فهي تعمل عندنا الآن كثيرا ، فلو عليها نقاتل ما منعنا أن نقاتل عامليها عندنا !! ويا عجبا منك لو كنا نكفر عامة المؤمنين لم نتخذ مساجدهم لنا مساجد ، كما زعمت !! فكلامك هذا متناقض.

ثانيا : ويا عجبا منك !! كيف يقال إنا نكفر عامة المؤمنين بهذه الخمس ، ونحن نفك كل من ثبت إسلامه ، ونطلقه ونخلي سبيله ، كما هو معلوم عندنا ؟ فلم يبق إلا أن جميع ما ذكرته فينا مخالطات ومشاغبات ، اتخذتها ذريعة إلى الجرح والقدح على المسلمين ، وسولت لك نفسك وخيلت أن ذلك يستقيم لك حجة في مذهبك الفاسد ، وهيهات ذلك ، إنما سبق في قلبك ما سبق ، وكاتبت أمثالك ، فسمعت منهم مقالات غير لائقة ، وإما لقصور بيانهم عن الحقيقة أو لسوء فهمك ، والله تعالى أعلم ، وإليه ترجع الأمور.

---

(١) كل العلماء.

وأما دعواك أن نـهينا عن المنكر أدي إلى منكر أكبر منـه ، فليس الأمر كذلك فمعلوم بالضرورة عندنا أنا لم نتعرض لنهي الملوك عن عوائدهم المخالفة للشرع ، وإنما نرشد من أتانا يطلب من يدله على الطريق ، والملوك هم الذين بدعونا بالنهي عن ديننا والمحاربة ، وضيقوا علينا ، كما ذكرت آنفا.

وأما ادعاؤك أن هذا الأمر والنهي أدانا إلى ما يضر بديننا ، وهو الخروج على الإمام بعد البيعة ، وقد ثبت عند كل حرمته ، وإن طرأ عليه فسق ، فإن كان كلامك هذا يتناول ملوك بلادنا هذه فلا عبرة به ، لما ثبت عندنا من كفرهم ، بجهل الأصول ، والذبح للأحجار والأشجار وإنكار البعث والنشور ، وهذا ما نعرفه في بلادنا هذه.

وأما في بلادكم فليس لنا بأحوال أئمتها وسلاطينها ، إلا أنه إذا كان فيها قيام أميركم على إذاية المجاورين لكم من الفلانيين ، الذين لهم الاقتداء بالشيخ ، حتى ألجأتموهم إلى الهجرة ، تعصبا لملوك الهوسا ، ونصرة لهم ، ومعلوم أن الكافرين بعضهم أولياء بعض كما أن المؤمنين كذلك ، علمنا بالضرورة أنه حينئذ راضٍ بدينهم ، حين قام واليهم دون المؤمنين ، ويظاهرهم عليهم ، ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر ، فعلى الحازم أن يفر منه إذ ذاك بدينه ، ثم لا أعظم منك جهلا حين أضفت لنا لازم أقوال لم نقلها ، وإنما صدرت عن بعض من لا يحسن التعبير عما عندنا ، وذكروا لك الحق على وجهه ، فجاء الخلل من سوء فهمك ، كيف يمكن تكفير الأمة وجميع علمائها ، والنبي (ﷺ) يقول : (لا تجتمع أمتي على ضلالة) وتضافرت الأحاديث على هذا المعنى ، ويحك ! إن كفرنا جميع الأمة وعلماءها كما زعمت ، فكيف نستدل بأقوالهم !!.

<u>ثالثا</u> : كلامك متناقض ، لا يصدر عن عاقل ، فلم يبق إلا أنك مغالط لنا

مشاغب ، وإنما سبق في قلبك ما سبق ، سلمنا أن قائل هذا الجواب يلزمه ما عددت عليه ، ألم تعلم أن لازم المذهب ليس بمذهب عند المحققين ، كما قدمنا.

أما قولكم ، رأينا منكم ... الخ ، فاعلم أيها الكانمي أني شهدت بعض الوقائع ، فتح حصن من حصون كشنة ، فركبت لأنظر حاله ، فرأيت الورقات تتطاير ، وتقع في المواضع المستقذرة ، فسعيت جهدي في إخلاصها فلم أقدر لكثرتها ، فرجعت ولم أقض حاجتي ، فظلت يومي واجما ، ثم جمعت الناس وبحثت عن فاعلي ذلك لأزجرهم ، فلم يتفق لي علم بأحد صدر منه ذلك ، فشاورت ذوي الرأي فيه ، فقالوا إن سبب ذلك اتفاقي ، لا يقصد فعله أحد ، وإنما يكون عند المناهبه والمجاذبة للأمتعة ، فتحل الربط وتنقطع ، ثم تنتشر القراطيس ، فلا يختلج في خاطرك أن ذلك يكون من أهل الدين منا ، أو برضى منهم - والعياذ بالله - اللهم إلا أن يكون ذلك الإلقاء - إن كان - من السفهاء السفلة.

ولو أطلعنا على من يلقي الورقات في المزابل والطرقات من السفهاء لأوجعناهم وأخذناهم بأشد تأديب ، فإن كان بهم تعيرنا فانظر إلى بني إسرائيل ، فقد عبدوا العجل ، وقال بعضهم لموسى : (أَرِنَا اللَّهِ [1] جَهْرَةً) إلى غير ذلك ، فيلزمك إذ ذاك تنقيص الرسل بأتباعهم - والعياذ بالله - وهكذا القول في نقض العهود والمواثيق ، فإن ذلك لا يصدر إلا من السفلة ، الذين لا يعرفون قدر العهد والميثاق وحفظ الأمانة ، وإن الغادر ينصب له لواء غدره يوم القيامة ، وإن الشافع المشفع هو خصم من غدر في ذمته.

أما قولك فيا عجبك منكم بعد أن كانت لكم التقدمة .. الخ ، فهو كلام متناقض ،

(١) ١٥٣ / النساء

لا يتكلم به عاقل ، كيف تشهد لنـا بـالعلم والـدين ، ثـم تنـسب إلينـا الجهل والفسوق ؟ أحين أحببنـا الملـك انتـزع العلـم منـا والـدين ؟ حتـى رجعنـا إلـى تـسويلات النفـوس وتخيلاتـهـا ، واسـتدللنا بظـواهر لا تقـوم حجـة ، أم عرفنـا الحـق ثـم نبـذناه ، اتبعنـا التسويلات والتخيلات بدله ؟ فإن قلت انتزع منكم العلم والدين ، وانعكس بكم الحال ، فكيف أنت والحديث : (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه ...) الحديث.

فإن قلت قد عرفتم الحق ونبذتموه ، ورجعتم إلى ما رجعتم إليه مما ذكر ، قلنا فأنتم إذا من باب أحرى ، إذا شهدتم لنا بالتقدم في العلـم والـدين ، وإنمـا نبـذناهما [1] حين أحببنا الملك !! وإذا كنا كذلك فـأنتم لنبذهما أحرى ، ومـن لبـاس العلـم والتقـوى أعرى.

وأما قولك فإن هذا صدر عن رأيه فكلام غلطه ظاهر ، فكيف نبادر إلـى إسـاءة الظن بمـن فاضـت محاسـن سيره فـي جميـع الأقطـار ، فانطلقت بالثنـاء عليـه ألـسنة العوام ، والخواص أولى الأبصار ، فكيف تأخذنا بشيء سمعته من بعض مجاوريك ، الذين لا يكاد يبلغهم من خبره إلا آحاد الأخبار ، فكيف يؤخذ بمـا صـدر منـهم ؟! كفـى به غلطـا ، أم تـستدل بقولـه تعـالى : (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ [2] أُخْرَى) وقولـه تعـالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا [3] ؟؟) ثم تأخذنا بعد ذلك بشيء بلغك مـن بعض مجاوريك ، ولعلهم ممن لا يحسن التعبير عن حقائق الأمـور ، أم هم يحـسنون ، ولكن أعرضوا عنك من إلحاحك ، فذكروا لك ما ذكروا ، فكلامك هذا متنـاقض.

رابعا : هيهـات هيهـات لما تظنـون ، ونعـوذ بالله أن نرد على أعقابنا بعد أن

(١) أي العلم والدين.
(٢) ١٦٤ / الأنعام.
(٣) ٤٦ / فصلت.

هدانا الله : (قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ [1]) والسلام.

ويقول محمد بللو : (ثم أجبته بجواب آخر) ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وكفى ، وسلام عباده الذين اصطفى ، أما بعد ، فمن محمد بللو ، نجل أمير المؤمنين عثمان بن فودي ، إلى الحاج الأمين ، جوابا لما ورد من سؤاله ، أما قولك : (فأخبروني عن قتالكم لنا ، واسترقاكم أحرارنا ... كلام متناقض) فالجواب - والله الموفق للصواب - اعلم أن سبب قتالنا لكم فلأنكم واليتم كفار الهوسا دوننا ، بغير تقية منهم ، تعلمون أن من والى الكفار ، دون المؤمنين ، بغير تقية منهم ، فهو مثلهم ، كتابا وسنة وإجماعا ، ولقيامكم أيضا على إذاية المجاورين لكم من الجماعة ، حتى ألجأتموهم إلى الهجرة ، (وما ذاك إلا لرضاكم بدينهم) ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر ، وتعلمون على هذا أن معرفة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وعمارة المساجد لا يمنع من قتالكم ، ولا ينفعكم في الدنيا والآخرة ، لثبوت ارتدادكم ، وإن كان سبق لكم الإسلام الصحيح.

وأما قولك : (واسترقاق أحرارنا) فكما علم في الخلاف في استرقاق المرتدين ، انظر أجوبة المغيلي لأسئلة أسكيا الحاج محمد ، والنوازل للبرزلي ، تجد ذلك.

وأما قولك : (من أعظم حججكم ... ولا قال أحد بكفرهم) فلا تسليم دعواك أنهم ما يريدون بذلك إشراكا ، فإذا لم يكن الذبح للأحجار والأشجار ، فما الشرك والكفر والنصب [2] والأصنام والأزلام ؟ كفى بهذا غلطا.

---

(١) ١٠٤ / الأنعام.
(٢) الحجارة التي يذبح عندها.

وأما قولك : (ومن مارس كتب الفقه) إلى آخر الكلام ، فجهل منك صريح ، فذلك إنما هو لمن أهدى الفقراء والخدم لحضرة القبور صدقة عليهم ، أو لأصحاب القبور لا تعود عليهم بركاتهم ، لا لمن قصد الذبح للقبر نفسه ، فإذا لم يكن الذبح للقبور نفسها إشراكا ، فما الإشراك ؟ وأما قولك : (هذه دمياط ...) إلى آخر الكلام ، فلا يسلم أن العلماء لم يتعرضوا لقتالهم ، ولم يقولوا بكفرهم ، وأن تعلم أن ذات أنواط [1] من الأوثان في الجاهلية ، وقال الحسن اليوسي : (ويقرب تافية مقام الشيخ ابن يعزى شجرة أخرى من هذا المعنى ، وغرس من أحجار ، وكان ذلك حقيقا بالإزالة ، غير أن العالم سيفه لسانه ، وما وراء ذلك فإنما هو لأولي الأمر ، ممن به قدرة على الأمر) انظر المحاضرات.

أما قولك : (وأما كشف الرأس ... بذنب) فلا نسلم أي أحدا قال بالتكفير بالمعاصي ، فإنما ذلك مغالطة منك ومشاغبة ، وزر وبهتان علينا فالله حسيبك.

وأما قولك : (فلو أمرتم ...) إلى آخره ، فلا نسلم أنا جاوزنا الحدود في شروط الأمر والنهي ، بل وقفنا عند الشروط كما ينبغي ، فالمقاتلة الحادثة فيما بين ذلك ، إنما هو من اعتدائكم علينا ، فإنا لم نتعرض لنهي الملوك عن عوائدهم المخالفة للشرع ، فهم الذين بدءونا بالنهي عن الدين ، وألجأونا إلى الهجرة ، وبدءونا بالمقاتلة : (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ [2]).

وأما قولك : (سلمنا ... النظر الفاسد) فكلام زور بهتان ومشاغبة ، فمن قال منا بالتكفير بالمعاصي يلزمه ما عددت عليه ، هذه جرأة منكم وتسلط منكم في أعراض المسلمين : (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ [3] عَظِيمٌ).

---

(١) شجرة كانت تعبد في الجاهلية.
(٢) ٤٣ / النحل.
(٣) ١٥ / النور.

وأما قولك : (رأينا منكم الكلام ... الإبقاء) فمشاغبة ومغالطة ، وتعلم أن هذه الأفعال لا يمكن أن تكون من الأخيار ، وإنما تكون - إن كانت - من السفهاء منا ، والنبي (ﷺ) يقول : (الجهاد ماض ، لا ينقضه جور من جار).

وأما قولك : (يا عجبا .. فعلكم) فكلام مختلط ، أو كلام من تخبطه الشيطان من المس ، تشهد لنا بالخير ، ثم تشهد لنا بالشر ، كفى بهذا خبالا وخبطا ، وكيف تقول : (إننا أحببنا الملك) وتعلم أن الحب من أفعال القلوب ، فهل شققت قلوبنا ورأيت ما فيها ؟ أم اطلعت على الغيب ؟ كفى بهذا منك زورا وكذبا ، وهكذا قولك في الشيخ عثمان بنو فودي ، شهدت له بالخير ، ثم ألمحت إليه بالشر ، خبطا منك وخبالا في قلبك ، كفى بهذا منك نقيصة ، فاعلم يا كانمي أننا براء من جميع ما رميتنا به ، راجعون إلى الله مما ألممت به إلينا (وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى[1] مَا تَصِفُونَ) والسلام.

كما كتب السلطان محمد بللو رسالة أخرى ، وهاك نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي ألف بين قلوب المؤمنين ، وأمرهم بموالاة بعضهم بعضا ، ونهى عن موالاتهم للكافرين ، والصلاة والسلام على من آخى بين المهاجرين والأنصار وعلى آله وأصحابه ، الذين هم أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين والفاجرين ، وعلى الذين جاءوا من بعدهم ، يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم.

من الفقير إلى موالاة الغني ، محمد بللو نجل أمير المؤمنين ، عثمان بن

---

(١) ١٨ / يوسف.

فودي ، إلى الحاج الأمين بن محمد الكانمي ، يقرأ عليه السلام.

أما بعد ، فإذا كان المولى جلا وعلا قد لطف بك ، ونظرت إلينا بعين الإنصاف ، وبدا لك أن ترك المجادلة في الدين واجب ، والكف عن التعصب أسلم العواقب ، لأنه يؤدي إلى اتساع الخرق ، وامتداد الفتق ، ويوجب إنكار الحق جملة ، لأن الجدال في الدين دغل [1] ، والتعصب خطر ودخل ، إلا أن يكون بإظهار الحق باللين والرفق (وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ [2] بِالْمُهْتَدِينَ).

ولذلك اقتصرنا على الإجابة عنا ، في نقض عرى الجدال الصادر منك خاصة ، فأضربنا عن ذكر ما عندنا صفحا ، خوفا من التعرض لما ذكر ، ولذا حققنا أنا معذورون فيما نحن فيه ، إذ الدفع عن الدين والنفس والأهل والمال واجب ، عند جميع أهل الملل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك ، فينبغي لك أن تنظر إلى المجاورين لكم من الجماعة بعين الإنصاف كذلك ، لأنك ذكرت في كتابك الأول أنك لما ساقتك المقادير على إقليم برنو وجدت هذه النار موقدة ، فسألت عن السبب ، فقيل بغى ، وقيل سنة ، وتحيرت في الأمر ، فاللائق أن تتبين هذا الأمر وتتثبت فيه ، حتى تقف على العلم بالسبب ، ولعلهم كانوا معذورين ، كما كنا.

وأما قولك : (وإنما كلامنا في أرض برنو وأهلها ، إذ هي مدينة من مدائن الإسلام ، وسلطانها معدود من كبار سلاطين المسلمين ... لا حاجة به) فاعلم أنا ذكرنا لك في كتابنا الأول أنه ليس عندنا علم حقيقة أئمتها وسلاطينها ، ولكن يبلغنا

(١) فساد.
(٢) ١٢٥ / النحل.

الأخبار عنها بما هو أكثر مما ذكرت فيهم ، وهل هم باقون على ما يؤثر عن أوائلهم أم غيروا ؟ كما هو المعهود في أذناب الدول ، والله أعلم.

فإن قلت : (إنهم باقون على الإسلام ، ولم يداخلهم خلل يناقضه إلى الآن) فذاك إليك ، والعهدة عليك ، أما قولك : (اعلم أيها الأخ أن الذي فات فات ، والصلح بين المسلمين خير ، وفي السعي في ذلك أجر عظيم ، ولا يكون الصلح إلا بأن تتحمل أمرا...) الخ ، فاعلم يا أخي أن الذي أشرت إليه أمر سديد ، ورأى رشيد ، ويمكن نفوذه ، كما ذكر ، ولكن أيها الأخ ينبغي لنا أن نسعى في هذا الصلح ، ولا نريد إلا الخير والإصلاح ، ولا نقيده بقيد ما ، ولا نعلقه على شرط ، بل امتثالا لقوله تعالى : (فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ [1] بِيْنِكُمْ) وقوله : (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) [2] الآية وأمثالها ، ونعتمد في ما نسعى إليه أن يوفقنا الله إلى ما فيه رضاه وما يكون لنا ولكم فيه مصلحة قال تعالى : (إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ [3] بَيْنَهُمَا).

وتعلم أيها الأخ أن ما ذكرته من أن منازعته غير جائزة شرعا مغالطة ، فأين تجد اليوم من الأمراء من استكمال الشروط ، وتمسك بالكتاب والسنة ، واشترط لرعيته طاعته لهما - أي الكتاب والسنة - حتى لا يجوز الخروج عنه والحروب ، ولذا قدمنا أولا أن نأخذ في الإصلاح وحقن الدماء ، وحفظ الأموال وعصمة الأعراض ، نابذين في ذلك لكل قيد ربما كان سببا لسد باب الخير ، إن نريد إلا الإصلاح ما استطعنا.

---

(١) الأنفال.
(٢) ٩ / الحجرات.
(٣) ٢٥ / النساء.

هذا وإنا نضرع إلى الله أن يأخذ بأيدينا وأيديكم ، ويسلك بنا الصراط المستقيم ، ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ، ويؤلف بيننا وبينكم ، ويجعل بيننا وبينكم مودة ورحمة ، ويغفر لنا ولكم ، إن ذلك على الله يسير ، وما ذلك على الله بعزيز ، والله على كل شيء قدير ، والسلام.

يقول محمد بللو : فسار بهذه الوثيقة بريدنا ، فضاع فيما بيننا وبينهم ، ولم نزل هكذا ، كلما كتبنا إليهم لا تصل إلينا وثائقنا ، فحينئذ تجشمت في إنفاذ البريد إليهم ، وكتبنا إليهم ما يقتضي المواصلة بيننا وبينهم ، وطلبنا منهم الموادعة والمشاركة ، وبينا لهم حقيقة أمرنا ، وقبل وصول بريدنا إليهم ورد علينا من الحاج الأمين كتاب آخر ، فيه من الجدال والتعصب ما فيه ، فأجبته ، ونص الجواب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على من لا نبي بعده ، الحمد لله الذي حفظ دين الإسلام بإحكام آياته للمؤمنين المسترشدين ، ونسخ ما يلقى الشياطين في قلوب مواليهم الظالمين ، الذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم المشركين ، وضمن حفظ القرآن لما اشتمل عليه من الشرائع بقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [(١)]) والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، القائل : (يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فمن محمد بللو نجل أمير المؤمنين ، عثمان بن فودي ، إلى الحاج الأمين بن محمد الكانمي ، يقرأ عليه ، ويحييه بأطيب كلام.

---

(١) ٩ / الحجر.

أمـا بعد ، فقد وقفنا علـى كتابك الـذي كتبتـه إلـى مجـاوريكم مـن الجمـاعـة ، لتستبين الحق والحقيقة ، وتأملنا حق التأمل ، وفهمنـا منـه مـا انتهى إليـه فهمنـا ، وحاصل ما فيه أنك طلبت منه امتثال قوله تعالى : (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) ثم استدللت فـي الشأن بمـا استدللت بـه ، وشرطت فـي ذلك مـا شرطت فـي وقوع الصلح حتـى يخرج المهدي - إن كـان - أو ينزل عيسى (عليه السلام) وأكدت الاحتجاج بما أكدت ، ثم رشحت الكلام بما ذكرت في بلادنـا هذه ، ومـا نويت بعد وقوع الصلح ، ورشحت بما ذكرت فيّ وما ساءك مني ، ومـا أنكرت علـى محمد الدليل.

فاعلم أيها الأخ إذا كـان المولى قد لطف بك ، ونظرت إلينـا بعين الإنـصاف ، فـاللائق بـك أن تلقـى هـذه المغالطـات والمـشاغبات ، التـي أكثرهـا حجـج داحـضة ، وغالب قضياتها مزورة باطلة ، فاللائق الإعراض عن إجابتها ، ولكن حملنـي علـى الإجابة قوة الشفقة على جهلة الطلبة ، كيلا يفتروا بكثرة الصخب والشغب ، فيظنـوا أنك على دليل في هذا المذهب ، وليس قصده الصيال والجدال.

هذا لتعلم أولا أنا ما ساغ لنا الإذن لمجاوريكم من الجماعة في قتـال برنـو ، إلا لما تواتر من الأخبار ، وتضافر منها ممن خالط وهم وعرفوا أحوالهم أنهم يذبحون للأحجار والأشجار ، ويعملون للبحر ، كما كانت القبط تفعل للنيل أيام الجاهلية ، وأن لهم بيوتا منظمة فيها أصنامهم ، ولهم سدنة ، ورأينا مقتضى ذلك فـي كتابك الأول ، حيث قلت : (ومن أعظم حججكم على تكفير عامة المؤمنين ، وركوب الأمراء لبعض المواطن ، قصدا للصدقة) ثم تأولت أنهم لا يريدون بها الإشراك ، ولا يعتقدون فيهـا التأثير ، وإنما قصارى دعواهم أن الصدقة عندها أفضل من غيرها ، ولا يخفـى علـى

من له أدنى بصيرة أن هذه الدعوى لا عبرة بها ، لأن الحكم منوط بالظاهر ، والله يتولى السرائر.

فمن رأيناه ذبح للأحجار والأشجار كفرناه بقطع ، ووجود هذه الأمور من جملة ما كفرنا به أهل برنو ، لأنه ما بعث أمير برنو ـ على ما بلغنا ـ على إذاية المجاورين لكم من الجماعة المنتمين إلى الشيخ حتى ألجأهم إلى الهجرة ، وبدأهم بالمقاتلة إلا التعصب لملوك الهوسا ونصرتهم ، ولا يخفى أنه ما نهض لنصرتهم إلا لرضائه بدينهم ، ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر ، فقتالنا إياهم سائغ ، إذ جهاد الكفار على كل من قدر فرض ، وقد تبين بما ذكرناه على أمير برنو أنه عَلَم على كفره ، وتعلمون أن حكم البند حكم سلطانها ، فإن كان مسلما كان البلد دار إسلام ، وإن كان كافرا كان البلد دار كفر ، ولا ينكر هذا إلا جاهل بأقوال العلماء ، وإذا تقرر ما ذكرنا ، فاعلم بأن المسلمين المقيمين بدار الحرب على ثلاثة أقسام :

- قسم خالطوهم وتولوهم ، ورضوا بما هم فيه ، فهؤلاء كفار مرتدون مثلهم بإجماع ، وليس في هذا نزاع.
- وقسم ساكنوهم اختيارا ، لكن غير راضين بفعلهم ، وإنما حبسهم معهم غرض دنيوي ، فهؤلاء فساق بإجماع ، وليس في ذلك نزاع ، فإذا غزا المسلمون دار الحرب وعثروا عليهم وقبضوا ، خلى سبيلهم هم وذراريهم اتفاقا ، وأما أموالهم ففي ردها لهم وجعلها في الفيء خلاف تقرر في علم الفقه.
- وقسم ساكنوهم اضطرارا : فهؤلاء ليس بهم بأس ، فإذا عثر عليهم وقبضوا خلى سبيلهم هم وذراريهم اتفاقا ، ورد إليهم أموالهم اتفاقا.

هذا مـا نعرف فـي هـذه المـسألة حسبما وعينـاه مـن أقـوال علمـاء الـسنة ، وحشونا بـه كتبنـا ، فلتراجع ، فلو اقتصرت علـى قولـك : (إنهـم تـابوا وأقلعوا عمـا كانوا عليه) لكان أولى من هذا الإسهاب ، وأحرى من كثرة الاصطخاب ، إذ هو أقطع حجة عند كل من يعترف بالحق في قتالهم ، وهذا الأمر لم نعرفه من قبل ، ولم يبلغنـا قط ، لكن في خريف هذا العام وردت إلينا وثائق منسوبة إليكم تدل على ذلـك ، ولـذلك وجهنا نحن بريدنا إليكم لنستوثق الخبر ، ويأتينا بالحقيقة ، فإذا كان الأمر كما قيـل ، فـسنوجه بريـدنا ، مخـداد بـن لـيم ، ويحـضر معـه سـادات المـشرق مـن الجماعـة ، فتوجهون أنتم من ترضـونهم لأموركم ، وتـأمنونـهم وراء ظهـوركم ، فيكـون الموعـد بسيكو ، فتعاقدون على عهود ومواثيق يتوافقون عليها ويتراضون ، فيوضـع القتـال ويثبت السلم ، ولأجل ذلك تأخرنـا هذا العام عن غزو برنو وقد عزمنا عليه ، فإذا كـان الأمـر كمـا ذكـرت مـن أنـهم تـابوا وأقلعوا ، فوضـع القتـال إذ ذاك عمـا بيننـا واجـب ، والصلح فيما بيننا وبينهم لازب [1].

وأما قولك : (وقد علمـتم أنـه لـن يـأتي آخر هذه الأمـة بأفضل ممـا كـان عليـه أولـها سمعته من شيخي ، سيدي معاوية (ولا ندري أحديث أم أثر ، وتعلمون أننـا فـي آخر الزمان ، وقد مـضى اثنـا عشر قرنـا) فكلام صـحيح ، لكـن المـراد بـه بيـان فـضل السلف الـصالح وخصائصهم ، وهـم من هـم ، إذ هـم الـذين شـهد لـهم رسـول الله (ﷺ) بالفـضيلة بقولـه : (خيـر القـرون قرنـي ، ثـم الـذين يلـونـهم ، ثـم الـذين يلـونـهم) وفـي المدخل : (انظر إلى حكمه الشارع (ﷺ) في هذه القرون ، كيف خصهم بالفـضيلة دون غيـرهم مـن القـرون ، فـي كثيـر مـنـهم البركـة والخيـر ، ولكـن اختـصت تلـك القـرون بمزيـة لا يوازيـهم فيـها غيـرهم ، وهـي أن الله (ﷻ) خصهم بإقامـة دينه وإعـلاء كلمتـه ،

(١) لازب معناها لازم ، ولكن الأولى أفصح.

فـالقرن الأول مـنهم خصـهم (ﷺ) بخصوصية لا سـبيل لأحد أن يلحـق غبـار أحـدهم فضلا عن عمله ، لأن الله قد خصـهم برؤيـة نبيـه (ﷺ) ومشاهدته ، ونـزول القـرآن عليهم غضا طريـا ، يتلقونـه من النبـي (ﷺ) حين يتلقـاه من جبريل (ﷺ) وخصـهم بالقتال بين يدي نبيه ونصره وحمايته ، وإذلال الكفر وإخماده ، ورفـع منـار الإسلام وإعلانـه ، وحفظهم آي القرآن ، الذي كـان ينـزل نجومـا ، فـأهلهم لحفظـه ، حتـى لم يـضع منـه حـرف واحـد ، فجمعوه ويـسروه لمـن بعـدهم ، وفتحـوا الـبلاد والأقـاليم للمسلمين ، ومهـدوا لـهـم ، وحفظوا أحاديث نبيهم فـي صـدورهم ، أثبتوهـا علـى مـا ينبغي من عدم اللحن والغلط ، والسهو والغفلة) [1].

ثـم قـال بعـد [2] كـلام : (فمـا إن مـضوا لـسبيلهم طـاهرين عقـبهم التـابعون (ﷺ) فجمعوا ما كان من الأحاديث متفرقـا ، وبقـي أحـدهم يرحـل فـي الحديث الواحد ، وفـي المسألة الواحدة الشهر والشهرين ، وضبطوا أمر الـشريعة أتـم ضبط ، وتلقـوا الأحكـام والتفسير من في أصحابه (ﷺ) مثل علي بن أبي طالب وابن عباس (رضي الله عنـهمـا) قال (ﷺ) : (أمتى مثل المطر ، لا يدري أيه أنفع أوله أو آخره) أو كما قـال (ﷺ) يعنـي في البركة والخير ، والـدعوة إلـى الله تعـالى ، وتبيين الأحكـام ، لا أنـهـم يحـدثون حكمـا من الأحكام ، اللهم إلا ما يندر وقوعه ، مما لم يقع في زمان تقدم.

فيجب إذ ذاك أن ينظر الحكم فيـه علـى مقتضى قواعدهم فـي الأحكـام الثابتـة عنهم ، البينـة الصريحـة ، علـى مقتضى أصولـهم ، فمـا إن مضوا إلى سبيلهم طـاهرين ، أتى من بعدهم فلم يجدوا في هذا الـدين وظيفـة يقـام ويخـتص بهـا ، بـل وجـدوا الأمـر على أكمل الحالات ، فلم يبق لـه إلا أن يحفظ منـه مـا دونـوه واستنبطوه واستخرجوه

---

(١) أي في المدخل.
(٢) يقصد الصحابة.

وأفادوه ، فاختص إقامة هذا الدين بالقرون المذكورة في الحديث ، ليس إلا ، فلأجل ذلك كانوا خيرا من أتى بعدهم ، ولا يحصل لمن يأتي بعد هذه القرون ـ المشهود لهم بالخير ـ خير ، إلا بإتباع من شهد له صاحب العصمة ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فبقي كل من يأتي بعدهم في ميزانهم ، من بعض حسناتهم ، فبان ما قاله (ﷺ) : (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) أ. هـ [1].

وهذا الذي ذكره هو معنى قول شيخنا : (لن يأتي آخر هذه الأمة بأفضل مما كان عليه أولها) لا مثل محمد الوالي والطاهر وأمثالهما ، من علماء برنو ، كما أشرت إليه في كتابك الأول ، فقولك : (أحديث هو أم أثر ؟) ثم قلت : (إن غالب ظنك أنه حديث ، لكن لم تقف له على سند) ونحن لم نقف عليه ، ولكن الحافظ حجة على من لم يحفظ ، والذي عرفناه كما رواه غير واحد من الحفاظ ـ أنه (ﷺ) قال : (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها) يعني القرآن والسيف ، كما قال العلماء ، والعجب منك أنك لم تزل تستدل في جميع رسائلك وكتبك بالآي والأحاديث ، على وجه الاستدلال والإفحام ، مع أن المقلد إنما يسوغ له إيراد الآي والأحاديث على وجه التبرك والاستئناس ، وكان حقه في الاستدلال أن يسرد أقوال العلماء ويستدل فقط ، وهذا هو حقيقة المقلد ، وليس له أن يتعاطى وظيفة المجتهدين.

قال الجلال السيوطي : (فإن الاستدلال إنما يسوغ للمجتهد العالم بطرق الاستدلال ، فأما غيره فما له ولذلك ؟) قال الغزالي في كتابه التفرقة (شرط المقلد أن يسكت ويسكت عنه ، لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج ، ولو كان أهلا كان متبعا ، لا تابعا ، وإماما لا مأموما ، فإن خاض المقلد في المحاجة كان منه فضول ،

---

(١) انتهى ما قاله في المدخل.

والمشتغل به ضارب في حديد بارد ، وطالب لإصلاح بائد ، وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر ؟) هذه عبارة الغزالي ، والعجب منك تصديك لذكر أدلة ، ولو أرد عليك أدلة مخالفة لما ذكرت لم تدر كيف تصنع فيها !! قال لجلال السيوطي : كيف يحل لمن لم يتقن واحدا من العلوم المشترطة في التكلم في القرآن - وعدتها خمسة عشر - أن يجرؤ على الاستدلال بآيات القرآن والأحاديث على حكم من الأحكام ، وعلى واحد من الأمور ، جاهلا بطريق الاستدلال ، عاجزا عن تحصيل مشروطه !! ومثل هذا هو الذي ورد في الحديث : (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) وفي رواية أخرى : (فقد كفر).

وقد أوجب أهل الأصول على المجتهد المستدل - هل معه قرينة تصرف الدليل عن ظاهره أو لا ؟ - فهذا نطح من الناطحين ، من غير تأمل ، ولا مراعاة لشرط من الشروط ، فلو استحى هذا الرجل من الله لتوقف عند مرتبته ، وهي التقليد ، وترك الاستدلال وأهله ، قال الله تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ [1]) وأولي الأمر هم المجتهدون ، كما قال عبد الله وجابر وابن عباس ومجاهد وأبو العالية في قوله : (أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي [2] الأَمْرِ مِنكُمْ) قال هم أهل العلم ، ألا ترى أنه يقول (لعلمه الذين يستنبطون منهم) ومعلوم أن لفظ الفقهاء والعلماء إنما يطلق على المجتهدين ، وأما المقلد فلا يسمى فقيها ولا عالما ، كما نص عليه أهل الفقه والأصول ، وامتناع إطلاق الفقيه والعالم على المقلد ، كامتناع إطلاق المسلم على اليهودي ، خصوصية من الله (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ [3] يُسْأَلُونَ).

---

(١) ٨٣ / النساء.
(٢) ٥٩ / النساء.
(٣) ٢٣ / الأنبياء.

وأما قولك : (ومضى من العلماء والمجددين من الأئمة السلف والخلف من مضى ، وما فيهم من احتج بهذه الحجج ، وكفر عامة المؤمنين ، وشهر سيف العدوان هكذا ، مع أن هذه البدع والمناكر موجودة في كل قطر ، وفي كل عصر ، والآيات التي أوردتموها ، واستحللتم بها محارم الله لا تخفى يومئذ على العجائز والصبيان ، فضلا عن فحول العلماء ، فليسعكم ما وسع الأولين ، وهم لعمر الله سادة ، ما عليهم مزيد ، يقطع العقل أن هذا القرن لا يوجد به أفضل من الصدر الأول ، ولا أقوى ، ولا أعلى).

فالجواب أنا ما قاتلنا أهل برنو إلا لما ذكرناه قبل ليس إلا ، وهذا الذي ذكرته في هذه المقدمات ، وما استخرجته منه من الاستنباط والنتيجة ، فحجة داحضة ، كيف يقال إنه يجوز لمن قدر أن يغير المنكر ويزيل المفاسد ، لا يصح له أن يتكلم فيها لكون من تقدمه من العلماء لم يغيرها أو لم يتكلم فيها !! وهذا لعمي باطل.

قال الحجة المغيلي في أجوبته لأسئلة أسكيا الحاج محمد : (فاكتسب لنفسك ما ترجى بركته ، وتحمد لك عاقبته في الدنيا والآخرة ، ولا تقل في باطل - قدرت اليوم على إزالته - هذا لا يلزمني ، لأني ما فعلته إنما فعله غيري ، وكل ما فعله غيرك - ثم صار إليك - إن كان خيرا فأثبته ، وإن كان شرا فأزله ، ولو طال زمنه ، لأن الملك كله لله ، وأنت عبد الله ، واجب عليك أن تصلح ما وصل إليك) أ. هـ

قال ولي الله بن أبي حمزة في بهجة النفوس : (ثم بعد هذا البيان الواضح يحتجون على الجواز ، لكون بعض تلك الأشياء الفاسدة كانت في زمن من تقدمهم من الفضلاء ، ولم يتكلموا فيه ، ويرون أنهم لا يتكلمون - وإن ظهر الفساد - بالدليل الشرعي ، ولكون من تقدمهم لم يتكلم فيه ، وهذا غلط آخر أيضا ، لأن من كان فيه

قبلهم ـ وكان هذا الواقع في زمانهم ـ محتمل أن يكون الواقع على غير هذه الصيغة الفاسدة ، فلا حجة لهم فيه ، لأنه كان في زمانهم صالحا ، فلم يكن لهم أن يتكلموا فيه ، وهو الآن فاسد ، فوجب الكلام حين الفساد).

ولهذا المعنى قال رزين ، رحمه الله : (ما أتى على بعض الفقهاء المتأخرين إلا وضعهم الأسماء على غير مسمياتها ، لأنه كانت تلك الأسماء في الصدر الأول على صيغ جائزة بوجوه شرعية ، وهي اليوم ليست على وجه جائز ، فأجازوا غير الجائز ، لاشتراكه في الاسم مع الجائز ، وإن كانت في زمانهم على تلك الأحوال الفاسدة ، فهو محتمل أيضا لأن يكونوا غفلوا عنها لشغلهم عما كان عندهم آكد واهم فلم يلقوا إليها بالهم ، أو نظروا إليها ، وغلطوا فيها ، لأنه لا أحد معصوم من الغلط وإذا غلط أحد فكيف يتبع في غلطه ؟ هذا من الغلط.

والظاهر في الوضع أحد الوجهين ، والثالث مرجوح ، لأنه لا يحمل على المؤمنين إلا الوجه الأصلح ، سيما من تقدم ، والوجهان هما ما تقدم من أنها كانت صالحة ، أو فاسدة ولم يلتفتوا إليها ، لشغلهم بغيرها ، لأنهم لو التفتوا إليها لتكلموا عليها وعللوها ، إما بالجواز أو المنع ، ولو فعلوا ذلك لنقل عنهم ، ولم ينقل عنهم شيء في ذلك ، فإذا لم يتكلموا فيها فكيف يعطى الحكم للساكت ؟ ولا قائل بذلك ، مع أن الأصل تطرقُ الفساد إلى الأحكام ، لقوله (ﷺ) : (تنقض عرى الإسلام عروة عروة كلما نقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها ، وأولهن نقض الحكم ، وآخرها نقض الصلاة) فيتطرق الفساد إلى الأحكام شيئا فشيئا ، ولا يشعر به ، كما أخبر بذلك الصادق (ﷺ) : فالعاقل يكون ممن جبر ما نقص ، ويحذر أن يكون ممن أعان على النقص ، وقد قال (ﷺ) : (من أحيا سُنّة من سنتي قد أميتت فكأنما أحياني ، ومن

أحياني كان معي في الجنة) فاحذر أن تكون مع الخلق ، وكن مع الحق حيث كـان ، لأنـه (ﷺ) قال : (لا يكون أحدكم إمعة ، يقول أنـا مـع النـاس ، إن أحسن النـاس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن النـاس أن تحسنوا ، وإن أسـاءوا ألا تظلموا).

وأمـا قولـك : (وأطلب منكم أحد أمرين ، إمـا أن تقولـوا فعل فلان فـي الإقلـيم الفلاني ، في العصر الفلاني ، مثل هذا من علماء السنة المعتبرين) فالجواب :

اعلم أن من فعل مثـل هذا لا يحصى كثره ، بـل السؤال عن هذا تعنـت ، فـهـذا محمد بن أبي بكر ، المعروف بأسكيا ، قريب منا قطرا وعصرا ، لما ولى صنفاي بعد سني علي استفتى محمد بن عبد الكريم المغيلـي التلمساني بمـا نـصه : (مـا جـوابكم عن سني علي من ملوك صنفاي ، قـال : كانـت أمـة من قـوم كفـار، بعيـدون الأصـنام والأشجار والأحجار ، ويتصدقون لـها ، ويسألون حوائجهم عندها ، فـلا يغزون حتـى يشاوروها ، وإن قدموا من سفر قصدوها ، ونزلـوا عنـدها ، ولتلك الأصـنام سدنـة يخدمونـها ، فيهم كهان وسحرة يقصدونـها كذلك ، وكـان سني علـي - مـن صغره إلـى كبره - كثير الإقامة عندهم ، حتى نشأ بينـهم ، وتطبع بطبائعهم في شركهم وعوائدهم.

ثـم بعد مـوت أبيـه طلـب الـسلطنة ، فقـامْ علـي صنفاي وقـاتلهم حتـى غلـبهم وتسلطن عليهم ، كما كان أبوه من قبلـه من ملوك صنفاي ، إلا أنـه لما نشأ من صغره إلى كبره بين أخواله وتطبّع بطبائعهم كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونـحوهمـا مـن ألفـاظ المـسلمين ، ويـصوم رمـضان ، ويتـصدق كثيـرا بالـذبائح وغيرهـا ، عنـد المساجد ونحوها ، ومع ذلك يعظم بعض الأشجار والأحجار بالذبح عندها ، والصدقة

والنذر لها ، والتضرع وطلب حوائجه منها ، ويستعين بها وبالشجرة والكهان في أموره كلها أو جلها.

ومن صفاته أيضا أنه لا يتوقف في النساء ، بلا نكاح ، ولا غيره من الشروط الإسلامية ، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها ، وأدخلها بيته ، ومن صفاته أيضا أنه حلل دماء المسلمين ، بقتل القراء والعلماء والعباد ، والنساء والصبيان الرضع وغيرهم ، ولم يزل على ذلك مدة عمره حتى مات ، ثم ولي الأمر بعده أسكيا فملك البلاد ، ورد العباد عن الشرك والفساد ، فما الحكم في سني علي ، وجميع أعوانه من الظلمة ، الذين كانوا يعملون بعمله ، هل هم كفار أم لا ؟ فأجاب بما نصه :

إن سني علي وجميع أنصاره وأعوانه ، لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين ، الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، فجهاد الأمير أسكيا فيهم ، وأخذ السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد.

وأما أهل بلده هل هم كفار أم لا ؟ فلا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب ، فالذي ذكرتموه من حال سني علي علم على الكفر بلا شك ، فإن كان الأمر فيه كما ذكرتم فهو كافر ، وكذلك من عمل بمثل عمله ، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك ، وأما استرقاق أولادهم فلا أراه ، وإن ثبت عليهم موجب الحكم بالتكفير ، لأن الكفار ثلاثة أصناف :

<u>الأول</u> : من هو كافر صريح بالأصالة ، كالنصارى والمجوس وغيرهم ، ممن ورث الكفر الصريح عن آبائه.

الثاني : من كان مسلما ثم ارتد عن دين الإسلام ارتدادا ظاهرا ، وصرح بأنـه خرج عن دين الإسلام ، ودخل في غيره من دين الكفر.

الثالث : من يزعم أنه مسلم ، وحكمنا بكفره ، لأجل أنه صدر منه ما لا يقع في الظاهر إلا من كافر ، كما ذكرتم عن سني علي.

فالكافر بالأصالة في الكفر تسبى ذراريهم ونساؤهم ، وتقسم أموالهم ، ولا خلاف في ذلك بين العلماء ، وفي الكفار بالارتداد خلاف ، قال ابن القاسم في أهل حصن من المسلمين ارتدوا عن دين الإسلام إلى الكفر ، لا تسبى ذراريهم ونساؤهم ، وأما أموالهم فهي فيء للمسلمين ، قال ابن رشد : (وهذا هو الصحيح من وجهة النظر ، لأن المرتدين أحرار في أصلهم) قال : (وإلى مذهب ابن القاسم في المرتدين ذهب عامة العلماء وأئمة السلف) فإذا علمت هذا فإن كل من فعل شيئا من تلك الأفعال الموجبة للتكفير يستتاب ، فإن تاب ترك ، وإن لم يتب قتل بالسيف كفرا ، ولا يسترق أولادهم ، وإنما يجبرون على الإسلام ، وأما بيع أولاد أمهاتهم التي استولدوها من أموال بيت المال فلا أرى به بأسا ، وإن كانوا لا يسترقون).

وفي المختصر : وإن ارتد جماعة وحاربوا فكالمرتدين ، قال الشبرخيتي في بيان معنى ذلك : يستتاب الكبير ويجبر الصغير.، ويوقف المال ، ولا يسبى العيال ، وهو فعل عمر (ﷺ) وعليه جماعة العلماء وأئمة السلف إلا قليلا ، وقال أصبغ : كالكفار الحربين ، يسترقون هم وأولادهم وعيالهم ، ولعمرى أنه أمر خالف فيه عمر أبا بكر في الردة من العرب ، فجعلهم أبو بكر الناقضين للعهد ، فقتل الكبار ، وسبي الصغار والنساء ، وجرت فيهم المقاسم وفي أموالهم ، وهو فعل أبي بكر الصديق (ﷺ) والله ولي التوفيق والهداية.

ثـم استفتاه عن سلطان مـن المـسلمين بجانبـه بمـا نـصه : (مـا جـوابكم عن سلطان يعمل الحرام ، فإذا قيل لـه في ذلك قال ما نعمل حلال ، وأنا أعلم منـك ، ودأبـه تلبيس الحق بالباطل ، ولـه فقهاء اتخذهم لذلك ، فكلما أراد أن يعمل شيئا من غرضـه أحضرهم ، وقـال لهـم ألـيس هـذا حـلالا ؟ فيقولـون : بلـى ، لـك ذلـك فيوافقونـه علـى غرضه ، ويستتر بهم من الطعن عليه بالظلم والجـور ، فهـل مثـل هـذا السلطان ظـالم أو كافر ، لأجل تحليل ما حرم الله ، وكذلك أولك الفقهاء ؟؟).

فأجاب بما نـصه : (فمـن ثبت عليـه أنـه حلل المكس ونـحـوه ، مـن أكـل أمـوال الناس بالباطل وجب الحكم بكفره ، وكذلك من أنكر الحق المبين ، ولبّسه بالباطل).

وسـألـه عن أشـياء غير هـذا ، فأجابـه بمـا أجـاب ، فمـا وصـل عنـد هـذا الأمير الجواب ، وحصل عنده العلم بالصواب ، قام فمهد البلاد ، وبسط العدل بين العبـاد ، واشتهر عدلـه فـي سـائر الأقطـار، حتـى زاره مـن الفقهـاء والعلمـاء جماعـة ، مـنـهم الحجة المغيلي ، والجلال السيوطي ، وغيرهمـا مـن شيوخ الإسـلام ، وكتبـوا لـه مـن النصائح ما كتبوا ، وشهدوا لـه بالعدل والاستقامة.

ولا يخفى أن أحوال بلاده وزمانـه ـ أي أسكيا محمـد ـ كـأحوال زمـانـنـا وبلادنـا هذه وبلادكم ، وحسبك بـه ، وبمن أفتوه في جهاده قدوة وأسوة حسنة ، فإذا علمت هـذا علمـت بـأن جهادنـا هـذا جهـاد صـدق صـحيح ، فإنـه موافـق لمـا عليـه الآي والأحاديث وأقوال علماء السنة ، ولسنا في الخبط ألبته.

وأما قولك : (حتى يخرج المهدي ـ إن كـان ـ أو ينـزل عيسى ، وكلاهمـا لـيس ببعيـد) فـالجواب : إن كنـت عنيـت بكلامـك هـذا أن زمـان المـهـدي هـو زمـان العهـد

وظهور الحق فواضح ، وإن كنت عنيت به نفي الفاطمية عن شيخنا هذا ، من أجل ما يبلغك أنه يكثر تقرير أمر العهد ، فاعلم أنه لم يتظاهر أنه المهدي ؟ فمن وقف على كتاب البرهان في علامات المهدي آخر الزمان ، والعرف الوردي في أخبار المهدي وأمثالهما ، كيف يتصور أن يدعى الفاطمية لمن لم يكمل له شروط المهدي عند كل من يعترف بوجوده آخر الزمان ؟.

وأما قولك : (ومن أراد أن يتخطى علماء الأمة المتقدمين ، ويدعى أنه فاتهم باستنباط أو أمكن له ما عَسُر ، فقد زلت به القدم ، وسقطت منه المكالمة ، ووقع في مهواة العجب ، نسأل الله السلامة) فالجواب أن هذا مشاغبة ، وقد مر الجواب عنه.

وأما قولك : (واحتجاجي ودفعي كله عن أهل برنو لما شاع وذاع من إسلامهم في سائر الأقطار والأمصار ، وشواهد آثاره عليهم ، وإن كانت ملوكهم تفعل أمورا مخالفة للشرع فإننا ننكر ذلك ، ولا نرضى بفعلهم ، لكن حيث سلطكم الله عليهم سوط عذاب ، وأدبهم بكم ، أقلعوا عما كانوا عليه ، فتوبتهم تنفعهم ، ولا تبيح لكم أن تفعلوا بهم هذا الفعل) فقد مر الجواب عن مثل هذا آنفا.

وأما قولك : (وأما أهل السودان فلا علم لي بها ، ولا تكلمت في أمرها ، وما أنا بداخل بينكم وبينهم إن لم تتعرضوا لأرض برنو ، وها هو رسولي العالم الأمين ، بعثته ليأتي بالخبر الصحيح ، فإن كان صالحا موفقا فليأت به) فالجواب ـ والله الموفق للصواب ـ أنا ما تعرضنا لبرنو إلا لما ذكرناه قبل ، وهذا الصلح الذي دعوتم إليه وقد بدأناكم به مرارا ، فلم نزل نكاتبكم به كل عام ، وغالب ظننا أن رسائلنا لا تبلغكم ، ولا تصل إليكم أخبارها لعدم رؤيتنا جوابكم فيها ، وهو ـ إن شاء الله ـ صلح موفق ، وفقنا الله وإياكم إلى الخير.

وأما قولك : (وأنا منتظر لأوراق بعثتها إلى علماء المشرق في هذا الأمر ، وبينت لهم حال الفريقين ، فإن جاء الجواب موافقا لكم سلمت وأذعنت ، وإن جاء مخالفا لكم بعثت به إليكم ، إن شاء الله) فالجواب ـ وبالله التوفيق إلى الصواب ـ كيف تحاجنا بجواب استفتيته ـ مع أنك لم تنصفنا في السؤال ؟ ـ تعلم أن الجواب إنما يأتي على وفق السؤال ، وقد رأينا في رسائلك التي ترسل بها إلينا أنك ما أنصفتنا فيها ، ولا ذكرت الأمر على حقيقته ، بل ترمينا بقضيات مزورات علينا ، وأمور موضوعات ، فحيث ذكرت الأمر على خلافة ، ووشحت الكلام حيث شئت ، وذكرت في السؤال الصادر منك ، إلا إذا رجعت وأنصفت ، وذكرت من حال الفريقين ما يحق ذكره ، ويثبت أمره ، وعدتك الحمية والتعصب.

وأما قولك : (ثم إذا ثبت الصلح ، واطمأن كل أحد في موضعه ، ووضع السلاح وترك الغزو ، وسافر التجار ، وحج الحجيج ، وانتشر الأمن ، فعند ذلك إن كان الشيخ سيدنا عثمان بن فودي حيا ، وسمعت بصحيح خبره سرت إلى حضرته ، أو من أرضاه كنفسي ، فإن ظني به جميل واعتقادي به حسن) فالجواب ـ والله الموفق للصواب ـ أن الصلح ـ إن شاء الله ـ فيما بيننا وبينكم واقع ، ولنضرع إلى الله أن يصرف عنه كل مانع ، والذي ذكرت أنك بعد حصوله تريد القدوم على الشيخ فكلام حسن ، لأن مثله جدير أن يسعى إليه ، بل حقيق بأن يسافر إليه ، كما قال المغيلي : (يجب عليك أن تطلب عالما من علماء الذكر حيث كان ، لأن علماء الذكر كالأنبياء في الأمم الماضية ، يجب الاعتماد عليهم ، والسعي إليهم ، وإن بعدوا) فالشيخ ـ متعه الله بأتم العمر ، وأعلى الأمر ، وجعل العاقبة خيرا ـ مناقبه أجل من أنه تحصى ، بل هو كما قال القائل :

ما في علاه مقالة لمخالف ... فمسائل الإجماع فيه تسطر

وأما قولك : (وإن لم أسمع بخبره ، وكان الأمر من ابنـه محمد بللو فهو فـي موضعه ، وأنا في موضعي ، ما أنا بطالب منـه خيرا ولا شرا ، إن لـم يطلبنـي ، وإن ابتدأني وجد ما أراده ، خيرا كان أو شرا ، فلقد فهمت فـي أول مكتـوب منـه مـا يـدل علـى أن أمـره أمـر سلطنة وملـك ، وحيث كـان الأمـر هكذا فلا أخشى سـطوته ، ولا أخاف شوكته ، ومع ذلك فأمره لله ، ما أنا بذاهب لجهته ، ولا قاصد أرضهم بسوء ، ما لم يظهر منهم ما يوجب ذلك ، والله حسبه فيما تكلم بـه فينـا ، ومـا أقرب الوقـوف بين يدي أحكم الحاكمين ، والانتصاف لمن ظلم من الظالمين).

فالجواب ـ والله الموفق ـ فيما ذكرته من أنك لا تطلب مني خيرا ولا شرا ، فأنـا ـ إن شـاء الله ـ أبتـدؤك في طلب الخيـر ، ولا أريـد الشر ألبتة (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ [1] أُنِيبُ).

ومـا ذكرت مـن أنـك فهمت من مكتـوب منـي بـأن أمـري أمـر ملك وسلطنة ، فـلا تخشي سطوتي ، ولا تخاف شوكتي ، إلى ما يوجب ذلك ، فلا يخفي على كل ذي بصيرة ما في هذا الكلام والذي قبله من الجهالة وسخف المقالة ، والله على ما نقول وكيل.

وما ذكرت ممـا ألمحت بـه فـي الكـلام الـذي رددت بـه عليك في الجواب الأول والثـاني مـن كتابـك ، الـذي شـنعت بـه علينـا ، وزورت كمـا شـئت ، فـذلك منكم عدم إنصاف ، لأنـا مـا رددنـا عليك ، إلا علـى وفـق مـا رميتنـا بـه (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ [2] سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) مع أنه ليس في جوابنا سب ، ولا فحش القول أصلا ، ولو أنصفتم مـا اختلفتم علينـا ، بل ورد مـنكم وثيقـة فيهـا مـن الـسب واللعن وفحش القـول ، وبـذاءة الكـلام

(١) ٨٨ / هود.
(٢) ٤٠ / الشورى.

وسوء المقال والقواعد والتهديد ما فيها لكن الله يعلمه ويحصيه ، فما منعني من الإجابة عنها ، والالتفات إليها والتفجع بما فيها ، إلا علمي بأن ذلك إنما يصدر عن الجهلاء ، فأعرضت صفحا امتثالا لقوله تعالى : (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا [1] سَلاماً) ولذلك كتبت في إجابتها - بعد الحمد والثناء - بما كتبت : أما بعد فقد رأينا كتابكم الذي فيه خطابكم (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي [2] الْجَاهِلِينَ) وحسبنا الله ، ونعم الوكيل ، والسلام.

وأيضا إنما أعرضنا عن إجابتها ، والتأذي بما تصفون ، والتوجع به ، علما بأنه لا يضر السحاب نبح الكلاب ، قال حسان بن ثابت :

لا تسبني فلست بندى	إن ندى من الرجال الكريم
ما أبالي أنب بالخزي تيس	أم لحاني بظهر غيب لئيم

وقال آخر :

ما يضر البحر أمس زاخرا	إن رمى فيه غلام بحجر

وقال جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا	أبشر بطول سلامه يا مربع

والعجيب منك أنك لم تزل تنسبني إلى إذايتك في الكلام ، وتنحلني إلى الجدال ، كما في وثيقتك الثانية ، لا جرم أن من تأمل كلامك في وثائقك هذه علم ضرورة أنك

---

(١) ٦٣ / الفرقان.
(٢) ٥٥ / القصص.

المجـادل ، ومـن وقـف علـى كتابـك الـذي أشـرنـا إليـه علـم الـضرورة أنكـم القـائلون بالفحش والعيب والإذاية :

رماني بنو عجل بداء أبيهم   وأي عباد الله أنوك [1] من عجل

والله المستعان على ما تصفون.

وأما قولك في الرد على محمد الدليل في تشبيه عمل الشيخ بعمل رسول الله فتعنت ، وعلم على عدم إتقان علم البيان ، لأن المعلوم من المشبه أن يكون دون المشبه به وإن كان يختلف باختلاف الأحوال والنكت ، فليعلم الواقف على هذه الورقات بأن قصدي النصح للأخوان ، لئلا يغتروا بكثرة صخب هذا الإنسان ، وليس قصدي الجدال والانتصاف ، فمن وقف عليها ، وأمعن النظر ، علم قطعا بأن الحق بخلاف ما يذكره ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد قدمنا أنه لما علمنا عدم وصول وثاقنا إليهم ، تجشمت في إنفاذ البريد ، فسار بوثائقنا ، وحاصل ما في وثيقة الوالد ، الذي كتبته له :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليما ، الحمد لله وحده ، ولا إلى غيره ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، فمن أمير المؤمنين ، وسلطان المسلمين ، سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا ، عثمان بن فودي إلى العالم العلامة محمد الأمين الكانمي بألف تحية وألف سلام ، أما بعد فباعث الرسالة إليك إعلامك بما نحن فيه ، إذ أكثر المجاورون لكم من جماعتنا رفع شكايتهم منكم إلينا ، وألحوا بالانتصار بنا عليكم ، فتعين النظر في شأنهم والتوجه إلى صوبهم ، فاعلموا علم يقين بأن طريقتنا طريقة أهل السنة والجماعة ، من إيثار

(١) أحمق.

الحق ، وإتباع السنة ، حنفاء عن طريق الإفراط والتفريط ، الذي هو الركون إلى العوائد ، والتسامح في المعاصي ، وعن الإفراط الذي هو إنكار ما ليس بمنكر ، فأحرى بأن لا نكفر الناس بما ليس كفرا ، فيطلب منكم أن تأمروا أمير برنو وقومه أن يتوبوا إلى الله ، ويتبرءوا من كل عادة ردية ، مخالفة للشريعة ، ليتفق هو ومجاورهم من الجماعة على طريق واحد ، فيوضع القتال ،ويثبت السلم ، أو يتركونا ولا يتعرضوا لنا ، فيكون الإصلاح بينه وبين الجماعة بعهود ومواثيق ، يتوافقون عليها ويتراضون ، فيوضع القتال فيما بيننا وبينهم ، وإن آثروا الطريقة الأخرى ، ورغبوا في بقائهم على حالتهم الأولى ، فلا يسعك المقام معهم ومعاونتهم ، قال الله تعالى : (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ [1] وَالْعُدْوَانِ) والسلام ، يقول محمد بللو : هذا حاصل على ما كتبته للشيخ إلى الحاج الأمين بأمره ، وكتبت إليه بما حاصله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما ، فمن محمد بللو إلى الحاج الأمين بألف تحية وألف سلام ، فباعث الرسالة إليك إعلامك بأني لم أزل كل عام أنفذ الوثائق في طلب الإصلاح فيما بيننا ، فتضيع الوثائق ولا تبلغكم ، لذلك أنفذت هذا إليكم مع هذه الوثائق ، وكنت قلت شعرا ، فإن بلغك فما ذكره ، وإن لم يبلغك فانظره :

ألا من مبلغ عني الأمينا	رسالة ناصح يبدي اليقينا
تعلم أننا ما مما رمينا	به براء فأوف العذر فينا
وأنا لما تغلبنا عليهم	علوا أو فسادا قاصدينا
ولكن حين أخرجنا اعتداء	وبغيا ـ صاح ـ قمنا دافعينا

(١) ٣ / المائدة.

تبيــن أمــرنا هــذا أخانــا وفتشــه ولا تعجـل علينــا

فدع عنك الركون إلى الأعادي ونـصر الظالمين الفاجرينا

تعلــم أنهــم أهـل اعتــداء ووال أخا الصلاح المؤمنينا

وخالهـم وظاهـرهـم عليهـم فإن الله مخـزي الكافرينـا

فالحاصل أن من يتحرى السلامة ، ويتورع عن الملامة ، فلابد أن يتجنب ما لا يكاد يتضح خلاله من شبهته ، فاسعوا في الإصلاح جهدكم ، فإنا نسعى فيه ، وفقنا الله وإياكم إلى الصلاح والخير.

يقول محمد بللو : انتهى ما مر في الوثيقتين ، فسار بهذه الوثائق بريدنا عثمان ، حتى وصل عده فرحب بالبريد وأكرمه ، وأجاب بما نصه :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، من العبد الذليل ، محمد الأمين ابن محمد الكانمي ، إلى العالم العلامة ، الشيخ عثمان بن فودي ، سلك الله بنا وبه سبيل السداد ، السلام التام ، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد ، فقد بلغنا كتابك ، وتأملناه حرفا حرفا ، أما قولكم : (إذ قد أكثر المجاورون لكم من جماعتنا رفع شكايهم ...) الخ ما ذكر في ذلك ، فاعلم أنه لم يصدر منا إليهم ما يوجب الشكوى ألبتة ، إذ هم يغيرون على أطراف بلادنا ، ويستلبون الأموال ، ويسترقون الأحرار ، ويسفكون الدماء ، ويحرقون الديار ، فنقوم لدفعهم واستخلاص ما أخذوه ، ولنتبعهم إلى حيث قدر الله تعالى ، فتارة نجدهم وننقذ منهم ما استلبوه ، وتارة يعجزوننا هربا ، هذا دأبنا معهم حتى اليوم ، ثلاثة أعوام ، وما غزوت عليهم قط مبتدئا ، طالبا منهم نفعا ، أو قاصدا منهم ضررا ، فهل

ألام على ذلك شرعا أو عرفا ؟؟ وإن كان هذا أوجب عليكم التوجه لصوبنا ، فما نحن بتاركي الطلب - إن أغاروا - لأجل تهديدكم ، ولا نعطي بأيدينا الطغاة لأجل وعيدكم ، فإن المجاورين لنا أناس غلب عليهم الجهل والتقليد ، همتهم ملك البلاد ، وقهر العباد بأي وجه ، ولسنا نعطيهم ذلك اختيارا.

وإن توجهتم إلينا بعد ما أطلعناكم على الموجب ، فنحن على اللقاء - إن شاء الله - صابرون ، وبعون الله لكل صائلون دافعون ، ولمن جاءنا في ديارنا مقاتلون (وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ [1] اللَّهِ).

وأما قولك : (فاعلموا علم يقين أن طريقتنا طريق أهل السنة والجماعة) إلى قولك : (وتعاونوا على البر والتقوى) فهذا كلام مستقيم ، لا ينكره ذو لب سليم ، ألا إن المجارين ليس هذا حالهم ، ولو كانوا كذلك ما اختلفنا ولا تقاتلنا ، وقد أمرنا الناس بإتباع سنة رسول الله (ﷺ) قبل هذا الأمر ، وما زلنا آمرين - إن شاء الله - حتى يجف اللسان ، أعانني الله وإياكم على طاعته ، وإتباع سنة نبيه.

وأما قولك : (إن آثروا الطريقة الأخرى ، ورغبوا في بقائهم على حالتهم الأولى ...) الخ فاعلم أنني لست ممن ينصر الباطل - إن شاء الله - ولا ممن يدنون حول حماه ، ولكنني ابتليت بأناس أتاح الله أن يجعلني فيهم ، وأكثرهم مرضى القلوب ، وأنا فيهم كطبيب يعالج الأمراض المزمنة ، ولا معين له ، وجاورني من جماعتكم أناس لا خلاق لهم ، كلما أطفأت نارا أوقدوا أخرى ، وشغلوني وغيري عن دين الله ، فضلا عمن سواه والآن حيث جعل الله المراسلة بيننا ، يرجى خمود نار الفتنة ، إن شاء الله.

---

(١) ١٢٦ / آل عمران.

فمر جميع الفلاتين أن يكفوا عن قتال برنو ، وعن الغزو إليها أصلا ، ولا يطعموا في شيء سوى وجود العافية ، والأمن في ديارهم ، على دينهم وأموالهم ، فإن بلغوا ذلك فيها ونعمت ، وإن أبوا ذلك ، وجعلوا يخوضون في القيل والقال ، وإيراد الأدلة المقابلة بأدلة مثلها ، مذبذبين حول طلب الملك ، فلا صلح ولا أمن ، وطرق الأدلة متسعة لنا ، كما هي عن ظنهم متسعة لهم ، ولكن الأسلم والأصلح والأحوط وضع القتال - إن وجد إليه سبيله - ومع هذا لا أغزوهم ، ولا أقصدهم ابتداء ، إلا إذا أغاروا وأفسدوا ، فلابد من الطلب ، ولا بأس به ، إن شاء الله.

وأما المسافر والحاج فليأت ، لا يخف من جهتنا شيئا ، فإني لا أظهر لفلاتي عداوة ، إلا إذا جاء غازيا ، وإن خالفني أهل برنو فيما آمرهم به من الأمور الشرعية ، والمصالح الدنيوية ، أو تعدوا على ابن سبيل طالبا فضل الله ، أو حاج لبيت الله ، فعند ذلك أسل يدي من أمرهم ، كما تسل الشعرة من العجين ، ورجعت إلى موضعي الذي جئت منه ، وتركت ما بينهم وبين جيرانهم ، ينتقم الله من الظالم بالظالم ، ثم ينتقم منهم جميعا ، وفقنا الله وإياكم إلى ما يحبه ويرضاه ، وجعل خير أيامنا يوم نلقاه ، والسلام.

يقول محمد بللو : وجاوبناه بما هو نصه :

الحمد له ، والصلاة والسلام على رسول الله ، إلى محمد بللو بن الشيخ عثمان بن فودي ، السلام التام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فقد بلغنا كتابك ، وفهمنا من مقتضاه أنك تجتهد في كل عام في إنقاذ الكتب والرسائل ، إرادة الإصلاح، فها قد من الله علينا بوصول بريدكم إلينا ، وشاهد أحوالنا ، وأخبرنا بأحوالكم ، وقد ختمت وثيقتكم التي أرسلتها معه بما لا مزيد عليه.

أما قولك : (الحاصل أن من يتحرى السلامة ، ويتورع من الملامـة ، فلابد أن يجتنب ما لا يكاد يتضح خلاله من شبهته) إلى آخر كلامك ، فإن الأمر كما ذكرت ، طرق الأدلة متسعة ، وأوجه الشبه بينة ، وكلنا في غرر وخطر ، والأسلم والأحوط ترك القتال ، لكن قدر الله أن مجاورينا من المنتسبين إليكم أناس ليسوا مثلكم ، ولا هم على مثل حالكم ، وهم السبب في تأجج نار الفتنة بيني وبينكم ، وإن أردتم ثبوت الصلح وفتح الطرق وانتشار الأمن عما أرادوه من الملك والسلطنة.

ثم إذا كفوا عما ذكرته ، وظهر غدر وخلاف من أهل برنو ، تركتهم ورجعت لأرضي التي جئت منها ، وليفعلوا عندها ما أرادوا ، هذا وأنني ما ابتدأتهم بالقتال قط فيما سبق ولا ابتدؤهم فيما يأتي أيضا ، إلا إذا أغاروا على أطراف البلاد ، فعند ذلك لابد من الخروج للطلب ، كعادتي الأولى ، وذلك جائز ، بل واجب ، حيث لم أقل بكفر أهل برنو ، ولم أر لتكفيرهم وجها ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، أحسن الله لنا ولكم العاقبة ، وجعل حظنا من نعمه نعم الأخوة.

ثم كتبت هذه الأبيات بعد أن ركب الأصحاب على عجل وألحقتها ، فلا تنظروا ما فيها من خلل ، والمقصد صحيح بإذن الله :

ألاعم صباحا وأحضر الذهن إنني
حريص على من يقبل القول بالفهم

فإني أرى نفسي على الحق والهدى
وما زغت يوما عن طريق ذوي العلم

وما كنت مختارا لما سمعتمو
من الغزو والغارات والسفك للدم

ولست بعات في قتالي ومعتد

عليهم ولكن دافع الجور والظلم

كإنقاذ غرقى والحريق ومن ظلم

وذا واجب لا خوف فيه من الإثم

وفي الصلح خير إن رضيتم جوابنا

لننجو من التأويل والقول بالرجم

ولكن جيراني الذين يلونكم

ذوو خبط لا يرتضون بهذا السلم

فلنسأل رب العرش يجمع أمرنا

على البر والتقوى ويحسن بالختم

يقول محمد بللو : ولما وصل عندنا جاوبه الشيخ بجواب مقنع ، بين فيه الحق ، ورفع الإشكال ، ونقض بالكلية عرى الجدال ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، وإن لطف الله بالحاج الأمين ، وفعل ما فيه ، وعمل بمقتضاه فسوف نقول له من أمرنا يسرا ، ولا يلقى منا إلا سرورا وخيرا ، وإن تولى بعد ظهور الحق ، وخاض في القيل والقال ، وأتي بالتمويهات الداحضة ، والشبه الباطلة في الاستدلال ، فضرب الأعناق حتى تضع الحرب أوزار القتال ، إن الحكم إلا لله ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم.

ويضيف محمد بللو : وقد فهمنا من رسائله ما يدل على أنه صاحب نخوة وتكبر وتعصب ، وقد سبق في قلبه ما سبق ، وقل أن يرجع متكبر ، ولو ظهر الدليل ، وأوضح السبيل ، ولكن الله يضل من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب ، أحسن الله

عاقبتنا ، وسلك بنا الصراط المستقيم ، إنه ولي التوفيق ، ونص الجواب المقنع المذكور الذي أغنى عن كل جواب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، من أمير المؤمنين عثمان بن محمد ، المعروف بابن فودي متع الله الإسلام والمسلمين ببقائه وأيامه ، وجعل العاقبة خيرا ، إلى الشيخ العالم الحاج محمد الأمين ابن محمد الكانمي ، يسلم عليه وعلى من كان معه من المسلمين.

وسبب الوثيقة إعلامك خمسة أمور ، وهي تغني عن جواب وثيقتك التي وصلت إلينا على يد بريدنا عثمان :

الأول : إعلامك سبب الذي وقع بيننا وبين سلاطين الهوسا.

الثاني : إعلامك سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلطان برنو وأهله.

الثالث : إعلامك أنا لا نكفر أحدا من أهل القبلة.

الرابع : إعلامك بأننا نكفر كل من يخلط أعمال الإسلام بأعمال الكفر وأقواله.

الخامس : إعلامك حكم إقامتك في بلد برنو.

أما الأول الذي هو سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلاطين الهوسا ، وفقد كفاك في ذلك ما كتبه لك أخي عبد الله ، فإني قلت له ذات يوم ، اكتب له سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلاطين الهوسا ، فيعذرنا كل من وقف عليه ، إن كان من أهل الإنصاف ، فأجابني بكتابة ذلك في قرطاس ، ونص كلامه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، أما بعد ، فمقصودي من هذا المكتوب بيان هجرتنا من بلد غوبر ، وسبب جهادنا الذي وقع

بيننا وبين سلاطين الهوسا ، ليعذرني في ذلك كل من وقف عليه ، إن كان من أهل الإنصاف.

اعلموا أن شيخنا عثمان بن فودي ، أمير المؤمنين ، أطال الله حياته في طاعته ، إنما أنشأ على دعوة الخلق إلى دين الله في كل مجلس حضر فيه ، يبين فيه لأهل كل مجلس بلغتهم ، ما هو فرض عين ، وفي تخليهم عن الصفات المهلكات ، والتحلي بالصفات المنجيات ، وإحياء السنن وإخماد البدع ، فأجابه خلق كثير ، ونصروه حتى اشتهر بذلك ، وكان يسير في جماعته يطوف في البلد لتبليغ الدين فيها ، حتى تاب أكثر الجهال فيها من الكفر والفسق والبدع ، وكان يداني علماء زمانه ، الذين يخالفونه وينكرون عليه ، ولا يتعرض للسلاطين أفضلا ، حتى كثرت جماعته ، واشتهروا باسم الجماعة في بلاد الهوسا ، وكانوا يتركون بلادهم وينتقلون إليه ، وكان بعضهم من جنود السلاطين ، يتوبون وينتقلون إليه مع مالهم ، ويتركون سلاطينهم ، فكان ذلك مما يغيظ السلاطين حتى يقع بينهم وبين سلاطينهم ما هو معروف ، وهو لا يتعرض لهم ، بل يتغافل عن ذلك ، ويقول : (لا أدخل بين أحد وبين سلطانه ، ولا أفرق بينهما) دفعا للفتن.

والأمر مع ذلك لا يزداد إلا عظما، فكان حينئذ يداري السلاطين بالسير إليهم ، وإظهار المواصلة بينه وبينهم ، ومع ذلك ما يرون من كثرة الجماعة وعزة الإسلام يغيظهم ، وشياطين الإنس والجن تهيجهم ، يقولون لهم : (إن لم تفرقوا هذه الجماعة فلا ملك لكم ، يفسدون لكم الأرض باجتماع الناس عندهم ويتركونكم) حتى أرسل إلينا سلطان غوبر ، يريد الغدر بنا ، على ما سمعنا ، وتبين لنا بقرائن أحواله وأقواله وأفعاله ، فوقانا الله شره ، وسمعت منه ما أعلمنا أنهم لا يريدون إلا إهلاكنا ، فرجعنا إلى مكاننا.

ثم بعد ذلك غزا سلطان غوبر جماعة من جماعة الشيخ ، وقد كانت هربت منه لما خافوه فاتبعوهم بالجيش حتى أخذوهم وقتلوهم ، وسبوا أولادهم ونساءهم ، وجعلوا يبيعونهم بيننا ، ويخوفوننا بمثل ذلك ، حتى أرسل إلى الشيخ ذلك السلطان : (أن أخرج من بلدي ، أنت وأولادك ونساؤك وإخوتك ،ولا تخرج مع أحد غيرهم من جماعتك ، وفارقهم).

فأرسل إليه الشيخ أني لا أفارق جماعتي ، ولكن أخرج معي كل من أراد الخروج ، ومن أراد المكث فليمكث) فهاجرنا من وسط بلادهم سنة ١٢١٨هـ لعشر مضين من ذي القعدة إلى أطراف البلاد في البراري ، فجعل المسلمون يهاجرون ويتبعوننا ، ويصلون إلينا ، بعضهم مع أهله وماله ، وبعضهم وحده ، وقد أمر سلطان غوبر سلاطين بلاده أن يأخذوا من هاجر ، ويمنعونهم من الهجرة ، فأخذوا أموال كثير من المسلمين ، وقتلوا بعضهم ، ثم جعل سلاطينه الذين هم أقرب إلينا من جهة شرقنا ، يغيرون علينا ، ويقتلون وينهبون ويأسرون ، فاضطرب أمر الناس لذلك ، وجئنا إلى الشيخ ، وقلنا له : (إن هذا الأمر قد عظيم ، وانتهى إلى شهر السلاح ، فلابد أن يربط بالسلطان ، الذي يرجع أمر الناس إليه) مع أنه لا يجوز للمسلمين أن يكونوا هملا ، فبايعناه على الجهاد.

وقمنا لدفع الغارات عنا ، لأن الدفع عن الأموال والأنفس والأهل واجب إجماعا ، فسرنا إلى الذين يفترون علينا ، وهم خيل متنكر ، وسبينا نساءهم وأولادهم فتفرقوا ، وكنا نسمع أن ملكهم سلطان غوبر يجمع لنا جموعا ليستأصلونا ، فحفرنا لذلك خندقا ، اقتداء برسول الله (ﷺ).

وكان أهل حصن سلطان كن ممن يفترون من جهة الشرق ، فسرنا إليهم ،

وفتحنـا حـصنهم ، وقاتلنـاهم وقتلنـا سلطانهم ، ثـم رجـع جيشنا ، وانتظرنـا سلطان غوبر ينـف ، فجـاء إلينـا بجيوشـه ، فتلقينـاه بكتـو ، فهزم الله جنـوده ، فهـرب علـى حصنه ذليلا مغلوبا ، وذل بذلك جميع الكفار في بلاد الهوسا ، فتيقظـوا لذلك ، وجعل كل سلطان يقتـل المسلمين فـي بلاده ، فوقـع الحـرب بيـنهم ، فاستأصـل الله الكفـار ، إنجازا لوعده في نصر دينه وناصريه.

وكنا بعد طرد السلطان غوبر أرسلنا إلى جميع ملوك الهوسا أن ينصروا دين الله ، ويعينوننا في إقامة الدين ، فتكبروا وأبوا ، فاستأصـلهم الله (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ [1] الْعَالَمِينَ).

وأما الثاني الذي هو سبب القتال الذي وقـع بيننـا وبين سلطان برنـو وأهلـه ، فاعلم أنا ما قتلناهم لكفرهم بالأصالة ، وإن كـان يـؤثر عنهم تـواترا مـا يوجب الحكم بالتكفير ، مثـل مـا يفعلونـه فـي مكـان يـسمى بيكـو ، لعدم علمنـا بذلك حقيقـة ، وإنمـا قاتلنـاهم لابتـدائهم لنـا بالقتـال ، واعتـدائهم علينـا ، مـوالاة للكفـار ، وتعصبا لهـم ، ونصرة لهم ، ولا جرم أن ذلك يوجب الحكم بارتدادهم ، إن كـان سبق لهـم الإسلام الصحيح.

قال المغيلي في مصباح الأرواح في أصول الفلاح : (مما يدل علـى عدم الإيمـان بنص القرآن ، موالاة الكافرين ، لقوله تعالى : (تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً [2] مِّنْهُمْ

(١) ٤٥ / الأنعام.
(٢) ٨٠ ، ٨١ / المائدة.

فاسِقُونَ) ، لأن الدليل المذكور بين أن من لازم الإيمان عدم موالاة الكفار ، فلزم بشهادة رب العزة تكفير كل من تولى أحدا منهم ، كائنا من كان ، في كل زمان ومكان ، وموالاتهم نصرهم لأن المولى هو الناصر ، وكل من تولى أحدا منهم يكفر بما ظهر عليه من الموالاة ، ولا يعذر بما ظهر عليه من قصد المنفعة ، فيستتاب بالسيف ، فإن مات أو قتل مات كافرا ، فلا يغسل ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، وإن كان مدة حياته ينطق بالشهادتين ، ويصلي ويصوم ويحج ، ويقوم بأعمال البر ، لأنه لا عمل إلا بالإيمان ، وواحدة من خصال الكفر تحبط ألفا من خصال الإيمان).

ثم قال ، أي المغيلي : (وكيف لا يكفر بموالاة الكفار ، وقد نص العلماء على التكفير بواحدة من خصال لا تحصى : كالاستخفاف باسم من أسماء الله تعالى ، أو بشيء من وعده ووعيده ، أو برسول الله بشيء من شأنه ، كتصغير عضو من أعضائه ، أو تكذيبه في شيء مما جاء به - أو قوله لو أمرني الله أو النبي بكذا لم افعل - أو لو صارت القبلة في هذه الجهة ما صليت إليها - أو لو شهد ملك أو نبي بكذا ما صدقته - أو لو كان فلان نبيا ما آمنت به - أو قصعة من ثريد خير من العلم - أو ضحك بوجه الرضا بكلام الكفر - أو قال لمريد الإسلام : اصبر حتى يفرغ المجلس - أو أشار على كافر بألا يسلم ، أو مسلم بأن يكفر ، كفتواه لامرأة بأن تكفر لتبين من زوجها - أو استهزأ بشيء من الشريعة كجماعة جلس منهم واحد بمكان مرتفع ، وجلسوا حوله يسألونه مسائل ويضحكون ، ثم يضربون له بالوسائد مثلا - وكمن قال عند شرب الخمر أو الزنا : الله - أو صلى لغير القبلة متعمدا ، وإن صادفها - إلى غير ذلك من الفروع) انتهى كلامه في مصباح الأرواح في أصول الفلاح.

وأما الثالث الذي هو إعلامك أننا لا نكفر أحدا بذنب من أهل القبلة فهو كقولك : (لإجماع أهل السنة على عدم التكفير بالمعاصي) وفي ترجمة صحيح البخاري : باب المعاصي من أمور الجاهلية ، لا يكفر صاحبها ، وفي درر القلائد :

ومن عصي بكبير أو أصر على صغيرة فاسق بالإثم مجدول

وفي الرسالة : وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة.

وأما الرابع : فهو إعلامك بأننا نكفر كل من يخلط أعمال الإسلام بأعمال الكفر وأقواله ، وهو كذلك لإجماع أهل السنة على تكفير من كان كذلك ، وفي القصيدة الجزائرية :

ومثلهم كل ذي شرك - وإن نسبوا

للدين أنفسهم - كَفَّر ، ولا تغل

وفي بدء الأمالي :

ولفظ الكفر من غير اعتقاد يطوع رد دين باغتفال

وفي المختصر : (والجاحد كافر) وفي الكوكب الساطع :

جاحد مجمع عله علما ضرورة في الدين ليس مسلما

وفي إضاءة الدجنة :

وجاحد المعلوم بالضرورة باء بكفر وانتحى غروره

وأما الخامس : وهو إعلامك حكم إقامتك في بلد برنو فاعلم أن إقامتك فيها محرمة ، لأنا قد بينا لك أنهم مرتدون بموالاة كفار بلادنا الهوسوسية ومظاهرتهم

علينا ، فصارت بلدهم بلد حرب ، فوجبت هجرتك منها إلى غيرها من بلاد الإسلام ، لقوله (ﷺ) : (إنني برئ من مسلم ساكن بين المشركين) ولقوله (ﷺ) : (المؤمن والكافر لا تتراءى نارهما) أو ردهما سيدنا المختار الكنتي في النصيحة الكافية ، وقوله (ﷺ): (من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله) رواة أبو داود عن سمرة.

وأما قولك في وثيقتك : (فمر جميع الفلانيين أن يكفوا عن قال برنو ، وعن الغزو علينا) فلا يمكن ، ولا يجوز ، بعد أن علمنا أنهم كافرون بمظاهرتهم أهل الهوسا علينا ، وفاعل ذلك كافر ، كما بينه المغيلي في مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، كما مر بيانه :

والإصلاح لا يكون بيننا إلا بأحد أمرين ، إما أن يرجعوا إلى الإسلام الصحيح ، أو يطلبوا من وضع القتال ودخولهم في السلم ، ولا تظن أننا نكفرك أو نكفر جماعتك ، الذين كانوا من المسلمين بمظاهرة أهل برنو علينا - والعياذ بالله من ذلك - لأننا لا نكفر المبتدع المتأول ، فكيف تكفر العالم السني ، وهو على التأويل في كلامه ..... إذ قد رأينا تأويلك في جميع وثائقك ، وفي الدرر والقلائد :

من خالف الحق منا فهو مبتدع ولا نكفر ما دام تأويل

ومرادنا أنك على تأويل ، إنك لم تعلم أنهم كفروا بمظاهرتهم الكفار علينا قبل مجيئك إليهم ، لكنك تعتقد أنهم مسلمون ، والفلانيون المجاورون لهم مسلمون فوقعت الفتنة بينهم ،-ولم تعتقد أن قتال الفلانيين جهاد ، ولا أن برنو بلد حرب ، ثم إن الفلانيين كانوا يبتدئون لجمع الجيوش إليك ، ثم تقوم للدفاع عن الأنفس والأهل ، لما عرفت أنه واجب شرعا ، هذا مراد كلامنا أنك على تأويل ، إذ لو عرفت أنهم

كفروا بمظاهرتهم الكفار علينا قبل مجيئك إليهم ، وكنت وليا لهم دوننا لاشترك الإلزام والعياذ بالله من ذلك.

ولا يقال إنهم على تأويل ، لاشتراك العلة ، إذ حالك مغاير لحالهم ، لأن إسلامهم غير محقق ، ولا مثبت عندنا ، لما يؤثر عنهم تواترا ممن خالطوهم وعرفوا أحوالهم ، بأن لهم مواطن يركبون إليها ويذبحون ويتصدقون ، ويرشون الدماء على أبواب قريتهم ، وأن لهم بيوتا معظمة ، فيها أصنامهم ، ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية.

وكل هذا كفر في ظاهر حكم الشرع ، وإن كانوا لا يعتقدون التأثير فيها ، فهو إشراك تقليد ، فلا يعذرون بما ظهر عليهم من مقاصد أخرى ، كمن سجد لصنم مثلا بمائة ألف درهم ، فقد بان الفرق بين أمرك وأمرهم ، لأنك مسلم محقق إسلامه ، بل عالم سني ، وما سمعنا من العوام والخواص ممن عرفك - إلا من يحدث أنك عالم صالح ، والسلام.

المؤلــف

المحتويات

الموضـــوع	الصفحة

(١) في السودان الغربي.